أولاً الدراســـة

إبليس فى التصور الإسلامى
بين
الحقيقة والوهم

تاليف

أ / إمام حنفى عبدالله

المبحث الأول

فى بيان حقيقة إبليس

ويشتمل على أربعة فصول:

الفصـــل الأول : إبليس والمعصية .

الفصل الثانـــى : خلق الله إبليس لطاعته .

الفصل الثالـــث : كيد إبليس فى الواقع .

الفصل الرابـــع : فى ذكر الجن وثوابهم وعقابهم .

الفصل الأول

إبليس والمعصية

الفصل الأول

إبليس والمعصية

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾ (١) .

ذكر القصاص والمحدثون روايات كثيرة فى خلق آدم ومعصية إبليس لربه وخروجه من الجنة ثم حسده لآدم ووسوسته له حتى خرج هو وزوجه من الجنة هو الآخر ، وأغلب هذه الروايات عبارة عن إسرائيليات وأكاذيب وخيالات نسجها القصاص وروجوها ؛ لرغبة الناس فى سماعهم ورغبتهم فى مزيد من المعرفة عن قصة الخلق ونشأة الوجود والكون والحياة .

فمن يكون إبليس وما اسمه ومن أى شئ خُلق ، وما مدى صدق هذه الروايات التى تروى عنه وعن الجنه ؟!.. كل هذه تساؤلات لم يعدم القدماء الإجابة عنها ، لأسباب كثيرة ، منها نهمُ العامة فى معرفة هذه القصة ورغبتهم فى القص والحكاية، وطبيعة الشعوب العربية التى تعودت على السماع فى أنديتها وتجمعاتها .

وهناك فى هذه الروايات أوشاب مختلفة من التأثر بالديانات الشرقية وعقائد المجوس والمانوية والثنوية ، بالإضافة إلى ماذكرته التوراة وحكاه اليهود زيادة عما فيها ، فقد أضاف اليهود لتوراثهم الكثير من الحكايات عن بدء الخلق وتاريخ الإنسان والمخلوقات ، حتى غفل بعضهم فحكى ما لم ير ولم يسمع عنه موسى، عليه السلام ، أو يهودى على الإطلاق !.. فقصوا خبايا النفوس وما كان يحدث بين الجان وفى الغرف والأماكن المغلقة ؛ وقيل فى المثل إن كنت كذوباً فكن ذكوراً!.. إلا أن اليهود أئمة التزوير والتحوير والافتراء .. لم يستحوا .. لأن للحياء أهله وهم لا يعرفونه !

القصد ؛ يروى أن إبليس من الجن واسمه الحارث وخلق من نار السموم ، وهذه المعلومات منها ما يمكن التثبت من صدقه ، عند عرضه على الكتاب ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٤ .

(٢) سورة الكهف : آية ٥٠ .

وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [١] .

وقال تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [٢] .

واختلف المتكلمون فى إبليس ، هل هو من الملائكة أم لا ؟

(١) فقال قائلون: هو منهم، ولكنه أخرج عن جملتهم ، لما استكبر على الله ، عز وجل.

(٢) وقال قائلون: ليس هو من الملائكة [٣] .

ويروى ابن جرير حديثاً عن ابن عباس يحكى فيه أصل إبليس واسمه وكيف انضم إلى الملائكة وتربى معهم ، ثم يذكر الحديث نصاً ، يبرُر به كيف بدأ الشر فى الوجود، فقد كان إبليس سيِّدَ طائفةٍ من الملائكة دخلت فى معركة مع الجن فسحقتهم وكان النصر لهم .. فقتلهم إبليس ومن معه ، حتى ألحقوهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اغتر فى نفسه فقال : قد صنعتُ شيئاً لم يصنعه أحد ، قال : فاطلع الله على ذلك من قلبه ، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه .. يقول – أى الله عز وجل – : إنى قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه ، من كبر واغترار .. إلخ وهكذا . إلا أن ابن كثير يعلق على هذه الرواية ناقداً لها : هذا سياقٌ غريبٌ . وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها ، وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور [٤] . وهو يشير إلى تفسير السدى .. وهو مطبوع تحت عنوان « تنوير المقباس فى تفسير ابن عباس » .

ويعقب ذلك رواية أخرى عن ابن مسعود ، وعن أناس من أصحاب النبى ، ﷺ ، عن بدء الخلق وكيف خلق الله آدم واعتراض الملائكة ، وما بدى من إبليس من الاغترار والكبر ، ويعلق عليها تعليق الناقد البصير ، فيقول : فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السدى ، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة ، فلعل بعضها مدرج وليس من كلام الصحابة ، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة ؛ والله أعلم [٥] .

---

(١) سورة الرحمن آية ١٥ .

(٢) سورة الحجر آية ٢٧ .

(٣) الأشعرى: مقالات الإسلاميين؛ ٢ / ١١٤ .

(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ١ / ٨١ .

(٥) ابن كثير ١ / ٨٢ .

ويأخذ على الحاكم روايته مثل هذه الإسرائيليات فى مستدركه ، الذى استدرك فيه على الشيخين ما لم يروياه من الصحيح على شرطهما ، فيقول : والحاكم يروى فى مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ، ويقول على شرط البخارى . هكذا كان على وعى لخطورة مثل هذه المرويات ، ومع أنه ذكر ما سبقه إلى ذكره ابن جرير فى تفسيره[1] ، حتى ليعتبر علماء التفسير تفسير ابن كثير مختصراً لتفسير ابن جرير ، خلا من كثير من الحشو والروايات الخرافية ، إلا أنه ذكر بعضها كذلك ، ونبه عليه فى أغلب الأحيان .

ولتعليل كيفية دخول إبليس عالم الملائكة ، نجد رواية جاهزة لذلك عن سنيد بن داود بسنده قال : كانت الملائكة تقاتل الجن فسبى إبليس ، وكان صغيراً ، فكان مع الملائكة يتعبد معها ، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا ، فأبى إبليس[2] .

ولكن محمد بن كعب القرظى يرى رأيا جبرياً خالصاً فى ربه فيقول بأنه : « ابتداء خلق إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة ، فصيره الله إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر » . وهذا الكلام – والعياذ بالله – يفترض أن الله خلق من خلقه عباداً ، ليكفروا به ويعصوه ويضلوا عباده ، وبالتالى فقد خلقهم للنار ابتداء ! . . ولا أدرى لِمَ يقول فريق من الناس هذا الكلام ؟! . . غير أن المؤاخذة على من يصرِّحُ أو يروى – دون نقد – لمثل هذا الاتجاه الغاشم ، الذى ينقض أسس التوحيد الإسلامى من الجذور .

عموماً علل المفسرون رفض إبليس للسجود لآدم ، كما أمر الله ، بأنه حسد منه وكبر ، وهو صحيح ، فإبليس خلقه الله لطاعته ، كما خلق عباده ، وركب فيه حرية الاختيار ، دون أى جبر له على معصيته، فاختار معصيته، تعالى، واختار آدم طاعته ، وذلك حسداً منه لآدم ، وكبراً أن يسجد كما أمره ربه .

ووقف العلماء عند قضية **هل يعطى الله من يعصيه من الكرامات وخوارق العادات** مثل ما يعطى أنبياءه وأولياءه ، فقال من نرى صحة رأيه : إن ذلك جائز على سبيل

---

(١) السابق ١ / ٨٣ .

(٢) انظر تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل أى القرآن تحقيق الأستاذ محمود شاكر ط . المعارف القاهرة .

الاستدراج والإمهال ، وقياساً على ما أعطى الله لابن صياد والدجال من خوارق العادات للفتنة والابتلاء [1] .. وقد كان الشافعي يفرق بين الكرامة والاستدراج ، بعرض حال صاحبها على الكتاب والسنة ، فإن كانت لصاحب دين وتقوى عاملاً بالكتاب والسنة فهي له كرامة، أما الأخر فهي له فتنة واستدراج [2] : « إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة » [3] . وهومعيار سليم وصائب للتمييز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . ولا اعتبار لخلاف المعتزلة مع أهل السنة في الكرامة؛ لأنها ثابتة بالكتاب والسنة ، وأجمع السلف على ثبوتها في حق أولياء الله الصالحين ، ويجريها على أيديهم [4] .

إلا أن حديث المعجزة والكرامة أخذ منعطفاً آخر بعد الصدر الأول ، فغالى الرواة في ذكر معجزات النبوة لدعم قضية الإيمان في نفوس العوام؛ وغالى الصوفية في مسألة الكرامة ، والتي من أبرز خواصها الإخفاء ، حتى صارت في عداد الخرافة والكذب الصريح .

ويروى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي ذر ، قال : قلت يارسول الله أرأيت آدم أنبياً كان ؟.. قال : « نعم ، نبياً رسولاً يكلمه الله قبيلاً ، وقبيلاً يعني : عياناً » .. وهو كلام لا يصح ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[5] .. وهو من قبيل نقد المتن لتعارضه مع محكم الكتاب ، ولا حاجة لنا إلى دراسة السند ، لجواز صحته مع كذب المتن .. والمكذب هنا الراوي وليس النبي ، وهو أحد طرق نقد الحديث عند المحدثين ، وقد اتفق أهل السنة والمعتزلة على صور الوحي عدا المشافهة لنص الآية [6] . أما نبوة آدم، عليه السلام ، فقد خالف فيها بعض العلماء ، والصواب أنه رسول ونبي ، ولا اعتبار لحجة الخصوم ، لقوة النص القرآني في دعم القول بنبوته .

---

(١) انظر على سبيل المثال الإيجي : المواقف ، ص٣٧٠ ؛ والباقلاني : البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانةوالسحر والنارنجات .. والجويني : الإرشاد ، ص ٣١٦ - ٣٢١ .

(٢) البيهقي : الاعتقاد ؛ ص ١٩٥ .

(٣) الباقلاني : السابق ؛ ص٤٥ .

(٤) شرح المقاصد ؛ ٢/ ١٣٩ - ومابعدها .

(٥) سورة الشورى آية ٥١ .

(٦) انظر القاضي عبد الجبار : المحيط بالتكليف ؛ ص٣٠٩ .

ويدلنا على تعقب المحدثين للرواة أن ابن جرير ذكر فى نوع الشجرة التى أكل منها آدم وزوجه ست روايات ، أربعة منها عن ابن عباس فى أنها الكرم أو الحنطة أو البر أو السنبلة ، وثنتين عن أبى مالك ووهب بن منبه أنها النخلة أو شجرة التين !..

وأمام حيرة الإمام الجليل ، ابن جرير الطبرى ، وضع ضابطاً لما تمنينا أن يستخدمه فى تفسيره باستمرار فى مواجهة الكم الهائل من الروايات الخرافية أو الموضوعة على رسول الله ، ﷺ ، والتى رد على من انتقده فيها بأنه رواها بأسانيدها ، وهو على علم بمعرفة المحدثين بقيمتها الحقيقية أو بمدى صحتها من وضعها ، غير أنه قد فاته أن هذا التفسير سيعبر إلى عصور تجهل نقد الحديث وعلومه بالكلية، وسيؤتى الإسلام من هذا الجانب بين مكذب لحديث رسول الله ، ﷺ ، ورافض له ، لجهله بالحديث رواية ودرايه ؛ وبين عوام يروجون للخرافات فإذا سألوا ردوا الأمر إلى تفسير الطبرى !!..

أقول وضع الطبرى فى مواجهة هذه الروايات ضابطاً رائعاً وهو : « **والصواب فى** ذلك أن يقال : إن الله ، عز وجل ثناؤه ، **نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها** ، فأكلا منها ، ولاعلم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ؛ **لأنَّ الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك** فى القرآن ولا من السنة الصحيحة .. وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به ، والله أعلم »[1] . ويقصد ابن جرير أن هناك علماً كقشور القمح أو كالطعام الفاسد ؛ لتفاهته لا ينبغى اجتراره أو شغل الناس به.

ويقول ابن كثير فى قصة آدم وإبليس ونزولهما من الجنة معلقاً على روايات الرواة : وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى بأسانيده ، وأبى العالية ، ووهب بن منبه وغيرهم - ههنا - أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس وكيف جرى من دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته .

ويبدو أن القدماء من القصاص كانوا يعجبون بإرضاء رغبات وميول العوام ، الذين يعنون بمثل هذا الأمور والتى تناسب عقولهم الكليلة وأنظارهم الضعيفة ، وهى لهم مادة سمر معتبرة.

---

(١) انظر ابن كثير ، ١/ ٨٥ .

ولك أن تتأمل ما يذكره ابن كثير عن ابن جرير مختصراً فى تفسيره ، عن قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [١] من أن الأمر آنف وكل شئ قرره الله قبل خلق الخلق ، فعلاً له وإرادة ماضية ، وقضاء وقدراً لايرد ، فمن عصاه عصاه بإرادته ورغبته فى عصيانه ، ومن أطاعه أراد له الطاعة ، محبة فيه وتنفيذاً لما سبق وكتبه عليه فى اللوح ! [٢] .

وهذا كلام ينقض آيات الكتاب ويهز عرش التوحيد والعدل ، ولا أرى كيف نقرأه كل يوم دون الوقوف – مجرد الوقوف – لفهمه والتنبيه عليه ؟!.. والرواية مهتزة فأبو إسحاق السبيعى يروى عن مجهول أشار إليه بقوله : عن رجل من بنى تميم وهو اسم لقبيلة الرجل وليس اسماً له ، قال : أتيت ابن عباس فسألته..؛ وهذه الرواية لا تعنينى فى شئ والذى يعنينى التى تلتها، حيث قال : وفى رواية قال – أى السبيعى– أخبرنى مجاهد عن عبيد بن عمير، أنه قال : قال آدم : يارب خطيئتى التى أخطأت شئ كتبته علىّ قبل أن تخلقنى أو شئ ابتدعته من قبل نفسى؟ قال : بل شئ كتبته عليك قبل أن أخلقك . قال : فكما كتبته علىَّ فاغفر لى .

وفى هذا الحديث وأضرابه إشارة إلى أن المسلمين قديماً قد انقسموا إلى قائلين بالاختيار وقائلين بالجبر، والأولون هم الأكثرون؛ أما القلة التى روجت للجبر فأغلبها من القصاص والرواة الذين قصرت عقولهم عن فهم الدين، والحق يأتى عندهم بعد أكذابيهم ولا اعتبار لمدعى .

لم يأكل آدم من الشجرة إلا بعد أن أقسم له إبليس أن ما نهاهما الله عنه، من الأكل من الشجرة، لم يكن على سبيل التحريم ، وأنهما لا يستحقان بذلك عقوبة أصلاً ، ل يستحقان بذلك الجزاء الحسن وفوز الأبد ، قال، تعالى، حاكيا عن إبليس أنه قال لهما : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [٣] فلما نسى آدم ،عليه السلام، عهد الله إليه فى أن إبليس عدو له ، أحسن الظن بيمينه [٤] .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٧ .

(٢) راجع القاضى عبد الجبار : المغنى ٦/٢١٨ – ٢٥٥ . والماتريدى : التوحيد ؛ ص٢٢٦ ، ومابعدها .

(٣) سورة الأعراف الآيات (٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) .

(٤) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ؛ ٤/١٠ .

لقد كان كل فعل إبليس هومحاولة التأثير فى قرار آدم واختياره ، بعد أن عقد العزم على طاعة ربه ، فلما نسى عصى ربه .. فلما عاودته طبيعة الخير والطاعة ، طلب من ربه التوبة والمغفرة .

وهكذا يتبين لنا أن الروايات التى أذاعها القصاص والمحدثون عن قصة خلق آدم وإبليس وما حدث بينهما، فيها كثير من الخرافات والأساطير التى روجها اليهود ، وتمكنت هذه الإسرائيليات من توجيه أذهان المسلمين نحو عقائد لا تصح فى دينهم ولاسناد لها، مثل كون إبليس خلق للمعصية والفجور ، ولو أراد أن يتوب فلن يجد إلى ذلك سبيلاً .. وأن آدم كان مجبوراً فى عصيانه لربه .. أو أن لإبليس قدرة على الوسوسة والتأثير فى خواطر آدم وزوجه !..

وهذا يجعلنا نوجه الحديث فى الفصل القادم نحو خلق إبليس ، وهل خلقه الله لطاعته أم لمعصيته ، وكيف تصرف فى الحقيقة.

* * *

الفصل الثاني

خلق الله إبليس لطاعته

الفصل الثانى

خلق الله إبليس لطاعته

قال تعالى – فى سورة الأعراف – فى ثنايا حكايته لخلق آدم ومعصية إبليس : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (١) .

فقد بينت الآية ووضحت أن إبليس خلق فى الأصل لطاعة الله وامتثال أوامره وعبادته ، لا لمعصيته ومعاندته والإفساد بين العباد . فقضية أن يسجد أولا يسجد كانت له هو باختيار مطلق حر جبله الله عليه : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (١) ؟!! ولا يمكن أن يسأله ، تعالى، بيان سبب امتناعه عن سجوده وهو الذى منعه وجبره! . . فإبليس كان قادراً على أن يطيعه إذ عصاه ؛ ولأن هناك سبباً داخله منعه – يخصه هو دون غيره –كان لابد من معرفته ، فلربما كان السبب له علاقة بحرية الاختيار والقدرة والاستطاعة عليه ، ولكنه كان فى النهاية راجعاً إلى كبره وصلفه على أن يطيع أوامر مولاه وخالقه والسجود – امتثالاً وخضوعاً له – لعبده آدم إذا أمره ؛ فقال ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾(١) ، وكيف يسجد الأفضل للمفضول ؟!. . هذا ما ظنه وهو قائم على اعتقاد خاطئ عنده أن النار خير من الطين وأشرف ! . .

وهو قياس خاطئ كذلك؛ لأنه نظر إلى عنصره وإلى عنصر آدم ، ورأى أن عنصره الذى خلق منه خير من عنصر آدم ، ولم ينظر إلى تشريف الله لآدم حين خلقه بيديه ، ولا تشريفه له حين أمر الملائكة بالسجود له تشريفاً وتعظيماً . .

ثم كيف قطع وجزم بأن النار خير وأشرف وأفضل من الطين؟! . . فلربما كان الطين أفضل من النار فى أصل العنصر وهو لا يدرى ، وأكثر نفعاً وفائدة من النار . . ولذلك ينبغى عدم الاعتماد على ظواهر الأشياء عند الحكم عليها ، لمخادعة هذه الظواهر للناظر إليها ، وكذلك سبر غورها لمعرفة كنهها ؛ والتأكد من صحة القياس وصوابه عند ضرورة القياس ؛ ونفى شهوات النفس وميولها ورغائبها عند الحكم على الأشياء؛

---

(١) سورة الأعراف الآيات (١١ – ١٢) .

واعتماد الخبرات السابقة ، واحترام من تأكد لدينا صدق نصحه وتوجيهه وإرشاده، وكل ذلك عانده إبليس فى الظاهر والباطن ، فكان حكمه مغالطاً للحقيقة والواقع .

ولنا وقفة مع مفهوم السجود فقد اختلف العلماء حوله هل كان لله أم لآدم؟.. فقال بعضهم أنه كان له تعالى ، لخلقه عبده آدم على هذه الصورة .. فقال: اسجدوا لى لعظمة خلقى لعبدى آدم .. وهؤلاء قالوا أنه لا يجوز السجود لغير الله مطلقاً .. أما كيف كان السجود ؟.. فقد قالوا أنه كان إيماء أوأنه كان بمعنى الخشوع والامتثال، يقول الزمخشرى: «السجود لله، تعالى، على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة، كما سجدت الملائكة لآدم، وأبو يوسف وإخوته له، ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه» [1] .

لقد كان إبليس فى منزلة رفيعة شريفة فى الجنة ينعم فيها برضا ربه عليه ، ولكنه عصاه وتكبر وذهب مغاضباً ، لحسده آدم وكبره فى نفسه ؛ وهذه الآفات لا ينبغى أن تكون فى عباد الله المتقين ؛ ومن يقترفها وجب أن يخرج من رضا الله إلى سخطه ومن جنته إلى عذابه، قال، تعالى : ﴿ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾** ﴾ [2] ، فالكبر أخرجه وحوله من منزلة المكرمين إلى درجة الأذلاء المحتقرين.

وكان لإبليس – ومتاح له – فرصة بعد أخرى ليتوب إلى ربه ويعود إلى كنف طاعته ، إلا أن كبره منعه ، فى حين سأل آدم ربه التوبة – بعد أن عصاه – فتاب عليه؛ وهنا ينبغى الوقوف لبيان أن آدم وإبليس ، كانت لديهما فرصة متساوية للتوبة والإنابة ، فاغتنمها آدم ؛ ولم يمنع الله إبليس من التوبة ، ولو تاب إليه لتاب عليه ؛ ولكنه آثر الهوى والكبر ولعبت به شهوات نفسه فلجَّ فى عناده ، وبدلاً من أن يتوب قال لربه : ﴿ **قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾** ﴾ [3] .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ، ١/١٣٧.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣ .

(٣) سورة الأعراف الآيات (١٤ – ١٧)

أن يخرج إبليس من الجنة ويتحول من دار الكرامة إلى دار المهانة ومن منزلة التشريف إلى الذلة والصغار ، هذا ما زاد حنقه وغيظه ؛ وعول السبب – في ذلك كله – على آدم الذى عرف تاريخ ميلاده وقرأ سيرته هو وذريته ، ونسى أن السبب الحقيقى من عنده هو ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [1] لقد فسد داخله ففسدت تصرفاته ونظراته للأشياء ؛ وتعجل شأن نفسه وقطع عليها طريق العودة إلى كنف الطاعة ؛ وطلب من ربه أن يطيل فى عمره إلى يوم القيامة ، والذى كان يعرفه ، وأن لا يقضى عليه الموت إلى ذلك الحين ، فأجابه الله إلى طلبه وسؤله ؛ وعاودته الفرصة مرة أخرى وأمهل لعله يتوب؛ ولكنه أبان عن سوء قصده ونيته ؛ فأقسم على ربه ، بما قضى عليه وقدر من المهانة والذلة والاحتقار ، أن يفعل ببنى آدم ما يلحقهم بالعذاب والذلة يوم القيامة .

وهو قريب من رسم خطة فى الفساد ، ومنهج فى إضلال عباد الله ؛ خلقه الله لطاعته فآثر معصيته ، وخلقه للإيمان فكفر وسعى فى الأرض فساداً ؛ فقال : لأترصدن لهم عند كل صراط مستقيم لإضلالهم ، وسأفعل جهدى ووسعى حتى يكفروا بك ، فيجب عليهم ما وجب علىَّ بسوء فعلى! .

ولا ينبغى التسرع فى فهم هذه الآية ، فهذا مجرد كلام تافه من عبد تافه ضعيف ذليل أبان عن كمده وغظيه – فرقعة ، أو إرغاء ، أو تهويش – يقول ابن كثير : « وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق الواقع [2] ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [3] .

فإبليس ليس فى يده تقديم شئ أو تأخيره ؛ أو هداية أحد أو إضلاله ، وكأنه تعالى يقول له ﴿ اذهب فأرنى ما بوسعك أن تفعل ﴾ .. يعنى : أنت يا إبليس أعجز من أن تفعل شيئا مما تقول . ووافق ابن قتيبة ما سبق من تاويل هذه الآية فقال : تاويله أن إبليس لما سأل الله ، تبارك وتعالى ، النظرة فأنظره ، قال : لأغوينهم ولأضلنهم

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٣ .

(٢) ابن كثير ، ٢/٢٢٩ .

(٣) سورة سبأ : (٢٠ – ٢١) .

ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ، ولأتخذنَّ منهم نصيباً مفروضاً [1] .

وليس هو – فى وقت هذه المقالة – مستيقناً أن ما قدره الله فيهم يتم ؛ وإنما قاله ظاناً، فلما اتبعوه وأطاعوه ، صدق ما ظنه عليهم أى فيهم ؛ ثم قال الله : وماكان تسليطنا إياه إلا لنعلم من يؤمن ، أى المؤمنين من الشاكين» [2] .

وهكذا يتبين لنا باليقين أن الله خلق إبليس لطاعته وعبادته ؛ ومنحه القدرة على ذلك ، وكلفه ما هو فى وسعه وطاقته ؛ وكرمه تكريماً كبيراً حين أطاعه بأن جعله سيداً أو رئيساً أو كبيراً لطائفة من الملائكة يأتمرون بأمره فى الجنة ، وحاز من الولاية منزلاً رفيعاً ؛ ولأن التكليف ابتلاء ، واختبار فى أن يطيع العبد ربه أو لا يطيعه ساله، عز وجل، أن يمتثل لأمره بالسجود لآدم .. فأبى وعصى وأبدى من منكر القول والفعل ما استحق عنه الطرد من رحمة ربه .

ولعله كان أمام إبليس نماذج من الخلق عصوا ربهم فعذبهم الله ، وكان إبليس أحد جنود الملائكة الذين قاموا بطاعة الله فى إهلاكهم .. فتعجب من عصيانهم رب الأرباب .. وتسائل عن أسباب الكفر والعصيان الذى وقعوا فيه ، وعرف أنه الكبر والعناد ورد أمر الله وعدم الامتثال له ..

وهذه هى الآفات النفسية التى كانت متوارية فى إبليس ، أظهرها كمده وغيظه من آدم وحسده له .. فأقسم على التمادى فى المعصية بدلاً من طلب المغفرة ؛ وما كان قسمه إلا ظناً وافق ما فعله كثير من عباد الله من أولاد آدم .

* * *

---

(١) فى سورة النساء الآيات (١١٧ – ١١٩) ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩)﴾ .

(٢) ابن قتيبة : تاويل مشكل القرآن ؛ ص؛ ص ٣١٠ .

الفصل الثالث
كيد إبليس في الواقع

ويشتمل على خمس نقاط:

١- كيد إبليس .

٢- مس إبليس .

٣- نزع إبليس .

٤- إبليس والرسل .

٥- إبليس وعيسى، عليه السلام .

١- كيد إبليس

إن خطوات الشيطان فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) ﴾ [١] هى معاصيه ؛ وكل معصية لله فهى من خطوات الشيطان ؛ وهى نزغاته وخطؤه وخطاياه ؛ فمن فعل كفعله وسار على منهجه كان تابعاً له ، ولذلك كان السلف يذهب إلى أن النذر فى معصيته هو من خطوات الشيطان التى ينبغى التكفير عنها [٢] .

ويُفَسِّرُ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ(١٦٩) ﴾ [٣] فى ضوء قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [٤] ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾ [٥] ؛ فهو مجرد طلب وسعى وليس فيه جبر أو قهر ؛ وهو مجرد إيحاء من شياطين الإنس – لا الجن – لنطعم الخبيث من الطعام ونشرب الخبيث من الشراب ؛ والظاهر أن شياطين الإنس هى التى تسعى فى هذا الأمر وتحتال على من تريد حتى تغويه . فالصحبة السيئة فى البيئة الفاسدة هى التى عصت ربها وامتثلت لأمر شيطانها فمالت وغوت ، وكل من ينقاد لها مثلها تماماً .

وهكذا قال فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ﴾ [٦] .

أى طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا مارزقهم الله [٧] . ولا يعقل ممن حذرنا من خطوات الشيطان وطريقه أن يسلطه أو يقدره علينا من أى سبيل ! . . قال الزمخشرى : ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشيطان ﴾ [١] ، فى التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية » [٨] .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ

---

(١) سورة البقرة اية ١٦٨

(٢) ابن كثير ؛ ١ / ٢١٨ .

(٣) سورة البقرة اية ١٦٩ .

(٤) سورة ابراهيم اية ٢٢ .

(٥) سورة الإسراء اية ٦٥ .

(٦) سورة الأنعام : ١٤٢ .

(٧) ابن كثير ؛ ٢ / ٢٠٥ .

(٨) الزمخشرى، الكشاف، ٢ / ٧٣ .

﴿ الْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦ ﴾ [1] ، لقد أقام الله أسس الجزاء فى الإسلام على أساس الثواب والعقاب ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ [2] ، ولذلك كان صادقاً فى وعده ووعيده ، بلا إيجاب عليه ولافرض ، فهو القادر على إنفاذ جزائه تصديقاً لما أمر، وهو أيضاً القادر على التجاوز والعفو تفضلاً لمن أراد ، ولا تعارض بين العدل والعفو؛ لأنهما من إله واحد أحد ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝٢٣ ﴾ [3] .

والدنيا تسحب أبناءها خلفها بإغرائهم وبما أبدوه من ميول ورغبات فى إشباع غرائزهم ، فغايتهم اللذة والمنفعة وإشباع الهوى ، والشيطان على قارعة الطريق يزين لهم الباطل ويهون عليهم شأن المعصية ، ويزهدهم فى وعد ربهم ويطمعهم فى عفوه ، بعد أن حذرهم – تعالى – الوقوع تحت طائلة عقابه.

فهل يعقل ، بعد أن قص ربنا علينا خصومة إبليس لآدم وذريته، وبعد ما كان وأبدى من بغضاء وحسد لأبينا ولنا ، أن نتبعه ونتولاه وهو القائد للهلاك والضلال؟!!..

فتذكر ، ما نسيتم من شأنه ، وأحذروا أن يضلكم فى عقائدكم أو أعمالكم؛ وأبدوا له العداء سافراً كما أبداه لكم؛ ولا يكون ذلك إلا بالإيمان والمعرفة وإرساء قاعدة الولاء والبراء ووزن إبليس وحزبه بميزان الحق ، وبغضهم [4] فى الله والحذر منهم فى كل وقت وحين ، ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ [5] ، واعتبار اتباع الشيطان ظلماً وأصحابه ظالمين ﴿ . . بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠ ﴾ [6] .

* * *

---

(١) سورة فاطر اية ٦

(٢) سورة الزلزلة الآيتان ٧ – ٨ .

(٣) سورة الانبياء آية ٢٣ .

(٤) انظر الزمخشرى؛ ٣/٥٩٩.

(٥) سورة الاعراف اية ٢٧ .

(٦) سورة الكهف اية ٥٠ .

٢ - مسُّ إبليس

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ... ﴾ (١) .

يقول ابن كثير : « أى لا يقومون من قبورهم - يوم القيامة - إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً » . (٢)

والتخبط عبارة عن الضرب على غير استواء واتساق ، أما المسُّ فهو الخبل والجنون(٣) ؛ فالمتعاملون بالربا المستحلون له لا يقومون يوم البعث إلا كقيام المصروع الذى تخبله الشيطان وصرعه ؛ وهو تشبيه جاء على ما تعارفه العرب فى لغتها من إضافة الصرع وكل شئ قبيح إلى الشيطان ؛ ونظيره قوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ (٤) .. واختار الرازى أن المراد بمس الشيطان : « دعاؤه إلى طلب الملذات والشهوات والاشتغال بغير الله ، ومن استجاب له كان متخبطاً فى أمر الدنيا ، فتارة يجره الشيطان إلى الهوى وتارة يجره الملك إلى الهدى . وآكل الربا مفرط فى حب الدنيا فإذا مات على ذلك الحب صار حجاباً بينه وبين الله تعالى، فالخبط الذى كان حاصلاً له فى الدنيا بسبب حب المال أورثه خبطاً فى الآخرة » .

فالناس يخرجُون من قبورهم مسرعين ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) ﴾ (٥) ؛ إلا أكلة الربا فإنهم يقومون ويسقطون ، كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان ويسقط ؛ لأنهم أكلوا الربا فى الدنيا ، فأرباه الله فى بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم ، فهم ينهضون ويسقطون ويريدون الإسراع فلا يقدرون .

وقال الزمخشرى: تخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع. كما قال: إنهم يزعمون مس الشيطان للإنسان : « وهذا أيضاً من

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥ .. وتفسير الطبرى ٣/٦٧ - ٦٨ .

(٢) ابن كثير ؛ ١/٣٥٠ .

(٣) انظر المعجم الوسيط ؛ ١/٢١٥ مادة « خبط » ؛ ٢/٨٧٥ مادة « مسّ » .

(٤) سورة الصافات آية ٦٥ .

(٥) سورة المعارج آية ٤٣ ، وانظر تفسير الطبرى ٢٩/٥٥ ، والأجداث : القبور .

زعماتهم، وأن الجنى يمسه فيختلط عقله.. ورأيت لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات !..» [1] .

وفى الآية بيان أن هناك من الناس من يمسه الشيطان بالجنون [2] ، وهوصحيح مشاهد فى حق من غفل عن ذكر الله وعن الصلاة ، فتتوزعه الأهواء وتشتت شمله الأفكار فتذهب قوى عقله ويصير مجنوناً.

وقد أعجبنى التفسير الصوفى لهذه الآية إذ صرفها إلى محض جزاء القدرة الإلهية بنفس العبد العاصى الخارج عن حدود الأدب ؛ إذ أقبل على ا لمعصية بعد معرفة حكم الله فيها معلناً تجاوزه لأمر ربه ، وقد سقطت هيبة هذا الأمر فى الظاهر بعد سقوطها فى الباطن ، فاستحق التأديب باضطراب أحواله ، وكذلك الصوفى يحدث له ما يحدث لآكل الربا إن تعدى حدود الأدب ، وتفلتت عليه نفسه فأجازت له ما يسؤ من الخواطر الشاردة أو الفاسدة فيحدث له ما قال عنه شيخ الصوفية وإمام الطريقة سابر أغوار الحقيقة : «من أعرض عن الأمر ، ورخَّص لنفسه ، بما يسوِّله له خاطره من التأويل ، فلا استقلال لهم فى الحال ولا انتعاش فى المآل ؛ خسروا فى عاجلهم ، ولم يربحوا فى آجلهم .

ومن انتبه بزواجر الوعظ ، وكبح لجام الهوى ، ولم يطلق عنان الإصرار ، فله الإمهال فى الحال ؛ فإن عاد إلى مذموم تلك الأحوال ، فلينتظر واشك الاستئصال وفجاءة النكال » [3] .

وهو فهم رائع يحتمله النص فى إطار التفسير النفسى لخبايا النفس الإنسانية فى القرآن وعند الصوفية بعيداً عن الخرافة والتسطيح .

* * *

---

(١) الزمخشرى : الكشاف، ١ / ٣٢٠.

(٢) الطبرى ٣ / ٦٨

(٣) القشيرى : لطائف الإشارات ؛ ١ / ٢١١

٢ - نـزغ إبليس

قال تعالى : ﴿ وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [١] .

النزغ النخس .. ونزغ الدابة : نسخها وحثها على الجرى . ويقال : هذا من نزغه الشيطان : أى وسوس له وزين له ما يريد فحركه إلى فعله .

والنزغ يأتى مصدراً ويأتى بمعنى مايوسوس به الشيطان من سوء كالإفراط فى الغضب .. ونزغ بين الرجلين : أفسد بما يوقع بينهما من العداوة والبغضاء [٢] .

وتفسير الآية أن الله ، تعالى ، أوحى إلى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك ، نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم ؛ وعداوته ظاهرة بنية، ولهذا نهى أن يشير الرجل الى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ فى يده أى فربما أصابه بها [٣] .. ويستوى فى هذا النزغ شيطان الإنس والجن [٤] .. وقال الزمخشرى مثل ذلك : « النزغ : اعتراض، يعنى يلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم - على بعض ليقع بينهم المثارة والمشاقة » [٥]، ولا يحدث لهم ذلك إلا إذا بعدوا عن منهج ربهم وطريقه وجعلوا كتابه وأحكامه وراءهم ظهيراً . فالشيطان عدو للطهارة والأطهار ، والوحدة والقوة والذكر .

وهذا ما تفعله إسرائيل دائماً وأبداً، تعمل على إفساد ذات البين، وتمزيق الصف العربى؛ وكأنها رسولُ الشرّ فى المنطقة العربية!.. وحق لها ذلك طالما أنها تستشعر من نفسها تفوقاً عسكرياً وذرياً ، أو تفوقاً اقتصادياً عن طريق حليفتها الكبرى سيدة العالم!...

---

(١) سورة الإسراء آية ٥٣ .
(٢) انظر المعجم الوسيط ، ٢ / ٩٢١ مادة « نزغ » .
(٣) انظر فى ذلك ما رواه مسلم والترمذى ، والحاكم فى مستدركه ، مسلم ، ١٦ / ١٦٩ (كتاب البر والصلة) ، والترمذى ، ٤ / ٤٠٣ (كتاب الفتن ، باب ٤) حديث (٢٦١٢) ، وأحمد ٢ / ٢٥٦ - ٣١٧ - ٥٠٥ ، ٦ / ٢٢٦ ، والطيالسى ج (٥٢٠ و ٨٨٤) ، والسيوطى فى الجامع الصغير ، ٢ / ١٦٤ ، وهو صحيح .
(٤) ابن كثير، ٣ / ٥٢
(٥) الزمخشرى الكشاف، ٢ / ٦٧٢ .

٤ - إبليس والرسل

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١) .

يعلق ابن كثير على قصة الغرانيق وما قيل فيها على السنة المفسرين قائلاً : « ولكنها فى طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح .. قال ابن أبى حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢) قال : فالقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتجى ، قالوا : ماذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ .. ﴾ (١) .

وقال ابن أبى حاتم بسنده (٣) كذلك عن ابن شهاب قال : أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ، ولكنه لايذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر ، وكان رسول الله ﷺ اشتد عليه ماناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالهم، فكان يتمنى هداهم .

فلما أنزل الله سورة النجم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤) ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى ، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك ،

---

(١) سورة الحج آية ٥٢ .

(٢) سورة النجم الآيات من ١٩ - ٢٠ .

(٣) وأخرجه كذلك البزار والطبرانى وابن مردويه .

(٤) سورة النجم الآيات من ١٩ - ٢١ .

غير أن **الوليد بن المغيرة** كان رجلاً كبيراً فرفع ملء كفه ترابا فسجد عليه ، فعجب الفريقان – كلاهما – من جماعتهم فى السجود لسجود رسول الله ﷺ .. إلخ .. : وهذا – أيضا – مرسل ، وكذلك ما ذكره القصاص وأصحاب المغازى والسير: «وكلها مرسلات ومنقطعات» .

وقد ذكر البخارى فى كتاب التفسير ، باب: «**فاسجدوا لله واعبدوا**» حديثاً جاء خاتمة لما رواه ابن أبى حاتم عن ابن شهاب ، فرفع الحديث إلى ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال: «**سجد النبى ﷺ بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس**» [1] .

وروى عن عبد الله – هو ابن مسعود – رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة ، والنجم ، قال : «**فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافرا وهو أمية بن خلف**» [2] .

علق الكرمانى على من قال بأن سجود المشركين كان لما ألقى الشيطان فى أثناء قراءة رسول الله ﷺ قائلاً: لا صحة له عقلاً ولا نقلاً [3] .

وذكر الحافظ ابن حجر العسقلانى فى الفتح أن ما جاء فى قصة الغرانيق له أصل؛ لأنه روى من ثلاثة طرق كلها مراسيل، ولكن منها ما هو على شرط الصحيح ، ولكنه آثر تأويل القصة ؛ وأحال أخذها على ظاهرها ؛ لأنه يستحيل ، عليه الصلاة والسلام، أن يزيد فى القرآن – عمداً – ما ليس منه ، وكذا سهواً ، إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته ؛ وللعماء تأويلات عديدة منها القوى ومنها ما لا يصح ، من ذلك أن ما جرى كان فى سِنة من النبى ، ﷺ ، أصابته ؛ فلما علم بذلك أحكم الله آياته .

وبعضهم قال بأن الشيطان ألجاه ﷺ لما قال ، وهو مصادم للعصمة والنبوة من كل وجه؛ فلو كان للشيطان قوة على ذلك لما بقى لأحد قوة فى طاعة ؛ وقال آخرون أن ما ذكره النبى كان على سبيل التوبيخ للكفار ، وأخذ بهذا الأخير القاضى عياض فى «الشفاء» ، والباقلانى .

---

(١) ، (٢) انظر الفتح ٨ / ٤٨٠ كتاب التفسير حديث ٤٨٦٢ – ٤٨٦٣ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ٨ / ٤٨١ .

غير أن الحافظ ذكر وجهاً وصفه بالقوة والاستحسان ، وهو أن الشيطان تحين سكتة من سكتات النبى ﷺ فنطق بما نطق ، بعد أن حاكى صوت النبى ونغمته ، وتبعه فى استحسانه ابن العربى وعزا ذلك للطبرى [1] ؛ وهو وجه لا يخلو من نقد وضعف لما فيه من تسلط عدو الله على نبى الله ؛ وقدرته على التمثيل والوحى مما يقدح فى الكتاب، ثم أنى له ذلك والله من يبلغ على لسان نبيه المعصوم!!

وقد برر الزمخشرى هذه الرواية مصاحباً لمن يثبتها فيقول: «إن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت، مكن الله الشيطان ليلقى فى أمانيهم مثل ما ألقى فى أمنيتك، إرادة امتحان من حولهم، والله ، سبحانه ، له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن، ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد فى عقاب المذنبين. [2] والتساؤل الذى يرد على الزمخشرى أنه من قال أن ما يفعله الشيطان تمكين من الله له ، ثم هل يمكن الله لأعدائه من أوليائه ؟ وما فائدة هذا التمكين إذا كان الله سينسخ ما يلقى الشيطان – الذى مكنه من قبل – ويحكم آياته؛ معلناً قدرته وعظمة علمه وخلقه وأمره ؟!! . .

ادعى صاحب «الانتصاف» أن مجموع طرق هذا الحديث يقوى بعضها بعضاً ، وعلق على ابن عياض حيث قال: إن من ذكر من المفسرين وغيرهم – أى لهذه الرواية– لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب إلا رواية البزار.

وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى ما ذكره ، وفيه ما فيه مع وقوع الشك ، قلت: أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلا. فإن الجميع ثقات ، وأما الشك فيه ، فقد يجئ تأثيره ولو فرداً غريباً، لكن غايته أنه يصير مرسلاً، إنما هو حجة عند عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة، أما هو حجة إذا اعتضد عند من يرد المرسل ، إنما يعتضد بكثرة المتابعات ، بتتبع ثقة رجالها.

وأما طعنه فيه اختلاف الألفاظ ، فلا تأثير للروايات الضعيفة الواهية فى الرواية القوية. فيعتمد من القصة على الرواية الصحيحة ، أى يعتمد على الرواية المتابعة، وليس فيها ولا فيما تابعها اضطراب ، والاضطراب فى غيرها ، فيكفى لأنه ضعيف

---

(١) الفتح ؛ ٨ / ٢٩٣ - ٢٩٤

(٢) الزمخشرى: الكشاف ؛ ٣/ ١٦٥

برواية الكلبى، ويكفى ما عداها ؛ وأما طعنه فيه من جهة المعنى، فله أسوة كثيرة من الأحاديث الصحاح التى لا تؤخذ بظاهرها، بل يرد بالتأويل المعتمد إلى ما يليق بقواعد الدين »[1] .

ومع أن هذا المصنف يأخذ بالظاهر دائما وينقد القائلين بالمجاز والتاويل ، إلا أنه هنا بعد أن أثبت الحديث؛ قبل التاويل.

لقد آثرت ذكر ما سبق لبيان أن سيلاً من الروايات تزاحم على الشغب وتشويه هذا الدين ؛ وخاض العلماء فى معميعات من الخرافة وصار للهزل سوق ؛ وخاض الجميع فى التفسير والتأويل والتصديق والتكذيب لمثل هذا الكلام .. ولا تفسير لذلك عندى إلا تضييق الحكام على العلماء ، فحرموهم من ممارسة حرية التفكير فى السياسة أو الإصلاح الاجتماعى أو الاقتصادى أو حتى الدينى فى كثير من الأحيان ، فلم يبق لهم إلا هذه الشقشقات الغريبة على الدين والإغراق فى اللفظية ، التى أدت بدورها إلى الوقوف عند القشور ، أو تعمد تحقيق الخرافة ثم تاويلها !!..

وأحياناً يذكر المفسرون تهافت مثل هذه الروايات ، فاسمع البغوى يتسائل قائلاً فى تفسيره : « كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله ، تعالى ، لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ؟!..[2] » ونحن معه نتسائل ولا نجد إجابة سوى أن إغراقاً وسيلاً من المفتريات قد داخلت الحديث، ومع أن المحدثين تمكنوا من نقدها ، إلا أن هناك ما يحتاج للنقد بشدة فى ضوء منهج النقد الداخلى للنص .. أو نقد المتن الذى عرفه علماء الحديث وأصّلوا له، ولكنهم لم يستخدموه بكثرة لتنقية حديث رسول الله ، ﷺ ، من كثير من النصوص التى لا تصمد للنقد، إن عرضت على الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، أو على أصول التوحيد والدين ؛ أو ما اشتهر عن الصحابة ، أو ما صح من قواعد العقل ، حيث أن العقل ، الصريح لا يتناقض – إن سلمت أدواته – مع النقل الصحيح ، والله أعلم .

* * *

---

(١) المصدر السابق، نفسه بالهامش.

(٢) ابن كثير ؛ ٣ / ٢٥٤ ، والزمخشرى؛ ٣٣/٣/١٦٤.

٥ - إبليس وعيسى

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [١] .

أى عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان ، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام ، فاستجاب الله لها ذلك [٢] . وأعيذها بك : أمنعها وأجيرها بحفظك ، من العوذ، وهو أن تلتجئ إلى غيرك وتتعلق به . يقال : عاذ فلان بفلان إذا استجار به ؛ ومنه العُوذَة ، وهى التميمة والرقية [٣] .

ذكر البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من بنى مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان ، غير مريم وابنها . ثم يقول أبو هريرة ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [١] .

وقال الحافظ ابن حجر : قوله : « غير مريم وابنها » . تقدم فى « باب إبليس » بذكر عيسى خاصة ، فيحتمل أن يكون هذا بالنسبة إلي المس ، وذاك بالنسبة إلى الطعن فى الجنب ، ويحتمل أن يكون ذاك قبل الإعلام بما زاد ، **وفيه بعد لأنه** حديث واحد ، وقد رواه خلاس عن أبى هريرة بلفظ « كل بنى آدم قد طعن الشيطان فيه حين ولد غير عيسى وأمه ، جعل الله دون الطعنة حجاباً فأصاب الحجاب ولم يصبهما » [٤] !! . .

والذى يظهر أن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر ؛ والزيادة من الحافظ مقبولة، وأما قول بعضهم يحتمل أن يكون العطف التفسيرى ، والمقصود الابن ، كقولك : اعجبنى زيد وكرمه فهو تعسف شديد [٥] .

وقد طعن الزمخشرى فى معنى هذا الحديث وتوقف فى صحته فقال : « إن صح هذا الحديث فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه إلا مريم وابنها ، فإنهما كانا معصومين ، وكذلك من كان فى صفتهما ، لقوله تعالى ﴿ **لأغوينهم أجمعين إلا**

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٦ .

(٢) ابن كثير ؛ ١ / ٣٨٥ .

(٣) انظر صفوة البيان لمعانى القرآن ، ص٧٩ .

(٤) البخارى ؛ ٦ / ٥٤١ حديث (٣٤٣١) ، وكذلك ، ٨ / ٦٠ حديث ٤٥٤٨ ؛ ورواه مسلم واحمد .

(٥) الفتح ؛ ٦ / ٥٤٢ .

عبادك منهم المخلصين ﴾ قال: واستهلال الصبى صارخاً من مسّ الشيطان تخييل لطمعه فيه ، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول : هذا ممن أغويه » [1] .

وأما صفة النخس كما يتوهمه أهل الحشو فلا ؛ ولو ملك إبليس على الناس نخسهم ؛ لامتلأت الدنيا صراخاً [2] !

ورغم تعرضنا لهذا الحديث فيما بعد . . إلا أن هناك دائماً من يرى قبولاً ورضاً عندما تصح لديه رواية تدعو للتجسيم أو التشبيه أو تترك المسلمين فى بلبلة وحيرة، ثم يأتى فيتفنن فى الجمع بين المتقابلات أو يروج للآراء الفاسدة المتناقضة ! . . فيجوز لديه الحق والباطل والتوحيد والشرك والإيمان والكفر ، ويؤخر العقل وأسس الشرع لما بعد ذلك .

ومن ذلك قول صاحب « الانتصاف » عن الحديث : « أما الحديث فمذكور فى الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذاً عن تعطيل كلامه، عليه السلام، بتحميله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع فى فلسفة منتزعة فى إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض . . وما أرى الشيطان إلا طعن فى خواصر القدرية حتى يتخيل، كما قال فى هذا الحديث، ثم نظره بتخييل ابن الرومى فى شعره؛ جراءة وسوء أدب ، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً ، لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن - على بعد - أن يكون تمثيلاً .

وما هو واقع مشاهد فلا وجه لحمله على التخييل ، إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الوبيل » [3] .

وهذا الرجل أشعرى يدين بالجبر وينبذ الاعتزال الذى يتبنى فكرة التوحيد والعدل وحرية الإنسان فى الاختيار والفعل؛ ومع أن كلامه فى مجمله ضرب من الهذيان والسباب؛ إلا أن لنا عليه تعليق بعد ذلك . ولو علم أن الدين فوق المعتزلة والاشعرية وصراع المذاهب ، وأنه مسئول عما يقول يوم القيامة ، لما قال ما قال ، ومن الذى طعن الشيطان فى خاصرته ، الذى يريد لدينه أن يبرأ من الخرافة . . ولتوحيده أن يسلم من الشرك وأفعال الشيطان أم من يجعل الشيطان شريكاً لربه؟!! . .

---

(١) انظر الزمخشرى؛ الكشاف؛ ١ / ٣٥٧ .

(٢) انظر فتح البارى ؛ ٨ / ٦٠ ، والزمخشرى ؛ ١ / ٣٥٧ .

(٣) الزمخشرى: الكشاف ؛ ١ / ٣٥٦ .

الفصل الرابع

في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم

ويشتمل على نقطتين:

١- الجن وثوابهم وعقابهم .

٢- الجن قبل وبعد البعثة .

١ - الجن وثوابهم وعقابهم

عقد البخارى فى صحيحه باباً عن الجن، ومن قبل عقد باباً عن إبليس وجنوده؛ وذلك لأهمية الموضوع فى الإسلام عقيدة ومعرفة .. وبنى الحافظ الكبير ابن حجر العسقلانى على ذلك مقالته عن الجن ، ورأى علماء المسلمين وغيرهم فى وجودهم وطبيعتهم ؛ ومصادر معرفتهم ، وتكليفهم ؛ وحياتهم ، وجزائهم ..

قال الإمام البخارى : باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم . لقوله : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)** ﴾ [١] .. وقال مجاهد ﴿ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا** ﴾ [٢] : قال كفار قريش : الملائكة بنات الله وأمهاتهم بنات سروات الجن ، قال الله ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)** ﴾ [٣] : سيحضرون للحساب . ﴿ **جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥)** ﴾ [٤] عند الحساب .

– وروى بسنده عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة الأنصارى عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، قال له : **«إنى أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت فى غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فأرفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شئ إلا شهد له يوم القيامة . قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ»** [٥] .

وتتضمن ترجمة البخارى شيئين هو إثبات وجود الجن وكونهم مكلفين .

– **أمـــا الأولى** : وهو إثبات وجودهم : فقد اختلف فيه أهل الملة مع الزنادقة والفلاسفة والقدرية الذين أنكروا وجودهم رأساً ، وهذا هو ما ذكره الجوينى إمام

---

(١) سورة الأنعام الآيات ١٣٠ – ١٣٢ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٥٨ .

(٣) سورة الصافات : نفسها .

(٤) سورة يس الآية ٧٥ .

(٥) البخارى ، ٦/٣٩٥ حديث ٣٢٩٦ .

الحرمين فى كتابه «**الشامل**» .. وهو يقصد الفلاسفة غير الإسلاميين أصحاب فلسفة الإشراق وعلى رأسهم **الكندى والفارابى وابن سيناء** ، لأن هؤلاء يؤمنون بوجودهم ويعلمون أن إنكاروجود الجن جحد لكتاب الله وما ينبغى أن يعتقده المسلم ضرورة .. ولكن الذى يحير هو من يقصد الإمام الجوينى ت ٤٧٨ هـ بالقدرية؟!.. هل هم المعتزلة أم الجهيمية أم منكروا القدر الذين يقولون أن الأمر أنف ، وإنما هى أدوار موزعة حسب ما قضى الله وقدر، والنتائج معروفة سلفاً وأهل الجنة والنار ماضون لما قدره الله عليهم .. أم يقصد بالقدرية أهل العدل والتوحيد من الزيدية والمعتزلة، وكل من قال من السلف بحرية الإنسان والاستطاعة قبل التكليف ، والتكليف قدر الوسع والطاعة .. من يقصد الجوينى من كل هؤلاء ؟!..

ويعقب الجوينى على مقالته : ولا يتعجب ممن أنكر ذلك من غير المشرعين ، إنما العجب من المشرعين مع نصوص القرآن والأخبار المتواترة قال : وليس فى قضية العقل ما يقدح فى إثباتهم . قال : وأكثر ما أستروح إليه من نفاهم حضورهم عند الإنس بحيث لا يرونهم ولو شاءوا لأبدوا أنفسهم ، قال : وإنما يستبعد ذلك من لم يحط علماً بعجائب المقدورات [1] .

وظاهر حديث الجوينى أن هناك من الإسلاميين من ينكر وجود الجن مع أن النصوص متواترة فى شأنهم .. ومع جواز وجودهم وإمكانه عقلاً .. وعلة المنكرين هو أن الإنسان لايراهم مع وجودهم !.. وهو جائز لأنهم من عنصر النار ، والنار عنصر لطيف .. وكما لا نرى الملائكة لا نرى الجن .. ولا غرابة فى ذلك .

وقد أشار القاضى **أبو بكر الباقلانى** صاحب كتاب «التمهيد» ت ٤٠٣هـ إلى أن من هؤلاء من يثبت وجودهم وينفيه .. فهم مترددون .. كما أن منهم من يثبتهم وينفى تسلطهم على الإنس [2] .

ويبدو أن القاضى من القائلين بتسلط الجن على الإنس ، ولا أدرى ما النص الذى صرح فيه الله ، عز وجل ، فى محكم التنزيل بأنه سلط على بنى آدم الجن ؛ فتركوا ما خلقوا له من طاعة وعبادة ، واشتغلوا بالتسلط على بنى آدم إغواء ووسوسة !!

---

(١) ، (٢) الفتح ٦ / ٣٩٦

أما عن طريق إثباتهم هل هو السمع أم العقل أم هما جميعاً .. فقد أشار إلى ذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي الشهير ت : ٤١٥هـ فقال : «الدليل على إثباتهم السمع دون العقل ، إذ لا طريق إلى إثبات أجسام غائبة ؛ لأن الشئ لايدل على غيره من غير أن يكون بينهما تعلق ، ولو كان إثباتهم بإضطرار لما وقع الاختلاف فيه ، إلا أنا قد علمنا بالاضطرار أن النبى ﷺ كان يتدين بإثباتهم ، وذلك أشهر من أن يتشاغل بإيراده» [١] .

فمن أنكر الجن أو تأول فيهم تاويلاً يخرجهم به عن هذا الظاهر ، فهو كافر مشرك حلال الدم والمال [٢] .

يقول ابن حزم : «لم ندرك بالحواس ، ولا علمنا وجوب كونهم ولا وجوب امتناع كونهم فى العالم أيضا بضرورة العقل ، لكن علمنا بضرورة للعقل إمكان كونهم ؛ لأن قدرة الله تعالى لا نهاية لها ، وهو ، عز وجل ، يخلق ما يشاء ؛ ولا فرق بين أن يخلق خلقاً عنصرهم التراب والماء ، فيسكنهم الأرض والهواء والماء ، وبين أن يخلق خلقاً عنصرهم النار والهواء ، فيسكنهم الهواء والنار والأرض ، بل كل ذلك سواء ممكن فى قدرته» [٣] .

ويشير ابن حزم إلى أن معرفة وجود الجن مما يجوز عقلاً لإمكانه ؛ وهو كلام نظرى إذ كيف يستدل العقل على هذا الإمكان بدون سمع؟!.. وهو يخلط بين الممكن فى حق الله والممكن فى عقولنا.. أما بالنسبة له فهو لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو خالق الأكوان بعجائبها .. وأما بالنسبة لنا فوجود الجن أو عدم وجودهم فهو قضية نص وسمعيات ، وقد جاء الوحى بإثبات وجودهم.. وكان النبى يدين بذلك .

والصواب ما ذكره بعد ذلك : «لكن لما أخبرت الرسل الذين شهد الله ، عز وجل، بصدقهم ، بما أبدى على أيديهم من المعجزات الهيلة للطبائع ، بنص الله ، عز وجل، على وجود الجن فى العالم ، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم» [٤] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن حزم : الفصل ؛ ٥ / ١١١ .

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ؛ ٥ / ١١١ .

(٤) المصدر السابق .

أما فى صفة الجن وطبيعتهم فيقول القاضى أبو بكر الباقلانى قال بعض المعتزلة : الجن أجساد رقيقة بسيطة ، ووافق الأشاعرة المعتزلة فى مقالتهم : وهذا عندنا غير ممتنع إن ثبت به سمع .

ونقد أبو **يعلى بن الفراء** المعتزلة فقال : الجن أجسام مؤلفة وأشخاص ممثلة ، يجوز أن تكون رقيقة وأن تكون كثيفة خلافاً للمعتزلة فى دعواهم أنها رقيقة ؛ وإن امتناع رؤيتنا من جهة رقتها .

ولكن الحافظ ابن حجر رد عليه بأن الرقة ليست بمانعة عن الرؤية ، ويجوز أن يخفى عن رؤيتنا بعض الأجسام الكثيفة إذا لم يخلق الله فينا إدراكها .. وهذا الكلام غيرمفهوم ، وملئ بالغموض .. إن الحياة خلقها الله ، عز وجل ، وخلق قوانينها .. فهل من قوانين الإدراك والإحساس عدم رؤية المخلوقات الكثيفة ورؤية المخلوقات اللطيفة كالهواء مثلاً ؟!

وما رواه **البيهقى** صاحب « الأسماء والصفات » ت ٤٤٩ هـ عن الإمام **الشافعى** ت ٢٠٥ هـ فى كتابه « مناقب الشافعى » من أفضل ما قيل فى رؤية الجن حيث يقول : « من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته إلا أن يكون نبياً .. وهذا من أجود ما رأيت من آراء فى المسالة »[1] .

ولكن الحافظ يعلق على مذهب الشافعى فى المسالة فيقول : « وهذا محمول على من يدعى رؤيتهم على صورهم التى خلقوا عليها ، وأما من ادعى أنه يرى شيئاً منهم بعد أن **يتطور على صورشتى** من الحيوان فلا يقدح فيه ، وقد تواردت الأخبار بتطورهم فى الصور » .. وهذا الكلام مردود عليه بدوره ؛ لأن الجن فى صور الحيوان لا يمكن معرفة هويتهم وأنهم جان .. إلا بالتخمين والتنجيم !

فما يصوره لنا الحافظ هو الجنون المعقول أو معقولية الجنون ، وبكل بساطة علينا تقبله بلا نص أو قليل من عقل .. فما هى تلك الأخبار التى تواردت بذكر تطورهم فى الصور ؟!!

---

(١) وقد نقله ابن كثير كذلك فى مقدمة تفسيره عند تفسيره للفاتحة بالجزء الأول .

وقد كان أقرب لأصول الدين والمعقول ما ذكره علماء الكلام ، الذين قال بعضهم بأنه يستحيل انتقالهم من صورتهم التى خلقهم الله عليها ، فقالوا بأن الأمر مجرد تخييل فقط . يقول ابن حزم : « وإذا أخبرنا الله ، عز وجل ، أننا لانراهم – فى قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [1] – **فمن ادعى أنه يراهم أو رآهم فهو** كاذب ؛ إلاأن يكون من الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ؛ فذلك معجزة لهم ، كما نص رسول الله ﷺ أنه تفلت عليه شيطان ليقطع عليه صلاته ، قال : « فأخذته فذكرت دعوة أخى سليمان ، ولولا ذلك لأصبح موثقاً يراه أهل المدينة ، أوكما قال ، عليه السلام ؛ وكذلك فى رواية عن **أبى هريرة** للذى رأى إنها هى معجزة لرسول الله ﷺ وسلم ، **ولاسبيل إلى وجود خبر يصح برؤيتهم ، حتى بعد موت** النبى ﷺ وسلم ، وإنما هى منقطعات ، أو عمن لا خير فيه » [2] . .

وهذا رأى مقبول أحسن فيه ابن حزم ، وهو محدث وفقيه ومتكلم جاء فى وقت كان ملوك وأمراء الطوائف فى الأندلس يتصارعون ويتنابذون فيما بينهم على أشبار من الأرض ، وتركوا الجهاد وراءهم ظهرياً وقربوا أهل الخرافات والبدع ، وأبعدوا أصحاب الدين والعقل والورع ، فكان ما كان من سقوط دولة الإسلام ، لما سقطت دولة القرآن والإيمان . . وهذا حالنا الآن إن لم نتدراك الأمر ولم نقم كتاب الله بيننا ، وطرحنا الخلاف والتعصب والطائفية والجهل ، وتآلفنا على تصور واحد للوحدة الإسلامية يجمعنا .

وقال فريق آخر من المتكلمين ، حاول استرضاء القائلين بانتقالهم فى صور الإنس والحيوانات ؛ بأنهم ينتقلون ، لكن لا باقتدار على ذلك بل بضرب من الفعل إذا فعله انتقل ، كالسحر وأيدوا رأيهم بالأثر الصحيح الذى أخرجه **ابن أبى شيبة** . . أن الغيلانى ذكروا عند عمر فقال : « **إن أحداً لا يستطيع** أن يتحول عن صورته التى خلقه الله عليها، ولكن لهم سحرة كسحرتكم ، فإذا رأيتم ذلك فاذنوا » . [3]

وهذا الكلام فيه إثبات للنص والمعقول ، ثم نقض له عن طريق كلام لا دليل عليه

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٧ .

(٢) ابن حزم : الفصل ، ٥ / ١١١ ، ١١٢ .

(٣) المصدر السابق : الفتح ، ٦ / ٣٩٦ .

من نص أو معقول .. ولعل هناك بواعث تاريخية واجتماعية وشعبية هى التى شاركت فى تدعيم تصور ما للجن فى عالم الوجود ، ويمكن بحث ذلك فى الأدب العربى الخيالى ، فى ألف ليلة وليلة وحكايات وروايات العرب عن الجن وصنيعهم ، وهو ليس موضوع بحثنا الآن .

وقد ذكر الأشعرى فى كتابه « المقالات » تساؤلاً عن حقيقة رؤية الشياطين، وإجابة أهل الإسلام عليه فقال :

واختلفوا فى الشياطين: هل يُرون فى الدنيا أم لا؟

(١) فقال قوم: لا يجوز؛ إلا أن يريهم الله، سبحانه ، نبياً ، أو يجعل رؤيتهم علماً ودليلاً على نبوة نبى، وقد يقدر، سبحانه، أن يُرى عباده الملائكة والشياطين من غير أن يقلب خلقهم، وقد يرى الإنسان الملائكة فى حال المعاينة.

(٢) وقال قائلون: لا يجوز أن يُرَوا بحال ؛ إلا أن يقلب الله خلقهم ويخرجهم عما هم عليه.

(٣) وقال قائلون: جائز أن يُروا فى الدنيا من غير أن يقلب الله خلقهم ، ومن غير أن يجعل ذلك دليلاً على نبوة نبى.

(٤) وذهب إلى إنكار الجن والشياطين ذاهبون، وزعموا أنه ليس فى الدنيا شيطان ولا جن؛ غير الإنس الذين نراهم [١] .

يقول ابن حزم : « وهم أجسام رقاق صافية هوائية لا ألوان لهم وعنصرهم النار ، كما أن عنصرنا التراب .. والنار والهواء عنصران لا لون لهما ، وإنما حدث اللون فى النار المشتعلة عندنا لامتزاجها برطوبات ما تشتعل فيه من الحطب ، والكتان والأدهان وغير ذلك ، ولو كانت لهم ألوان لرأيناهم بحاسة البصر ؛ ولو لم يكونوا أجساماً صافية رقاقاً هوائية ؛ لأدركنا بحاسة اللمس » [٢] .

واختلف العلماء فى أصل الجن فقال بعضهم إنهم ولد إبليس ؛ فمن كان كافراً

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ، ٢ / ١١٤ .

(١) ابن حزم : الفصل ٥ ، ١١٢ .

سمى شيطاناً ، وقال آخرون : إن الشياطين فحسب هم أولاد إبليس ، أما من عداهم فليسوا من ولده . . **والصواب أنهم نوع واحد خلقوا مرة واحدة** ويموتون مرة واحدة ، وإبليس منهم بنص القرآن ولكنه كفر وعصى وتكبر فسمى شيطاناً ، وكل من ندَّ عن الإيمان والطاعة منهم سمى كذلك .

كما اختلف المتكلمون حول كون الملائكة من الجن أم ليسوا بجن . .

(١) فقال قائلون : هم جنٌّ ؛ لاستتارهم عن الأبصار ، ومن هذا قيل للجنين إنه جنين .

(٢) وقال قائلون : ليسوا بجن [١] .

أما هل هم مكلفون أم لا ؟ . . : « اتفق أهل القبلة من السلف والمعتزلة بأنهم مكلفون بنص الكتاب ، قال عبد الجبار : لانعلم خلافاً بين أهل النظر فى ذلك . إلا ما حكى زرقان عن بعض الحشوية أنهم مضطرون إلى أفعالهم وليسوا بمكلفين . . وهذا الرأى من الحشوية يتناسب مع طبيعة تفكيرهم فى الدين وميولهم إلى الشذوذ عن أهل القبلة والابتداع فى الدين أصولاً وفروعاً . . حتى إنه لا يحكى الشاذ من التشبيه والتجسيم أو الجبر على الله إلا من هؤلاء القوم . يقول ابن حزم : « إنهم أمة عاقلة مميزة متعبدة ، موعودة متوعدة متناسلة يموتون » [٢] .

والدليل على أنهم مكلفون قوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)** ﴾ [٣] ، فهم مخلوقون للطاعة والامتثال لشرع الله ودينه . .

قال الأشعرى واختلف الناس فى الجن : هل هم مكلفون أم مضطرون ؟

(١) فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم : هم مأمورون منهيون ، قد أمروا ونهوا ؛ لأن الله ، عز وجل ، يقول : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [٤] وإنهم مختارون .

---

(١) انظر الأشعرى : المقالات ، ٢ / ١١٥ .

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل ، ٥ / ١١١ .

(٣) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٤) سورة الرحمن آية ٣٣ .

(٢) وزعم زاعمون أنهم مضطرون مأمورون ؛ وكذلك اختلافهم فى الملائكة وفى أنهم مأمورون أومختارون على سبيل اختلافهم فى الجن [١] .

وفى قصة الجن قال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [٢] . فهم مكلفون وجوباً ، ومجازون على عملهم حقاً وصدقاً ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [٣] .

فهل من يدعى بعد ذلك أنهم مخلوقون للوسوسة والإغواء ومضطَّرون فى أفعالهم وأنهم جلبوا على الشر عقلاء مصيبون ؟!.. قال **القاضى عبد الجبار** : « الدليل للجماعة ما فى القرآن من ذم الشياطين والتحرز من شرهم وما أعد لهم من العذاب ، وهذه لاتكون إلا لمن خالف الأمر وارتكب النهى ، مع تمكنه من أن لا يفعل والآيات والأخبار الدالة على ذلك كثيرة جداً » .. وهذا صحيح تماماً .

فهل يكون من الجن أنبياء بعثوا فيهم ؛ .. اختلف العلماء فمنهم من أجاز ومنهم من منع ذلك ؛ ولكن جمهور العلماء على أن رسل الإنس رسل للجن فى نفس الوقت، أما ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ [٤] فمحمول على أن رسل الجن يسمعون الوحى من رسل الجن ويبلغون به قومهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [٥] .

ولكن ابن حزم [٦] له تفصيل فى المسألة هو أن لهم رسل منهم ، حتى جاء

---

(١) الأشعرى : المقالات ، ٢ / ١١٣ .

(٢) سورة الأحقاف الآيات ٢٩ - ٣٢ .

(٣) سورة الجن : ١ ، ٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٣٠ .

(٥) سورة الأحقاف : الآية ٣٠ .

(٦) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٤ / ٤٥ .

النبى، ﷺ ، فصار نبياً للإنس والجن جميعاً .. وهذا من خصائص البعثة المحمدية أنها لجميع الخلق، وكان كل نبى يأتى لقومه خاصة .. قال الإمام الجوينى [1] فى «الإرشاد» : «وقد علمنا ضرورة أنه ﷺ ادعى كونه مبعوثاً إلى الثقلين» .

أما عن طبيعة ماكلفوا به ، فهم مكلفون بالتوحيد وأركان الإسلام ، وأما ماعداه من الفروع فاختلف فيه ، لما ثبت من النهى عن الروث والعظم وأنهما زاد الجن ، وسيأتى فى السيرة النبوية حديث أبى هريرة وفى آخره : «فقلت ما بال الروث والعظم؟ قال هما طعام الجن» الحديث ، فدل على جواز تناولهم للروث ، وذلك حرام على الإنس [2] .

هذا نص كلام الحافظ ، فهل ترى فيه شيئاً معقولاً يرضى الله ورسوله ؟! هل يتصور مسلم عاقل أن الله جعل فى نجاسات الإنسان طعاماً لمخلوقات أخرى ، عاقلة مكلفة من طبيعة غير طبيعة الإنسان ولا تتفق معه فى خلق أو أصل أوتكوين أو عناصر طينية .. أن تكون النجاسة طعامها ، والله ، عز وجل ، تعبدها بالطهارة وبماتعبد به الإنسان .. **من الذى خصص التكليف وقيده فى الأصول دون الفروع** .. هل هذا الحديث وأمثاله يصلح أن يقيد تكليفاً ؟!

ما أريد التأكيد عليه أن فى تراثنا الفكرى والدينى ، أشياء عزيزة نعتز بها وفكراً – يبدو أنه فكر – لا يجوز أن يطرح من أصله لغثاثته ، أما أن يوجد من يجعل منه ديناً فهو ماجنى على نفسه وأمته ، وربنا حسبنا وحسبه .

غاية ما فى الموضوع أن الكلام عن أكل أو شرب الجن مجرد اجتهاد لا دليل عليه، وماورد فى السنة عن أنهم يأكلون مع الإنسان ، إن لم يسم – كقوله ﷺ : «مازال الشيطان يأكل معه فلما سمى استقاء ما فى بطنه» [3] هذا عن الذى أكل أمامه ولم يسم إلا فى آخر الطعام .. وهو مجرد تصوير لاينبغى أن يأخذ على حقيقته، لأنه يعنى أن الشيطان متلبس بالإنسان وهو ما لا يحسه أحد ولو كان يأكل

---

(١) الجوينى : الإرشاد ، ص ٢٩٦ .

(٢) الفتح ، ٦ / ٣٩٧

(٣) رواه أبو داود ؛ ٣ / ٣٤٧ حديث رقم (٣٧٦٨) فى (كتاب الأطعمة ، باب التسمية على الطعام) ؛ وأبو داود ؛ ٣ / ٣٤٧ حديث (٣٧٦٨).

معه لشعر بذلك .. واتفاق الطبيعتين بين ما هو طين ونار فى الأكل من طعام الأرض ونقض لحديث الروث والعظام وروى ابن ماجه عن جابر عن رسول الله ، ﷺ ، قال : **«لا تأكلوا بالشمال ، فإن الشيطان يأكل بالشمال»** (١) .

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله ، سمع النبى ، ﷺ ، يقول : **«إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر الله عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء»** (٢) ، وفى حديث الأعرابى والجارية .. قال: **«إن الشيطان ليستحل الطعام الذى لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه جاء بهذا الأعرابى يستحل به ، فأخذت بيده ، وجاء بهذه الجارية يستحل بها فأخذت بيدها ، فوالذى نفسى بيده إن يده لفى يدى مع أيديهما»** (٣) .

وقد نهى النبى ، ﷺ ، عن الأكل والشرب بالشمال تأدباً ومخالفة للشيطان : **«إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»** (٤) .

يقول الطيبى : « أى يحمل أولياءه من الإنس على ذلك ، ليضاد به عباد الله الصالحين.. فإن الشيطان يحمل أولياءه على ذلك » .. وقال القرطبى : « ظاهره أن من فعل ذلك تشبه بالشيطان ، وأبعد وتعسف من أعاد الضمير فى شماله على الآكل » .. وصرح ابن العربى بإثم من أكل بشماله ، واحتج بأن كل فعل ينسب إلى الشيطان حرام..

ولكن ابن حجر يعلق على كلام الطيبى قائلاً : **«وفيه عدول عن الظاهر ، والأولى حمل الخبر على ظاهره ، وأن الشيطان يأكل حقيقة ؛ لأن العقل لايحيل ذلك ، وقد ثبت الخبر به فلا يحتاج إلى تأويله»** (٥) .

---

(١) ابن ماجه ؛ ٢ / ١٠٨٨ (كتاب الأطعمة ، باب الاكل باليمين) حديث (٣٢٦٨) .

(٢) أبو داود ؛ ٣ / ٣٤٦ (كتاب الأطعمة ، باب التسمية على الطعام) حديث (٣٧٦٥)، ومسلم ؛ ١٣ / ١٩٠ .

(٣) أبو داود ؛ ٣ / ٣٤٦ ، حديث (٣٧٦٦) .

(٤) مسلم ؛ ١٣ / ١٩٠ (كتاب الأشربة ، آداب الطعام..) .، ومسلم فى مسنده

(٥) انظر ابن حجر : الفتح ؛ ٩ / ٤٣٣ .

والعقل لا يحيل أن تطعم الجن وتشرب ، ولكن من قال أنهم يطعمون طعام البشر . . ولو كان الجن يأكلون طعامنا لانتهى من الأرض كل مزروع يأكله البشر كما أنه يناقض حديث أنهم يأكلون العظم والروث . . لقد أخطأ الحافظ فى حمله على الظاهر .

روى ابن عبد البر عن وهب بن منبه أن الجن أصناف فخالصهم ريح لايأكلون ولايشربون ولا يتوالدون ، وجنس منهم يقع منهم ذلك ، ومنهم السعالى والغول والقطرب . .

روى ابن حبان والحاكم : «**الجن على ثلاثة أصناف : صنف لهم أجنحة يطيرون فى الهواء ، وصنف حيات وعقارب وصنف يحلون ويظعنون**»[1] . .

كما ذكر العلماء أنهم يتناكحون ﴿ **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ** ﴿٧٤﴾ ﴾[2] ، ويحاسبون فمنهم من يدخل الجنة وينعم فيها ، ومنهم من يدخل النار ويعذب فيها .

كما اختلف المتكلمون حول هل يجوز أن ينقلب الشياطين فى صور الإنس أو فى غير ذلك من الصور إذا أرادوا ذلك أم لا؟

(١) فقال قائلون : جائز أن ينقلبوا إلى أى صورة شاءوا من الصور ؛ فيكون الشيطان مرة فى صورة إنسان ومرة فى صورة حية . . وهذا ما سنناقشه فيما بعد .

(٢) وقال قائلون من المعتزلة وغيرهم : ذلك غير جائز، ولم يجعل الله سبحانه إليهم أن ينقلبوا متى أرادوا . . وهذا مانراه صواباً وحقاً[3] .

* * *

---

(١) رواه الطبرى والحاكم والبيهقى فى الأسماء عن ثعلبة الخشنى ، وقال السيوطى صحيح ، الجامع الصغير ؛ ١/١٤٥ ، والبيهقى : الأسماء والصفات ؛ ص ٤٩٢ . . قال المناوى : . . «صحيح الإسناد» : فيض القدير ٣/٣٦٥ ، وأبو نعيم : حلية الأولية ، ٥/١٣٧ .

(٢) سورة الرحمن آية ٧٤

(٣) انظر ؛ مقالات الإسلاميين؛ ٢/١١٤ .

٢- الجن قبل الإسلام وبعده

ثبت بالقرآن الكريم تسمع الشياطين على الملأ الأعلى ومحاولتهم استراق السمع وخطف شئ منه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) ﴾ (١) .

وقال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾ (٢) .

فالقرآن يذكر أن الجن والشياطين يعيشون فى الهواء وطبقات الجو العليا بعيداً عن الأرض ، ولكنهم ينزلون أحياناً إليها ، ومنهم من يحاول استراق السمع على عالم الملائكة أو الاتصال به ، ومحاولة استراق شئ من الوحى ، فما يكون نصيبه إلا الرمى بالقذائف الحارقة والشهب النارية من كل جانب ؛ فتقتله وفى قتله عبره لغيره من مردة الجن الذين يفكرون فى المحاولة مرة أخرى .

أما من يفلح فى خطف شئ من الوحى أو غيب السماوات ، وهو أمر الله فى الأكوان، فجزاؤه الرمى بشهاب مسلط عليه لا يفلته . إذاً لا شئ يفلح الشيطان فى قنصه أو خطفه، وكل ما يلقونه إلى الكهان هو مجرد وهم وتخييل لا أكثر، يظنه الكهان من غيب السماوات وهو ليس كذلك ، وما جاء فى سورة الجن على لسانهم يوضح الصورة أكثر ، ويبين طبيعة هذه العلاقة التى كانت موجودة بين بعض مردة الجن وكهان العرب واليهود قبل البعثة المحمدية وفى زمن الفترة ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الحجر الآيات ١٦ – ١٨ .

(٢) سورة الصافات الآيات ٦ – ١٠ .

(٣) سورة الجن الآيات ٤ – ٩

هذا النص يصور حالة الجن فى عالمهم بعد عيسى، عليه السلام، وتفشى عقيدة التثليث فى النصارى ؛ فيبين أن بعض شياطين الجن، أو إبليس على وجه الخصوص، ساهم فى تأصيل عقيدة التثليث بين الجن، كما وجد من شياطين الإنس من ينشرها بين الناس، لتشويه نقاء التوحيد ؛ فآمن بعض الجن بما لبسه عليهم هذا السفيه الناشز عن التوحيد ، فلما اهتدوا إلى التوحيد بإيمانهم بمحمد، ﷺ ، ودعوته والوحى المحفوظ المنزل من ربه، جاء اعتذارهم عن زمن طويل كانوا فيه مصدقين للمقالة النكراء ، وما روجه السفهاء منهم بينهم.

فالله ، عز وجل ، منزه عن الصاحبة والولد ، فما حاجته ، تعالى ، للصاحبة أو للولد وهو الغنى ذو الجلال والإكرام المتصف بصفات الكمال؟!.. وكذلك يقول القرآن على لسان الجن أن هذه المقالة جاءت تبعاً لما حسبناه لا يقع من الإنس والجن ، وهو الكذب على الله والشرك به وإلحاق النقص عليه ، تعالى عن تصورهم فيه علواً كبيراً فصدقناهم .

وهذا يجعلنا نقف وقفة مع المنهج الإسلامى فى تصور التوحيد ، فهو قائم على عدم اتباع الأجداد وتقليدهم ، وكذلك التحقق والتثبت فى تلقى الاخبار، فالتصديق بلا تحقيق غرة وغفلة ، وتشجيع للسفهاء والكذبة وناقصى العقول فى ترويج عقائدهم الخرافية والوهمية بين الناس، والتأصيل لها وإحاطتها بهالة من الطقوس والطوطميات التى ما أنزل الله بها من سلطان .

أما عن علاقة الكهان بالجان فيقررونها فى هذه السورة، وكانت قائمة فى الجاهلية.. طمعاً من بعض الكهان فى استخدام الجان، أو ظناً من بعض العرب فى البوادى أن للجان مراكز ومواطن تجمع يتجمعون فيها ، لهم فيها قوة وسطوة فكانوا يعوذ ون بهم ، مما جرأ الجان على الإنسان المتعوذ به ، فمارسوا المحرمات وبثوا الشرك بين الناس بتأثيرهم .

وكان القرآن ونور الدعوة المحمدية والتوحيد ، هو خلاصهم من أسر الجن فاستعاذوا بالله الواحد الأحد القهار مالك الملك ، من شر الشيطان الرجيم وكل مارد لعين من الجن.

أما التسمع على غيب السموات فمع نزول القرآن منع الجن من أماكن التلصص والاستراق وتعقبتهم الملائكة بالتعذيب والإحراق بالشهب والصواعق وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [١] .

وقد اختلف المتكلمون قديماً حول هل يخبر الجن الناس بشئ أو يخدمونهم؟.. على مقالتين :

(١) فقال النظام وأكثر المعتزلة وأصحاب الكلام : لا يجوز ذلك؛ لأن فى ذلك فساد دلائل الأنبياء، لأن من دلالتهم أن ينبئوا بما نأكل وندخر.

(٢) وقال قائلون : جائز أن يخدم الجن الناس؛ وأن يخبروهم ما لايعلمون [٢].

وانتهى عهد كان الجن يقذفون للكهان - ظناً وإيهاماً - بغيب السموات وما يحدث فى عالم الأكوان بين الناس وبينهم ، ولأنهم مردة كانوا يبثون لهم الكذب ويختلقونه اختلاقاً ويلقونه إليهم .

أما مع نور الإسلام فسقطت هذه الأوهام والخرافات، وأقر الجن بذلك وبينوا أنهم كالإنس تماماً مكلفون بالإيمان والطاعة ، وأن الله ابتلاهم بأنهم يختارون، ومنحهم القدرة على الاختيار ولم يسلط عليهم من الأعمال شيئاً يمنعهم أو يقهرهم فلا يؤمنون ، فهم عقلاء مستطيعون ، والتكليف واجب فى حقهم وداخل فى مقدرتهم، قال تعالى فى بيان الصورة الكلية لعالم الجن على لسانهم :

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢ ﴾ [٣] .

جاء فى تفسير الزمخشرى أن الشياطين كانت تسترق فى بعض الأحوال، فلما بعث رسول الله ﷺ ؛ كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة ؛ حتى تنبه لها الإنس والجن؛ ومنع الاسترق أصلاً.

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

(٢) انظر الاشعرى : مقالات الإسلاميين؛ ٢ / ١١٠.

(٣) سورة الجن الآيات ٩ - ١٢ .

– وعن معمر: أنه كتب للزهرى: أكان يرى بالنجوم فى الجاهلية؟

قال: نعم . قلت : أرأيت قوله تعالى ﴿ وأنا كنا نقعد ﴾ فقال : غلظت وشدد أمرها حين بعث النبى ﷺ .

– وروى الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس، رضى الله عنهما؛ بينما رسول الله ﷺ ؛ جالس فى نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال : ماكنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية؟

فقالوا: كما نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم [1].

وقوله: (ملئت) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة؛ وكذلك قوله ﴿ نقعد فيها مقاعد ﴾ أى : كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب؛ والآن ملئت المقاعد كلها، وهذا ذكرما حملهم على الغرب فى البلاد حتى عثروا على رسول الله، ﷺ ، واستمعوا قراءته.[2]

فكل شئ فى قبضة الله وتحت سيطرته، والجن أعجز من أن يشتغلوا بغير عبادته، ومن فسق منهم فهو فى شقاء ، كما نجد من فسق أو كفر من بنى آدم فى شقاء وضنك دائبين؛ وهم فى بحث دائم وداوب عن الهدى والحق والخير ، ومن وفق له يحمد الله ، تعالى ، عليه لما فيه من سعادة الدنيا والآخرة له ، قال ، تعالى ، على لسانهم :

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [3] .

والنجس والرهق يقول فيه الزمخشرى : « أى جزاء ولا رهق؛ لأنه لم ينجس أحداً حقاً ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما ».

---

(١) مسند أحمد ؛ ١ / ٢١٨ .

(٢) الزمخشرى: الكشاف ؛ ٤ / ٦٢٦ .

(٣) سورة الجن الآيات ١٣ – ١٧ .

وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أى يجتنب المظالم. ومنه قوله ، عليه الصلاة والسلام : «**المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأموالهم**» [1] .

ويجوز أن يراد : فلا يخاف أن ينجس بل يجزى الجزاء الأوفى، ولا أن ترهقه ذلة ، من قوله ، عز وجل : « وترهقهم ذلة » [2] .

أما تفسير قوله تعالى : ﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه .

ويجوز أن يكون معناه : وأن لو استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التى كانوا عليها قبل الاستماع ، ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم ، لنفتنهم فيه لتكون النعمة سبباً فى اتباعهم شهواتهم، ووقوعهم فى الفتنة [3] .

هذا هو التصور القرآنى لطبيعة الجن وما هم عليه ، على وجه الحقيقة واليقين ، بعيداً عن الوهم والخرافة والأساطير ؛ وهم فى شغل بأمر أنفسهم وماجاءهم من الحق على لسان محمد ﷺ ؛ من أن يفتنوا بنى آدم ويضلوهم ، والقرآن بدد ظلام الجهل ووهم الكذب فى العقول ، ولذلك لا يليق بمسلم واعى ؛ يتلقى صفاء ونقاء التوحيد من كتاب ربه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . أن يعتقد غير ذلك فى الجن ، فهم عباد أمثالنا مكلفون فى عوالم غيرعالمنا ، ومن اتصل منهم بنا أوكان مارداً ناداً عن مجموعهم ، أو حتى حاول إيذاء الإنسان ، فالله حسبنا من دونه ، وما علينا إلا بالاستعانة بخالقه ، تعالى ، عليه : ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾** ﴾ [4] .

* * *

---

(١) اخرجه ابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد .. وفى كشف الخفا ؛ ٢ / ٣٩٠ ، والبزارح (٢١) وابن حبان ، ح (٢٦) ، والحاكم ، ١ / ١١ ، والهيثمى ١ / ٥٤ .. وابن ماجة ، ٢ / ١٢٩٨ ح (٣٩٣٤) .

(٢) الزمخشرى : الكشاف؛ ٤ / ٦٢٨ .

(٣) المصدر السابق؛ ٤ / ٦٢٩

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠٠ .

المبحث الثاني

أحوال إبليس مع الإنسان

ويشتمل على ستة فصول:

الفصـــل الأول : أفعال إبليس بين الحقيقة والمجاز .

الفصل الثانـــي : والله خير حافظاً .

الفصل الثالـــث : وهم لابد من رده .

الفصل الرابـــع : ليس لإبليس سلطان على الحياة .

الفصل الخامس : الشيطان يجرى مجرى الدم .

الفصل السادس : دولة إبليس .

الفصل الأول

أفعال إبليس بين الحقيقة والمجاز

١- هل سحر النبى ﷺ ؟!

٢- هل يعقد الشيطان على قافية المسلم ؟!

٣- هل يبول الشيطان فى أذن المسلم ؟!

المبحث الثانى

أحوال إبليس مع الإنسان

عقد البخارى باباً عن صفة إبليس وجنوده فى كتاب بدء الخلق ؛ وتعود أهمية هذا الباب فى كونه جمع فيه سبعة وعشرين حديثاً عن إبليس وأفعاله وكيفية الاستعاذة به.. وهو يمثل جزءً من التصور الإسلامى عن إبليس لابد من بيانه ومعرفته .. وليس المقصود حكاية ما ذكره البخارى من أحاديث فى هذا الباب فقط .. ولكن ذكر موقف العلماء من هذا التصور ووضعه فى مكانه اللائق به .. فكل حديث من هذه الأحاديث يمثل إضافة هامة فى فهم موقف السلف الأول من هذه القضية ، وكيف استقبلوا حديث رسول الله ﷺ فهل كان إبليس قوة خارقة لا حجم لها .. وهل تصوروه مسلطاً على الإنسان حتى على رسول الله ﷺ والوحى .. فقد رووا أنه ﷺ قد سحر ، وأن الشيطان ألقى فى الوحى ما هو شرك خالص .. فهل هذا صحيح ، وإن كان صحيحاً فهل له تأويل وتوجيه عرفه السلف؟!

إن المسلمين ليسوا فى حاجة إلى مزيد من الإرشاد فى قضية الإيمان ولا يعانون نقصاً فى إيمانهم، ولكنهم - حقيقة - يعانون نقصاً فى عقولهم وفهمهم للنصوص ، وفى الحالة الإسلامية نجد محدثين عقولهم من وراء ما يروون ، يحاولون جهدهم تصدير تصورهم وفرضه على التصور الإسلامى بأسسه وخصائصه ومقوماته ، دون مراجعة أو فهم - وهذه الحالة تخص بعضهم - ونجد فقهاء راشدين يزنون الأمور بميزان دقيق يحكمه المعقول والمنقول، والتصور الأساس وما يعرض له من آراء متعارضه ؛ فلا يزيغ بصرهم ولا يضل رأيهم ، فهل نأخذ بما يفرضه علينا المحدثون زاعمين أن من يرد حديثاً لرسول الله ، ﷺ، فقد كذبه ، ومن ثم يحكمون عليه بالزيغ والكفر، وما كذب الفقهاء والناظرون غير رواة كذابين أو فرقاً ضالة إسلامية ، أو غير إسلامية ، شحنت التراث الحديث بما يوافق هواها وآراءها ضاربين عرض الحائط بالقرآن الكريم وما صح وتواتر من سنة النبى ﷺ، وهى تكذبهم قولاً وعملاً.

* * *

الفصل الأول

أفعال إبليس بين الحقيقة والمجاز

اعتاد العرب على نسبة كل الأفعال القبيحة للشيطان .. فيقول : فعل شيطانى .. أو الشيطان فعل كذا .. أو هذه شيطنه .. أى أنها أفعال لا تجب فى حق بنى آدم .. وذلك لأن الشيطان تجاوز الحد عندما فسق عن أمر ربه ، وأتى منكراً من القول وزوراً لم يكن لمثله ولا غيره أن يأتيه .

وحملت لغة العرب هذه الروح فنسبت كل قبيح للشيطان ، أى أنها أفعال كان لا ينبغى أن يفعلها سواه .. أو هى منسوبة له ؛ لأنه أول من عصى وفسق .. أو لأنها تماثل أفعاله وتجاريها .

ولغة العرب لغة تصويرية وبيانية .. تعتمد فى كثير من تراكيبها على المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه ، ولذلك ينبغى حمل كل ما جاء عن الشيطان على هذا الوجه ، فهو إما على سبيل ضرب الأمثال للتقريب والتفهيم أو كناية عن .. لا فعلاً له ..

وفى ضوء حقائق وثوابت العقيدة والتصور الإسلامى للتوحيد – ذاتاً وصفاتاً – وما ينبغى أن ينسب لله وحده ، يمكن فهم ما جاء فى السنة ، كذلك فقد وردت بعض الأحاديث تشير إلى أنه ﷺ سحر .. سحره يهودى اسمه **لبيد بن الأعصم** وأثر سحره فيه .. والسحر باب من أبواب الشيطنة والاستعانة بالشياطين .. فهل ما حدث كان سحراً وهل حدث فعلاً .. وما تفسير ذلك وتوجيهه ، فى ضوء عصمة النبى ﷺ والوحى .. وحفظ الله لكتابه ؟!

كما أن الكتاب والسنة أشارا إلى وسائل كثيرة ، يحفظ بها المسلم نفسه من الشيطان ، فهل بعد ذلك له قدرة على العبث بأمنه وإيمانه ، والتغلغل إلى وجدانه وخواطره .. وزيادة على ذلك أن يأتيه فيعقد على رأسه أو يبول فى أذنيه !.

ما مدى حقيقة هذه الأفعال .. وهل لها تأويل وتفسير ، أم هى مُسَلَّمٌ بها إلى النهاية ؟!

إن الإسلام دين جاء لتحرير قوى الإنسان من سيطرة كهنة الأوثان وأوهام الأصنام،

والعبودية لغير الله . . وكان ثورة على الجهل والخرافات والأساطير . . وما كان لدين جاء لتحريرنا أن يؤصل للوهم والزيف والخرافة . .

وكما حارب الإسلام عبادة غير الله والشرك به ، فصرعها - أصناماً كانت أو مجوسية أو بوذية أو مانوية أو نصرانية - كعقائد باطلة منافية للتصور الإسلامى للألوهية والتوحيد - صرع الإسلام عبادة الشيطان ، وكانت معروفة وأصحابها يقدسون إبليس ، ويعتبرونه إلها من دون الله أو شريكا له ، يتصرف فى دولة الشر أو عالم الملكوت أو فى الأرض وماعليها . . وهذا هو تصورهم أن الله خلق العالم ، وأوكل الحكم والملك فيه لإبليس وجنوده ، وما أسوأ هذا التصور العاجز القاصر . . وما أقبحه ! . . فلا هم عبدوا الله فأخلصوا التوحيد . . ولا كفروا به وجهلوه فعذروا .

ولذلك نوجه حديثنا لكل الاتجاهات الضعيفة التى أصابت الكيان الإسلامى بالشلل والهزال ، وهى تدرى أو دون أن تدرى . . ماذا يبقى للإسلامى - إن نحن تبعناهم فى تصوراتهم المنحلة - من توحيده وعدله . . لقد سلطوا فكراً قاصراً على التوحيد فشحنوه بالتشبيه والتجسيم ، واعتمدوا الجبر فى أبواب القضاء والقدر ونسبوا الكفر والمعاصى وفعل الشيطان لله ، عز وجل . . وتمادوا فى باطلهم ؛ وكأنه حق لا يرد ! . .

ولذلك رأينا أنه من الواجب تحرير العقل المسلم ، من الوهم والزيف حتى تعود الأمة إلى سابق عهدها وحدة واحدة ،شعارها الله غايتنا والقرآن كتابنا والرسول قائدنا والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا .

نحن لا ننصر مذهباً على آخر ولا فرقة على خصمها ولا اتجاهاً على ما يناقضه، فمعظم تصورات المذاهب الإسلامية صحيحة تماماً ، غير أن تراكم الخلاف حول الصغائر والشكليات والوقوف على الجدل والمغالطى والإيهام اللفظى خلّف لدينا تصوراً فاسداً للسلف، وأحدث ثنائيات، السنة فى مقابل الشيعة، والسلف فى مقابل الخلف، والأشاعرة فى مقابل المعتزلة! . . وهكذا تضخم حول عقائدنا خلاف لا نهاية له حول السفاسف وشقشقات، إهمالها يضخمها والتعرض لها يبعث خلافات قد ماتت أو ما زالت تؤجج نيرانها تحت الرماد . . وطالما أن مصيرنا إلى إحقاق الحق، وتاليف قلوب الأمة حول كتاب ربها وسنة نبيها ، فلا ضير.

١ - هل سحر النبى ﷺ ؟!

روى البخارى بسنده عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : « سحر النبى ﷺ ، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشئ وما يفعله ، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما فيه شفائى ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال أحدهما للآخر : وما وجع الرجل ؟ فقال ؛ مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فبماذا ؟ قال : مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر. قال : فأين هو؟ قال : فى بئر ذروان.

فخرج إليها النبى ﷺ ، ثم رجع فقال : لعائشة حين رجع : نخلها كأنه رءوس الشياطين . فقلت : استخرجته؟ فقال : لا . أما أنا فقد شفانى الله ، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً . ثم دفنت البئر » [١] .

والمقصود بيان أن السحر من الشيطان وأعوانه .. وأهل السنة يجوزون وقوع السحر وأن الساحر يفعل أموراً خارقة للعادة بواسطة كلمات يعلمها يسخر بها الجن .. والمعتزلة ينكرون السحر أصلاً .. ويعتقدون أنه مجرد خيالات باطلة لا حقيقة لها تحدث من بعض الناس ، فتنة لغيرهم وابتلاء واستدراجاً لهم .. وهو كلام يطول شرحه ربما استدركنا عليه فى كتاب آخر عن موقف الإسلام من السحر ..

ويقول الحافظ ابن حجر عندما ذكر هذا الحديث فى كتاب الطب باب السحر حكم الساحر فى الإسلام ، وأنه يقتل إن كان فى سحره ما هو كفر ولم يتب عنه[٢] .. أما ما حدث لرسول الله ﷺ على يد لبيد بن الأعصم ، فيقول فيه : ووجه إيراده هنا من جهة أن السحر إنما يتم باستعانة الشياطين على ذلك .. ويقول ابن القيم : إن ما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك.

وقد أنكر ابن حزم أن يكون ذلك سحراً وإحالة طبيعة ، وهو مجرد مرض ظن فيه أنه فعل الشئ وهو لم يفعله .. فهو تأثير لقوة الصناعة ، ويتسائل إن كان السحر يحيل الأعيان ويقلب الطبائع فما الفرق بين النبى والساحر ؟! [٣] فالنبى لم يسحر ؛

---

(١) البخارى : ٦ / ٣٨٥ - ٣٨٦ ، حديث رقم ٣٢٦٨ .
(٢) البخارى : ١٠ / ٢٤٦ حديث رقم ٥٧٦٦ .
(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٤ / ١٠٤ .

لأنه معصوم والمعصوم لا يؤثر فيه سحر لحفظ الله له ؛ ولكنه مجرد فعل اليهودى فاخبر الله نبيه به وعافاه منه ؛ ولو كان ماحدث قد أثر بالفعل فى النبى ، ﷺ ، على سبيل السحر الذى يعتقده بعض الناس لكان قادحاً فى نبوته ﷺ وفى نص الوحى الذى قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾ [1] . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [2] ومن تمام حفظ الذكر حفظ النبى ﷺ من كل مكروه وسوء .

وقد وقف علماء الإسلام قديماً حول مفهوم وحقيقة السحر فجاءت اجتهاداتهم على ثلاث مقالات :

١- فقال المعتزلة وغيرهم من أهل الإسلام: السحر هو التمويه والاحتيال وليس يجوز أن يبلغ الساحر بسحره أن يقلب الأعيان ، ولا أن يُحدث شيئاً لا يقدر غيره على إحداثه .

٢- وقال قائلون: يجوز أن يقلب الساحر بسحره الإنسان حماراً؛ وأن تذهب المردة إلى الهند فى ليلة وترجع .

٣- وقال قائلون: السحر ليس على قلب الأعيان، ولكنه أخذ بالعيون، كنحو ما يفعله الإنسان مما يتوهمه المتوهم على خلاف حقيقته [3] .

فأى حال من هذه الحالات كان النبى الحبيب ﷺ المعصوم الطاهر المطهر الذى سلمه الله من كل سوء؟!.

* * *

(١) سورة النجم آية ٣ .

(٢) سورة الحجر آية ٩ .

(٣) الأشعرى: المقالات ؛ ٢ / ١١٥

٢ - هل يعقد الشيطان على قافية المسلم ؟

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم - إذا هو نام - ثلاث عقد ، ويضرب على كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل ، فارقد . فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدهُ كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس ؛ وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**» (١) .

عقد البخارى لهذا الباب عنواناً على النحو التالى : باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ؛ ومن هذا العنوان يفهم أن المقصود به شيطان الجن لا شيطان الإنس وعلى الأغلب إبليس، وأنه يقوم بهذه المهمة كل ليلة ويفعل ذلك مع المؤمنين المسلمين الموحدين، الذين يصلون الليل ويداومون عليه بغية أن يتركوا ما اعتادوا من الصلاة .

وقد استدرك على ما صدر به الباب ابن التين بأنه مخالف لظاهر حديث الباب؛ لأنه دال على أنه يعقد على رأس من صلى ومن لم يصل ! . . وكأنه يوسع الدائرة ويبين مدى قدرة وإمكانيات عدو الله فى إغواء عباد الله ، وسيطرته وسلطانه على مالم يجعل الله له عليهم سلطاناً .

وابن حجر يتناول قضية وجوب صلاة الليل من عدمها ، وهل المقصود صلاة العشاء أم الليل ، فى مداخلة تشعرنا بأن الأمر مُسلَّمٌ به ، وأن هذا العدو الذليل الضعيف فى مواجهة متساوية مع الله والإنسان فى صراع الخلاص والتملص من قواه الروحانية الهائلة ، فإن نجح أثابه الله وإن أخفق عاقبة الله ؛ فما ذنب الإنسان فى تسليط ربه لعدوه عليه؟! . . وهل من العدل إن أخفق العبد فى الخلاص من حبائل الشيطان أن يقع فى النيران . . وما مدى صحة الجزاء على هذا التكليف الذى حاول تصويره اتجاه كبير من علماء المحدثين ؛ وليس من فقه فى دينه كمن جهل !!

---

(١) البخارى ؛ ٦ / ٣٨٦ حديث رقم ٣٢٦٩ - ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجة وفى موطأ مالك ، وأحمد فى مسنده .

ثم هذه العقد التى يعقدها الشيطان فى وقت واحد على أقفية جميع البشر أم يخص بذلك أهل التوحيد ؟!

يرى ابن حجر أن ذلك يعم المخاطبين ومن فى معناهم ويمكن أن يخص منه من تقدم ذكره . ومن ورد فى حقه أنه يحفظ من الشيطان كالأنبياء ومن تناوله قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (١) ، وكمن قرأ آية الكرسى عند نومه فقد ثبت أنه يحفظ من الشيطان حتى يصبح ، وهذا كلام يسلم بداية بأن البشر فى قبضة الشيطان ؛ ولا تدركهم عناية الرحمن أبداً إلا بعد الذكر أو كانوا أنبياء !!

إن القول بأن لإبليس قدرات مساوية لقدرات ربه فى توجيه قوى الإنسان دون أن يدرى هذا الإنسان أو يشعرمن أين يأتيه عدو الله قدح فى عدل الله وتوحيده . . فالله هو العادل الحكيم ولا يجوز فى عدله وحكمته تسليط عدوه على وليه ، وما يذكره هذا الاتجاه قدح فى التوحيد وشرك بالله كبير ، حيث يسوون بين عدو الله وخالقه فى كل ما يفعل ويدع بالإنسان ، فإذا كان قادراً على توجيه قوى الإنسان الحسية والروحية بالوسوسة والإغواء والتحايل عليه بكل سبيل ، فماذا تركوا للمسلم فى تصوره للألوهية والتوحيد ؟! . .

أما كيف يضرب الشيطان على مكان كل عقدة فهو بحث آخر ؛ فهناك عقدة بل عقد وعاقد ومعقود عليه ؛ والعاقد إبليس والمعقود حبل – على الحقيقة أو المجاز – فى أحسن الأقوال المعقولة ؛ ومعقود عليه وهو عبد الله المؤمن الموحد الذى نام مصلياً أو غير مصلى ، أما الذى غفل عن الصلاة فهو فى أسر إبليس لا محالة ؛ ولا قدرة له على الإنفلات من أسره ، لأنه لا يتوضا ولا يصلى فضلاً عن عدم ذكره الله ، تعالى ؛ فاحتمال دخوله خطيرة الإيمان ابتداء ممتنع بناء على ما يقولون ؛ لأنه لا يملك هذه الأدوات ، ولا فرصة عنده للاختيار لإحكام إبليس قبضته عليه!

فالشيطان يضرب على كل عقدة بمعنى أنه يحجب الحس عن النائم ، حتى لا يستيقظ ومنه قوله تعالى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ ﴾ (٢) ، أى حجبنا الحس أن يلج فى آذانهم فينتبهوا (٣) .

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف : آية ١١ .

(٣) قارن ؛ تفسير الطبرى ؛ ٥ / ١٣٧

عن أبى سعيد : «ما أحد ينام إلا ضرب على سماخه بجرير معقود» . وعن ابن عمر: «ما أصبح رجل على غير وتر إلا أصبح على رأسه جرير قدره سبعين ذراعاً» .. أى حبل.. هذا ما ذكره الحافظ تأييداً لما يفعله بنا الشيطان، فقاس فعله بما فعل الله باصحاب الكهف !!.

ولا يوجد إنسان عاقل له مدارك حسية سليمة أدرك ما يفعله الشيطان من وسوسة أو عقد .. وهذه المدارك الحسية هى التى يدرك الإنسان بها الأفعال الحسية .. وأنا أعلم أن هناك من ضعاف الفهم من يقول إن ذلك يحدث للإنسان وهو نائم .. حسناً؛ فماذا عندما يستيقظ ويجد نفسه معقوداً عليه ، فلا شك أنه يدرك أن للشيطان فعلاً حدث فى تكوينه النفسى والحسى سمح به الله لعدوه!

واختلف العلماء فى طبيعة هذا الفعل ، فمنهم من قال إن هذا العقد على وجه الحقيقة كما يعقد الساحر من يسحره ؛ وأغلبهم يوافق على هذه المقولة ؛ وقال آخرون إنه على سبيل المجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم بفعل الساحر بالمسحور .. وقال غيرهم المراد به عقد القلب وتصميمه على الشئ كأنه يوسوس أنه بقى من الليلة قطعة طويلة فيتأخر عن القيام ، وإنحلال العقد كناية عن علمه بكذبه فيما وسوس به . أو أن العقد كناية عن تثبيط الشيطان للنائم .. وأغرب بعضهم فقال بأنه الأكل والشرب والنوم !.. وذكر الشيخ الملوى أن العقد يقع على خزانة الإلهيات من الحافظة وهى الكنز المحصل من القوى ، ومنها يتناول القلب ما يريد التذكر به [1] .

وهكذا صار لإبليس سيطرة كاملة على الإنسان ، وعلى أخص ما وهبه الله له من قوى حسية وعقلية وروحية ، فماذا بقى له من حرية الاختيار والإدراك ؟!.. إن كان فى لحظة واحدة يستطيع إبليس الدخول على الحافظة الذاكرة (الإلهية) ، وإفسادها أو السيطرة عليها أو أن ينسى الإنسان ما يعتقد ويؤمن به ؟!

والمدهش أن يتمادى أفاضل العلماء وراء هذا الجدل الخطير ؛ والذى يثبت به الشئ ونقيضه والتوحيد والشرك ، ببساطة .. ويتفننون فى تحليله وتأويله بما هو جائز من وجه ومستحيل من وجوه آخر.. وهو ما يؤدى إلى تذويب قضية الإيمان الأصلية فى

---

(١) الفتح ٣ / ٣١ ، ٣٢ ، والنووى على مسلم ٦ / ٦٤ .

بحر من الروايات ، فمثلاً مسألة أن يصبح الإنسان المسلم «**طيب النفس**» أو «**خبيث النفس**» يجد لها الحافظ ابن حجر مسارب ليتشقق الحديث حولها عن طبيعة هذا الشعور الذى يصيب المسلم ، هل هو لقيامه الليل أو صلاته المكتوبة ؛ وهذا الكسل هل هو بسبب هذه العقد الثلاث أو لعدم قيامه بأداء صلاة الليل ؛ وهو ما يتعارض مع حديث آخر قال فيه ﷺ : «**لايقولن أحدكم خبثت نفسى**» وأن هذا الحديث ينهى عن إضافة الخبث للذات ، أما الآخر فهو يضيفه إلى الفعل فهو وصف لها . وهكذا .

أكثر من ذلك يفرق الحافظ بين قرب الشيطان المعنوى وقربه الحسى ؛ عند الرد على من عارضه بحديث آية الكرسى «**إن قارئ آية الكرسى عند نومه لايقربه الشيطان**» [1] فهل نعلم لإبليس قرباً حسياً حتى نعلم قربه المعنوى ؟! هذه مجرد مداخلة فقط ؛ وليس شغباً على دليل .. وما نريد إثباته هوأن الجن خلقوا للعبادة مثلنا ولهم ما يشغلهم عنا ؛ ومن رام بإنسان إيذاء أو مكراً فهو شياطين الإنس كشياطين الجن تماماً وما يقع منهم ولا فرق بينهما .

غير أن شياطين الإنس أشد إيذاء وأسرع مكراً ، أما شياطين الجن فلا سلطان لهم على عباد الله الذين دخلوا فى كنفه وآمنوا برسوله ، فهم إما فى ذكر الله أو تلاوة للقرآن أو صلاة أو طلب علم شرعى، ومن كان هذا حاله فكيف يقربه شيطان!

لقد كان لشياطين الإنس والجن مكائد عديدة لإفساد عقائد الناس منذ فجر التاريخ الإنسانى؛ فإذا فسدت العقائد وجب على الناس العذاب بعدما أهدرت أعمالهم ؛ لأنه لا أثر لعمل صالح فى الآخرة مع عقيدة فاسدة؛ ويأتى اختلاف الناس فى إطار من الإيمان بالقضاء والقدر لا شك فيه قال تعالى : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)** ﴾ [2] ولا مانع من الاختلاف والاجتهاد والنظر فهو كله خير ، عدا الاختلاف حول ثوابت العقيدة وأساسياتها فهو الهلاك المبير.

---

(١) البخارى : الفتح ؛ ٨ / ٦٧١ (كتاب فضائل القرآن – باب فضل سورة البقرة) .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

٢ - هل يبول الشيطان فى أذن المسلم؟

عن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : «ذُكر عند النبى ﷺ وسلم رجل فقيل : مازال نائماً حتى أصبح ماقام إلى الصلاة ، فقال : «بال الشيطان فى أذنه» .

وعبدالله هو عبد الله بن مسعود ؛ والرجل الذى يعنيه هونفسه «وأيم الله لقد بال فى أذن صاحبكم ليلة» [١] يعنى نفسه .

وفى طبيعة ما يفعله الشيطان اختلف العلماء ، هل ما يفعله على الحقيقة أم المجاز ، فمن قال إنه على حقيقته لم ير فى ذلك مانع إذ لا إحالة فيه ؛ لأنه ثبت أن الشيطان يأكل ويشرب وينكح ، فلا مانع من أن يبول . وهذا الرأى مردود على صاحبه وهو القرطبى بأنه من أين لك أن الشيطان يأكل ويشرب ، وإذا ثبت لك ذلك بنص قرآن أو رواية حديث ، فهل يصح القياس عليهما فى البول ؟!.. أو لا يجوز على من وصفتموه بخوارق العادات أن لا يبول أو ينكح .. وبوله ونكاحه من الأمور الحسية فهل وجدت أحداً جاءك ببول الشيطان أو شاهد نكاحه .. ومن ينكح ؟ أتثبت للجن إناثاً يضعون فيهم شهواتهم على ما افترضتم ؟!

كل ما سبق هو ضرب فى هواء ، ولا يصح منه شئ والثابت من نص الكتاب يرده ؛ والإيمان به يدخلنا فى باب واسع من الخرافة التى لا تجوز فى الدين ، وقد تكون مسبباً فى الكفر به .

أما الرأى الآخر الذى يرى أصحابه أنه كناية عن سد الشيطان أذن الذى ينام عن الصلاة حتى لا يسمع الذكر ، فهو أمر حسى يفعله كذلك الشيطان ، ونافذتنا على المعرفة هو الإدراك الحسى ، ولم يحدث لنا أو لغيرنا أن وجد سدادة أو شيئاً من هذا القبيل حتى نثبته !

أما من قال بأن الشيطان ملأ سمعه بالأباطيل ، فحجب سمعه عن الذكر ، فهو يثبت فعلاً للشيطان فى الإنسان يجبره عليه بغرض أن يترك طاعة ربه ، فهل على

---

(١) البخارى ٣ / ٣٤ كتاب التهجد باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان فى أذنه .. حديث ١١٤٤ ، ٦ / ٣٨٦ كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس حديث ٣٢٧٠ ؛ وكذلك فى مسلم كتاب صلاة المسافرين حديث ٢٠٥ ، والنسائى ، وابن ماجة ، وأحمد فى مسند ١٥ / ٣٧٥ وغيرها .

المجبور على فعل ما من حرج؟!.. وهل كل من نام عن صلاة وجد بولاً فى أذنيه أو بات على باطل.. وكيف يجتمع حقٌ هوالتوحيد والذكر والصلاة مع باطل .. أو لم نر من قبل كلامكم عن الذى نام ولم يصل ، أو صلى وعقد الشيطان على قافيته ، أنه نام مسلماً موحداً يأتى الصلاة والذكر ، ولكن حدث له ماحدث فأخذ تم فى تبرير ما وقع له !

وزاد بعضهم فقال هو كناية عن إزدراء الشيطان به .. أو استيلاء الشيطان عليه واستخفافه به حتى اتخذه كالكنيف المعد للبول ..

وأقرب ما يكون للتأويل الصحيح أنه مثل مضروب للغافل عن القيام بثقل النوم ، كمن وقع البول فى أذنه فثقل أذنه وأفسد حسه ، والعرب تكنى عن الفساد بالبول قال الراجز : «**بال سهيل فى الفضيخ ففسد**» ؛ وكنى بذلك عن طلوعه ؛ لأنه وقت إفساد الفضيخ فعبر عنه بالبول .

روى أحمد عن أبى هريرة : «**قال الحسن إن بوله والله لثقيل**» !! وروى عن ابن مسعود : «**حسب الرجل من الخيبة والشر أن ينام حتى يصبح وقد بال الشيطان فى أذنه**» وهو موقوف صحيح الإسناد [1] فالنص الأول يشير إلى ثقل بوله ، والثانى يؤكد فعله ؛ فهل لنا أن نحسه أو نلمسه أو نجد أثره ؟!..

إن من ذهب إلى حقيقة هذا الفعل أغرب وأبعد ونسب للشيطان قدرات تفوق قدرات الملائكة الحفظة والمقربين وأولياء الله وأنبيائه وكل من أطاعه ، وعدا قدره فنسب له قدرات على الفعل هى لله الواحد الأحد القادر ؛ ودخل فى حساب عويص من الشرك والجبر وقدح فى توحيده؛ ومن يؤمن بهذا الكلام على حقيقته يؤمن بكل شئ ولا دين له أصلاً ولا عقيدة .. فلا ثبات لأصول التوحيد مع هذا الهراء الأجوف إن أخذناه على حقيقته وآمنا بالله الحفيظ الوكيل . ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾[2] .

ومن جنس هذا الكلام الغريب ما يذكره الحافظ عن الطيبى فى بيان سبب ذكره ﷺ للأذنين دون العينين رغم أن النوم والنعاس أخص فيهما من الأذنين ؛ لأن

---

(١) البخارى : المصدر السابق ، نفسه .

(٢) سورة الطلاق : ٣

المسامع موارد الانتباه ؛ والبول أسهل دخولاً فى التجاويف وأسرع نفاذاً إلى العروق فيورث الكسل فى جميع الأعضاء [1] وكان الشيطان يحقن عبد الله بمخدر سريع المفعول لاخلاص له منه إلا بمعصيته الله وتركه للصلاة والطاعة ، أفلا فكر هذا القائل فى الله الحافظ لعباده من شر الإنس والجن ، حين ترك أصل الاعتقاد فى هذا الفعل إلى تفسيره تفسيراً غريباً يوهم العوام بسلطان إبليس والجان على الإنسان .. وإحالتهم كل أفعالهم بعد ذلك لما يفعله الشيطان فيهم !

ويحسن هنا ذكر تفسير النوم عند النفسانيين حيث يقول أحدهم : « والنفس لاتنام فالنوم خاص بمادة الجسد ، فهى من يوم أن تخلق تظل حارسة لهذا البدن . والنوم نوعان :

(١) **النوم الاتصالى** : وهو الذى تبقى فيه النفس مع الجسد أثناء النوم، ونجد النائم فى هذه الحالة فيحرك يديه ورجليه وينقلب على الفراش يسره ويمنة ، وهو فى الغالب لا يدرى ويصحو بسهولة ؛ بل أقل حركة تجعله يهب من نومه، وهذه النفس المتيقظة قد تجعله يحلم أحلاماً من أحاسيس النفس فيه ، فإن قرب منه ثعبان أو عفريت مثلاً توحى إليه النفس بذلك ، أو توحى إليه بخطر مهول يتهدده ، فيقوم فزعاً، أو تسمع النفس أغنية فيرى النائم المغنى نفسه يزوره فى بيته ومعه عوده يغنى له خاصة، وربما ناقشه وتكلم معه ، هذا كله من أفعال النفس ، وقد جربت كثيراً من ذلك فى نومى .

(٢) النوم الانفصالى : وفيه تنفصل النفس عن الجسم، كما يحدث أحيانا فيما نسميه النوم العميق ، تماماً فكما أنه لا يرى ولا يسمع ولا يحس من حوله فإن النفس هنا لا تحلم أحلاماً قد تكون من واقع ما تحسه قريباً، فإذا ناديته لا يجيب، وإذا أردت صحوه ناديته مراراً وربت على كتفيه ، وهززته حتى

---

(١) الفتح ٣ / ٣٥ .

يفيق، واحذر فى هذه الحالة أن تزعجه فى نومه بأن تدفعه دفعاً أو تصيح عليه صيحات شديدة أو تضربه (كما يحدث من بعض الجهلاء) فلربما حدث ما يسمى انفصال الشخصية [1].

«وفي هذا الصنف من النوم، تسبح النفس فى ذكرياتها الماضية وأمانيها ومعضلات (الشعور) فتذهب إلى حلها مساعدة للشعور، وتتصل بما فيها من قوة الاقتدار على قراءة ما خفى من كتاب الكون .....إلخ» [2].

والنفوس إذا انفصلت عن الأجساد بسبب الموت ترى الملائكة والشياطين ، حيث أنها أصبحت مخلوقات أثيرية مثلها ، ويمكن للنفس أن تصعد للسماء وتذهب حيث تريد .

وبعد فهل يمكن احتمال قبول مثل هذا الأثر – على الأقل – على حقيقته ؟!

* * *

(١) د/ عبد الكريم دهينة: صراع بين النفس والعقل؛ ص ١٦٠ ، ٦١ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٢ .

الفصل الثاني

والله خير حافظاً

١- الاستعاذة من الشيطان .

٢- الحرز من الشيطان .

٣- الشيطان والعلاقة الزوجية .

الفصل الثانى

والله خير حافظاً

ينبغى المسلم أن يعلم أن الله الواحد الأحد حفيظ وكيل وهو حسبه .. فلا شيطان الإنس ولاشيطان الجن يستطيع أن يصل إليك مادمت مع الله ، تعالى ، متجه إلى قبلة التوحيد والإيمان .. مخلصاً له .. فالله قادر .. والله رازق .. والله حافظ .. والله قاهر فمن يقدر على من استعاذ بالله الأعظم خالق الخلق .. من له الأسماء الحسنى . قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾(٢) .

وقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾(٣) .

وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ (٥) .

فإذا كان ربك سميعاً عليماً بصيراً رباً للأكوان والأزمان والناس وجميع المخلوقات فمما تخاف ومن ذا الذى يطيق لله ، تعالى ، عداء ومناوءة ؟!

إن التصور الإسلامى لحقيقة الألهية بدد ظلام الخرافة وقوى قلب المسلم فى مواجهة الحادثات .. فشياطين الإنس والجن فى مواجهة براهين التوحيد أصفار .. فلا سلطان عليك أيها المسلم فلا تخف أوهاماً وخرافات تعيش خبيثة فى جنح الظلام كالخفافيش .. أنت حر فلا تتعلق بأهداب الزيف .. فإبليس والشيطان والجن أسماء لمخلوقات مثلك يشغلها عنك تكليف ، كلفها الله به هو ، كما كلفت به تماماً فلا تظنن أنها تركت ما أهمها واشتغلت بك ..

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٠٠ .

(٢) سورة غافر آية ٥٦ .

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ٩٧ – ٩٨ .

(٤) سورة الفلق آية ١ .

(٥) سورة الناس آية ١ .

ومن ند عن أمر ربه وعصى فالله حفيظاً لك من دونه ، وهو لايصل إليك بحال فقد أعلنها الله ، تعالى ، أن الشيطان ليس له على الإنسان سلطان . . إلا من أطاع الشيطان وعصى الرحمن وبات أسير هواه وشهواته ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴿٦٥﴾ ﴾ (١) .

فعباد الله المتقين الصالحين لا يقدر إبليس على إغوائهم وإضلالهم ؛ لأنهم في كنف الله ورعايته وعنايته ؛ وتوكلهم عليه واستعانتهم به واستعاذتهم من عدوه وعدوهم كافياً ؛ لأن يحفظهم من شره. يقول الزمخشري : « فإن قلت : كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغوياً مضلاً ؛ داعياً إلى الشر، صاداً عن الخير ؟.

قلت : هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية ، كما قال للعصاة : اعملوا ما شئتم » (٢) .

و ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٣) .

ويقول في معنى إغوائه إياه: « تسبيبه لغيه . بأن أمره بالسجود لآدم ، عليه السلام، فأفضى ذلك إلي غيه . وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله ؛ ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك.

والله ، تعالى ، بريئ من غيه ومن إرادته والرضا به، ونحو قوله : ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٥) في أنه إقسام ، إلا أن أحدهما إقسام بصفة ، والثاني إقسام بفعله ، وقد فرق الفقهاء بينهما .

ويجوز أن لا يكون قسماً، ويقدر قسم محذوف ، ويكون المعنى : بسبب تسبيبك لإغوائي أقسم لأفعلنَّ بهم نحو ما فعلتَ بي من التسبيب لإغوائهم ، بأن

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٢) سورة الحجر آية ٤٢ .

(٣) الزمخشري: الكشاف؛ ٢ / ٦٧٨

(٤) سورة الحجر آية ٣٩ .

(٥) سورة ص آية ٨٢

أزين لهم المعاصى وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم ﴿ فى الأرض ﴾ فى الدنيا التى هى دار الغرور ، كقوله تعالى ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (١) .

أو أراد أنى أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو فى السماء، فأنا علىَّ التزيين لأولاده فى الأرض أقدر.

أو أراد : لأجعلن مكان التزيين عندهم الأرض، ولأوقعن تزيين فيها ، أى : لأزيننها فى أعينهم ولأحدثنهم بالزينة فى الدنيا وحدها، حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها » (٢) .

يقول الهادى راداً على المجبر الذى احتج بالآيات السابقة على جبر الله لخلقه ليفعلوا الخير والشر كما أراد لا كما أرادوا : توهم، لجهله وسوء نظره وعلمه، أن الله ، تبارك وتعالى، حال بين إبليس وبين العباد حولاً، ومنعه من الوسوسة لهم منعاً ، وقسرهم عنه قسراً، وليس ذلك كما قال.

ألا تسمع ما ذكر الله عن آدم وزوجته، وكيف كانت وسوسته لهما حتى أوقعهما فيه، وكذلك اعترض لعيسى بن مريم حتى دحره ، ولم يطمعه فى شئ مما ذكره، ولغيرهما من الأنبياء والمؤمنين ، فلو منعه الله من أحد من المؤمنين منعاً ، وقسره على الوسوسة له قسراً ، لكان ذلك لأبيهم آدم ، عليه السلام ، ولكنه ، سبحانه ، منعه من ذلك بالنهى له والزجر عما هو عليه من إغوائه ، وعاقبة عليه ، وأعد له النار والعذاب فيه ، فقال : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾ (٣) .

فأما السلطان الذى ذكر الله، عز وجل ، أنه ليس له على المؤمنين ، فى قوله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) ﴾ (٤) .

فهو ماعلم من المؤمنين من طرده ودحره وترك طاعته فى وسوسته وأمره، وأنهم لا يجعلون له عليهم سلطاناً بشئ من الطاعة له من العصيان لربهم، وأنهم لايزالون مؤثرين لطاعة الرحمن ، محترسين من الشيطان بتلاوة القرآن والاعتصام بذى الجلال

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٦ .

(٢) الزمخشرى : الكشاف ٢ / ٥٧٨ .

(٣) سورة هود آية ١١٩، والسجدة آية ١٣ ، وص آية ٨٥ .

(٤) سورة الحجر آية ٤٢ .

المنان ، فهم أبداً لله مراقبون ، وفى طاعته ساعون، وللشيطان اللعين معادون، كما أمرهم ربهم حين يقول : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [1] .

وفى كل ما أمرهم به مخالفون ، فأولئك هم المهتدون الذين على ربهم يتوكلون ، فليس له على هؤلاء سلطان ، وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، وكذلك سلطانه على أوليائه ، وهو دعاؤه لهم وإغواؤه إياهم ، وقبولهم منه، ومثابرتهم عليه، فلما أن قبلوا منه ولم يعصوه كانت طاعتهم له السلطان عليهم، إذ أطاعوه وفى دعائه اتبعوه» [2] هذا هو التصور الصحيح الذى نرتضيه.

* * *

---

(١) سورة فاطر آية ٦ .

(٢) انظر الهادى : فى الرد على الحسن بن محمد بن الحنفية ، ٢ / ٢٥٩

١ - الاستعاذة من الشيطان

قال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾ [١] . النزغ هو النخس ، وذلك بحمل الشيطان للإنسان بوسوسته على خلاف ما أمر الله من عقائد أو أوامر ونواهي شرعية جاءت بها الرسل ، وثبت ذكرها في الكتاب ، والاستعاذة هي الاستعانة برب الناس على عدوهم وعدوه وعدم طاعته ، وقد نزلت هذه الآية على رسول الله ، ﷺ ، عندما قال : «كيف يارب والغضب» فنزلت الآية ، ويجوز أن يكون النزع اعتراء الغضب [٢] ، كما قال أبو بكر ، رضى الله عنه : «إن لى شيطاناً يعترينى» [٣] .

وقال تعالى ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾ [٤] ، كانت الشياطين تحث الناس على المعاصى ويغرونهم عليها ، والأز كالهمز ﴿ تؤزهم أزاً ﴾ ، فالاستعاذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه ، والاستعاذة من أن يحضروه ويحوموا حوله ، وعند تلاوة القرآن كما قال ابن عباس [٥] .

وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [٦] .

يستدل ابن كثير على أن الله ، تعالى ، يأمر بمصانعة العدو الإنسى والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة من العدو الشيطانى لا محالة ، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ، ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل . .

وتكون الاستعاذة قبل تلاوة القرآن وعند الصلاة ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ

---

(١) سورة الأعراف الايتان ١٩٩ - ٢٠٠ .
(٢) الزمخشرى : الكشاف ؛ ٢ / ١٩٠ .
(٣) انظر طبقات ابن سعد ؛ ٣ / ١٣٩ ، وابن قتيبة : الإمامة والسياسة ؛ ١ / ١٦ .
(٤) سورة المؤمنون الايتات ٩٦ - ٩٨ .
(٥) الزمخشرى : السابق ؛ ٣ / ٢٠٢ .
(٦) سورة فصلت الآيات ٣٤ - ٣٦ .

الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [١] . فهى من جملة الأعمال الصالحة التى يجزل الله عليها الثواب [٢] .

وقال أبو سعيد الخدرى : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل استفتح صلاته وكبر قال : «**سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك - ثم يقول لا إله إلا الله - ثلاثاً ثم يقول - أعوذ بالله السميع العلم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه**» [٣] .

وقال سليمان بن صرد ، رضى الله عنه : استب رجلان عند النبى ﷺ ، ونحن عنده جلوس ، فأحدهما يسبُّ صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبى ﷺ ؛ «**إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقالوا للرجل ، ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ ؟ قال : إنى لست بمجنون**» . [٤]

والجمهور على أنها مستحبة ؛ والجهر بها أولى عند الجمهور ، وإن حكى الإسرار فى إحدى قولى الشافعى ؛ وفى الصلاة هى للتلاوة وقال البعض هى للصلاة ؛ وذكر العلماء لفوائدها كثير من الأمور منها أنها طهارة للفم ولتلاوة كلام الله ، وهى استعانة به واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطنى الذى لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذى خلقه ، ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان . .

ومعناها الالتجاء إلى الله ، تعالى ، والالتصاق بجانبه من شر كل ذى شر والعياذة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير قال المتنبى :

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به ممن أحاذرُهُ

لا يجبر الناس عظماً أنتَ كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابرُهُ [٥]

---

(١) سورة النحل آية ٩٨ .

(٢) الزمخشرى : السابق ؛ ٢ / ٦٣٢ .

(٣) رواه أحمد، والترمذى ؛ ٣/٣٤٢ (باب ما يقول عند افتتاح الصلاة) ح (٢٤٢) .

(٤) رواه مسلم ، والبخارى ؛ ١٠/٥٣٥ (كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب) ح (٦١١٥) ؛ وأحمد ، ٦/٣٩٤ ، والطيالسى ، ح (٥٧٠) .

(٥) ديوان المتنبى ؛ ص ٤٣ .

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أى استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن لايضرنى فى دينى أو دنياى أو يصدنى عن فعل ما أمرت به ، أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر ، تعالى ، بمصانعة شيطان الإنس ومدارته بإسداء الجميل إليه ، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن ؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل ؛ لأنه شرير بالطبع ، ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه [1] .

يمكن تشبيه النفس بالحصن الذى يتحين الشيطان غفلة صاحبه ليقتحمه ويدكه فينهار عن آخره ويستسلم الإنسان .. وصاحب الحصن يمكن أيضا اعتبار العقل حفيظاً عليه وعلى نفسه .. وهو قريب من تخيل أفلاطون لقوى النفس المعرفية والشهوانية والجنسية [2] .

وحماية النفس يتطلب وضعها تحت رعاية العقل وكفالته ومعرفة مواطن الضعف التى يتسلل فيها الشيطان إلى هذه النفس .. فلا يصرع الشيطان نفساً صاحبها يقظ دائم الذكر والعبادة وتقوى الله ..

والثغرات التى يدخل منها الشيطان الغضب والشهوة ، فالغضب غول يلتهم العقل ويقضى عليه ، وليس هناك أخطر من أن يصبح الإنسان بلا عقل .. يقول إبليس : « كيف يغلبى ابن آدم إذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه ، وإذا غضب جئت حتى أكون فى رأسه » [3] لإفساده بالكبر والغرور ، والرضا عن الذات بالثقة المفرطة ، وبالتهور فى الحالة الثانية ومجاوزة الحد .

ثم الحرص والحسد ، فالحرص يعمى العقل ، وحبك للشئ يعمى ويصم ، ونور البصيرة يطمس ظلام الحرص والحسد ، يقول الشاعر .

لا تحرصن فالحرصُ ليس بزائد فى الرزقِ بل يشقى الحريص ويتعبُ

وبالحرص والحسد طرد إبليس من رحمة ربه وآدم من الجنة .

---

(١) ابن كثير؛ تفسير القرآن العظيم ؛ ١ / ١٥ - ١٧ .

(٢) انظر عبد الكريم دهينة : صراع بين النفس والعقل ، ص ١٨٣ .

(٣) احياء علوم الدين ، ٣/ ١٥٧ .

ثم التنعيم الزائد والإسراف ، فالشبع يقوى الشهوة ، وأكبر أسلحة الشيطان وبه يذهب الخوف من الله والرحمة من القلب وهجر الطاعات ومباشرة الموبقات وغض الطرف عن موعظة الحكماء وإغلاق القلب عن سماع الحق ، والسقوط فى الأمراض النفسية والعضوية[١] .

ويأتى بعد ذلك الرغبة فى الدنيا ومتاعها ، وهو يتدرج حتى يصل بصاحبه إلى الأنانية والذاتية واللامبالاة بالآخرين والصرع فى حب المال وكنزه[٢] .

أما حب الطمع فهو يصيب صاحبه بالنفاق والريا ومصانعة الأغنياء وقهر الفقراء وكسر خواطرهم والتحالف من الشيطان وإرضائه ، ومناصرة الظالمين والطمع فيما بين أيديهم[٣] .

أما العجلة وعدم التريث؛ فيورث حجب البصيرة ﴿ **خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ** ﴾[٤] ﴿ **وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً** (١١) ﴾[٥] وقال ﷺ : «**العجلة من الشيطان**» .

والتنافس فى سبيلِ المال والتخلق بأخلاق البخلاء ، «لو أن لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له واديان»[٦] . ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً** ﴾[٧] . فاخذ الإنسان المال من غير حقه ومنعه من حقه من المهلكات[٨] .. وهو يقابل هؤلاء الذين ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً** (٨) **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً** (٩) ﴾[٩] .

أما التعصب المتطرف للمذهب فهو الآخر من الشيطان ، وكذلك الميل للأهواء والحقد على العلماء ومن يخالفهم فى الرأى والازدراء والاحتقار لهم .. وتبنى الآراء الشاذة والمهجورة من أجل الشهرة .

* * *

---

(١) السابق ؛ ٣/١٦٣ .
(٢) صراع بين النفس والعقل ؛ ص١٨٥ .
(٣) الإحياء ؛ ٣/٢٢٣ .
(٤) سورة الأنبياء آية ٣٧ .
(٥) سورة الإسراء آية ١١ .
(٦) متفق عليه ، وفى حلية الأولياء ؛ ١/٣٣٧ ، وأحمد ، والترمذى .. والجامع الصغير انظر ؛ ٢/١٣١ .
(٧) سورة البقرة آية ٢٦٨ .
(٨) الاحياء ؛ ٣ / ٢٢٣ .
(٩) سورة الإنسان آية ٨ ، ٩

٢ - الحرز من الشيطان

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك**» (١) .

والحديث خير شاهد على أن ذكر الله يحفظ الإنسان ويقيه من شر شياطين الإنس والجن ومن ضرهم .. فنحن جميعاً صنعة حفيظ قدير وليس أقدر على حفظ صنعة من صانعها .. وشياطين الإنس أقدر على أذانا والكيد لنا بأى ضر وكل ضر فى الصباح والمساء .. وعند الذهاب والرواح وفى مواطن اللقاء ، فالعين حق وقد قال ﷺ لمن رأى ما سره : «**هلاّ قلت بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله**» .. والسحر حق .. والحافظ هوالله ..

ورد عن النبى ﷺ : «**من قال حين يدخل السوق لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، وهوحى لا يموت بيده الخير ، وهو على كل شئ قدير...**» (٢) الحديث ، مما يدل على أن المقصود حماية المسلم من أذى الناس للناس، ومكرهم بهم عند البيع والشراء من الحيلة والخلابة والمخادعة وغير ذلك .

والحقيقة أن الأحاديث التى جاءت فى الحرز والتحصين من شرور الشيطان والسحر والعين كثيرة جداً ، وهى مرتبطة بالحالة النفسية وسلامة الذات من جنس هذه الشرور، فلا مانع من التعوذ بها فى مواجهة السحر الأسود وغيره

جاء رجل إلى أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، فقال : يا أبا الدرداء قد احترق بيتك ، فقال : ما احترق لم يكن الله ، عز وجل ، ليفعل ذلك بكلمات سمعتهن من رسول الله، وقد قلتهن اليوم ثم قال : انهضوا بنا فانتهوا إلى داره ، وقد احترق ماحولها ولم يُصبها ، وهذه هى الكلمات :

---

(١) البخارى ، ٦ / ٣٩٠ - حديث ٣٢٩٣ ، وفى ١١ / ٢٠٤ حديث ٦٤٠٣ .

(٢) رواه ابن ماجة ؛ ٢ / ٧٥٢ ، والترمذى ؛ ٥ / ٤٩١ وقال : هذا حديث غريب ، واحمد ؛ ١ / ٤٧ ، والحاكم ؛ ١ / ٥٣٨ وكذلك ابن السنى والطبرانى وابو يعلى والطيالسى .

قال النبى ﷺ : من قال حين يصبح وحين يمسى : «**اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . أعلم أن الله على كل شئ قدير . وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . إن ربى على صراط مستقيم**» لم يصبه فى نفسه ولا أهله ولاماله شئ يكرهه» (١) .

وقال النبى ﷺ : أما لدنياك فإذا صليت الصبح فقل بعد صلاة الصبح : «**سبحان الله العظيم وبحمده ولا حول ولا قوة إلا بالله**» (٢) . ثلاث مرات يوقيك الله من بلايا أربع : من الجنون والجذام والعمى والفالج .

وأما لآخرتك فقل : «**اللهم اهدنى من عندك وأفضْ علىَّ من فضلك وانشر علىَّ من رحمتك وأنزل علىَّ من بركاتك**» والذى نفسى بيده وافى بهنَّ يوم القيامة لم يدعهن ليفتحنَّ له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء » (٣) .

وقال النبى ﷺ : ما من رجل يدعو بهذا الدعاء فى أول ليله وأول نهاره إلا عصمه الله من إبليس وجنوده «**بسم الله ذى الشأن عظيم البرهان ، شديد السلطان ، ما شاء الله كان أعوذ بالله من الشيطان**» (٤) .

وقال النبى ، ﷺ : « من قال حين يصبح وحين يمسى : « **حسبى الله لا إله إلاهو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**» سبع مرات كفاهُ الله تعالى ، ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة) (٥) .

وقال النبى ﷺ : من قال حين يمسى : « بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » ثلاث مرات ، لم يصبه فجأةً بلاء حتى يصبح ، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسى (٦) .

---

(١) رواهُ ابن السنى عن أبى الدرداء .

(٢) رواه ابن السنى ، واحمد ، والمناوى ؛ ٤ / ٨٥ ، والسيوطى فى الجامع الصغير ؛ ١ / ٣٠ .

(٣) رواه ابن السني عن ابن عباس .

(٤) رواه الحاكم وابن عساكر عن الزبير ، والديلمى : فردوس الاخبار ؛ ٤ / ٣١٣ ح (٦٤٥٩) . .

(٥) رواه ابن السنى عن أبى الدرداء ؛ ٣٧ .

(٦) رواه ابو داود وابن حبان والحاكم عن عثمان ، والترمذى ، ٥ / ٤٣٤ ح (٣٣٨٨) ، وابو داود ، ٤ / ٢٣

وقال النبى ﷺ ، قل : «**قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شئ**» [1] .

وقال النبى ، ﷺ : (يقول الله ، عز وجل ، قل لامتك يقولوا : «**لا حول ولا قوة إلا بالله**» عشراً عند الصباح ، وعشراً عند المساء ، وعشراً عند النوم ، يُدفع عنهم عند النوم بلوى الدنيا ؛ وعند المساء مكايدة الشيطان، وعند الصباح أسوأ غضبى) [2] .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة، غير أن المسلم الواعى هو الذى يتخير منها وينتخب ما يسهل حفظه ولا ينسى ذكره فى صلواته ، أو عند المواطن التى يستجاب فيها الدعاء ويقبل فيها الرجاء ، ويتوكل على الله فى كل وقت وحين ، فهو حَسبه ونعم الوكيل.

* * *

(١) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة عن عبد الله بن خبيب، فى سنن الترمذى ١ ٥ / ٥٣٠ ح (٣٥٧٥) .
(٢) رواه الديلمى عن ابى بكر ، ٥ / ٣٥٥ ح (٨١٤٦) ؛ وكنز العمال؛ ح (٣٦٠٧) .

٣- الشيطان والعلاقة الزوجية

عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ : «**لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى ؛ فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه**» [١] .

ويحتمل تأويله بأنه كناية عن وقاية الإنسان من فعل الشيطان من شهوات النفس ونوازع الشر والفسق والفجور فيها ؛ أو أن يكون ذلك الشيطان إنسى يعتدى على حرمات الإنسان ويتجاوزها فيعتدى على الابناء بالتدخل فى تربتهم فيسئ إلى الإنسان وذريته . . وشيطان الإنس أقرب إلى الوسوسة والإساءة من غيره .

أما القول أن الحديث على ظاهره فهو يعنى أن شيطان الجن يتدخل فى جماع الإنسان لزوجته ويتسلط على أبنائه ، وهذا ما لا يدركه حس أو يستدل عليه عقل ، وهى نوافذ المسلم لقبول التكليف والعمل به ؛ كما أن الشرع أتى بغير ذلك ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [٢] و ﴿ **إِلاَّ مَا آتَاهَا** ﴾ [٣] ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)** ﴾ [٤] .

كما أن من تسلط عليه الشيطان لا أمل له فى إيمان أو طاعة ، إذ أن تسلط الشيطان عليه مانع له ومؤثر على قواه العقلية والوجدانية فكيف يؤمن ؟!..

كما أن من قال الدعاء عند لقائه بزوجته سلم وسلمت ذريته ، والمشاهد أن كثيراً من أبناء الصالحين ليسوا كذلك . فكيف يمكن التوفيق بين الحديث والواقع ؟!..

ثم إن التسلط يتعارض مع العدل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)** ﴾ [٥] ، ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)** ﴾ [٦] فبين ، تعالى ، أن ظلم الإنسان راجع له هو ومن دخيلة نفسه .

---

(١) البخارى ٦ / ٣٨٨ حديث ٣٢٨٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٣) سورة الطلاق : ٧ .

(٤) سورة المدثر ٣٨ .

(٥) سورة يونس ٤٤ .

(٦) سورة النساء : ١١٠ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ، ﷺ قال : « **أما إن أحدكم إذا أتى أهله وقال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا ، فرزقا ولداً ، لم يضره الشيطان** »[1] .

ذكر الحافظ بن حجر حول ذلك الضرر المنفى على التأبيد فى الحديث أن العلماء اختلفوا هل هو على الظاهر منه أم أن المقصود ذلك الضرر الذى جاء فى الحديث : إن كل بنى آدم يطعن الشيطان فى بطنه حين يولد إلا من استثنى ؟!!

أما المعنى المقصود فى قوله « **لم يضره الشيطان** » أنه لا يسلط عليه من أجل بركة التسمية ، بل يكون من جملة العباد الذين قيل فيهم ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾[2] .. ونفى سلطان الشيطان على جنس الإنسان وليس على من كان صالحاً منهم فحسب ، غير أن من أراد الغواية واتباع الشيطان فهو له ، ولن يمنعه الحفظ من أن يختار ما أراد لنفسه .

أما أن يكون المراد أن لا يضره بطعنه فى بطنه حين مولده ، فهوتخصيص من غير مخصص .. وليس تخصيصه بأولى من تخصيص هذا » ..

وقال البعض : المراد لم يصرعه أو لم يضره فى بدنه ، وقال **ابن دقيق العيد** : يحتمل أن لا يضره فى دينه أيضاً . ولكن هل هذا يعنى العصمة لمن لا عصمة له ؟!.. ولذلك ذهب البعض أن لا يفتنه عن دينه ، فيكفر ، أما المعاصى فلا عصمة له منها .. ويرد عليهم بأن الذى يعصمه من الكفر يعصمه مما هو دونه !

أما من قال بأنه لا يضره بأن يشارك أبيه فى جماع أمه ، ويؤيد مقالته بحديث مجاهد : « **أن الذى يجامع ولا يسمى يلتف الشيطان على إحليله فيجامع معه** » فقد رأى الحافظ أن ذلك أقرب للصواب ، وهذا كلام يأباه الشرع والعقل ؛ ومعتقد ذلك جامع بين الشئ ونقيضه ، إذ إن طبيعة الإنسان تخالف طبيعة الجان ، فهذا خلقه الله من طين ، وهؤلاء خلقهم الله من نار السموم ، فكيف تجامع النار الطين أو العكس ؛ والطبيعة مختلفة فهل يجامع الجنى الإنسية دون أن تشعر أو

---

(١) البخارى ، ٦ / ٣٨٦ الحديث رقم ٣٢٧١ . وكذلك ٩ / ١٣٦ كتاب النكاح باب ما يقول الرجل إذا اتى اهله حديث رقم ٥١٦٥ . ومسلم فى كتاب النكاح ،حديث (٦) ، وابن ماجه ، حديث ١٩١٩ ، وكذلك عند الترمذى وابى داود ، ٢١٦٠ ، واحمد ، والطياسى ، ح ٢٧٠٥ .

تحس به .. ومن قال لهؤلاء ان للشيطان خلقة وتكويناً كخلقة الإنسان وتكوينه .. أو أن له شهوة ولذة ورغبة فى النكاح كالإنسان .. ولا يوجد نص يدل على ذلك؟!

فهل شاهد أحد من هؤلاء الشيطان وهو يلتف على إحليل الإنسى ثم يجامع معه زوجته ؛ أو زوجة غيره ؟!.. ولا يشهد أحد ذو دين بذلك .. كما أنه يعنى أن أغلب بنى آدم أولاد شياطين !

وحول طبيعة إبليس سنلقى الضوء على بعض آراء الأصوليين ولن نتدخل بتعليق ، لكفاية ما ذكرنا فى رد ما لا يعقل من آراء تصطدم بالدين وأسس العقيدة .

وأول هذه الآراء هو اختلافهم حول مدى قدرات الشيطان فى تحمل ما لا يطيق البشرحمله من أعباء وتكليف وتصرفات خارجة عن طاقة الإنسان .

(١) فقال قوم : جائز ذلك ، وأن يحمل الأشياء الكثيرة .

(٢) وأنكر فريق ذلك ، وأرجعوا رفضهم إلى أنه يبطل دلائل الرسل ، وهومقال مشهور للجبائى من المعتزلة [١] وهو رأى صحيح وله اعتباره .

وثانى هذه الآراء هو هل يجوز أن يتقلب الشياطين عن صورها؟

(١) أجاز ذلك فريق من المتكلمين .

(٢) ومنعه فريق آخر [٢] .

وللفريق الأول رأيه الذى يدافع عنه وهو عقلاً لا مانع منه ، أما الثانى فقد استقرأ النص ، فلما لم يجد دليلاً على الجواز قطع بالمنع ، وهو أكثر حرصاً على ضبط القضايا السمعية بمراعاة أصولها ودلائلها وهو قول رشيد .

* * *

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ٢ / ١١١ .

(٢) الأشعرى : المقالات ، ٢ / ١١١ .

الفصل الثالث

وهم لابد منه

١- الشيطان والصلاة .

٢- الشيطان وصلاة الرسول ﷺ .

٣- الشيطان والالتفات فى الصلاة .

٤- المار شيطان

الفصل الثالث

وهم لابد من رده

أن تتصور أن الشيطان يخطر للإنسان المسلم فى صلاته ، وانه يعرض لرسول الله فى صلاته ، ويختلس من المسلم فى صلاته فيجعله يلتفت أو أنه يحاول أن يمر بين يدى المصلى .. أقول إن تصورك كل ذلك حقيقة وليس مجازاً .. مع إيمانك بالله الواحد وصفاته وأسمائه الحسنى وكتابه وما جاء فيه .. هوجمع بين المتناقضات .. وإسقاط لبديهيات العقول ومكابرة لا حد لها ..

إلى أين يهرب المسلم من الشيطان إذا كان يخترق أجلَّ وأعظم العبادات ويعبث بنا ونحن بين يدى الله فى الصلاة ؟!.. إنك أنت الذى توسوس نفسك .. فتدخل الصلاة ومعك هواك وخواطرك وشغلك بالدنيا وشهواتها وتستسلم لشلال مغرق من الوهم والخيال الذى يداعبك طوال الصلاة .. وكأنك تستدعيه لساعة الإخلاص والتوجه .. فتصير بجسدك وروحك مع وساوسك وخيالك السارح فى الآفاق .. أنت نحو قبلة ربك متجه .. وقلبك نحو هواك متجه .. وهذا ما فعله إبليس.. أراد أن يعبد الإنسان الله ويطيعه على شرطه هو لا على شرط ربه .. أراد هواه وربه فأسلمه الله لنفسه فهوى.. وأنت تفعل كفعله وتستسلم لشريك هو نفسك .. فهلا أسلمت لله وحده.. وتوجهت روحاً وجسداً له !.

هنا يكون خلاصك من الخواطر والوساوس .. فأنت مطارد من داخلك وخلاصك من داخلك .. فاقرأ القرآن بقلبك لا بلسانك .. واجمع أمرك ولا تشتته .. فشيطانك نفسك وهواك وما توزعك من الملذات والشواغل .. فأقلل من دنياك وأكثر من دينك .. واستحضر ربك واستر نفسك تتحقق لك الطمانينة والسكينة بإذن الله.

وشبيه بذلك الاعتقاد بأن الأمة قد دخلت نفقاً من التخلف والتبعية والتشرذم ولا فكاك لها منه أبد الدهر ، وأنه قدر قدرهُ الله عليها ، فأمريكا سيدة العالم ونحن عبيدها ، وعلى رقبتنا وضع سيف الديون الخارجية من صندوق النقد الدولى (الاستعمارى) والسوق الواحدة – الجات ، والمنظمة الدولية للسوق المشتركة بعد

ذلك – والعولمة، وتحكم الشركات متعددة الجنسيات فى مقدراتنا الاقتصادية بتدويل الخصخصة .. وهذا وهم وخطأ فادح ، فقدر الله وقضاؤه لا يعلمه إلا الله .. وأمريكا ليست شيئاً يذكر ، ولا يعنى كونها المهيمنة والحفيظة على مقدرات العالم ، والقائمة بدور المرشد والموجه له لا يعنى شئ ؛ فذلك القطب الواحد لا يتفق مع سنة الله فى الكون ، وانهيار روسيا وتبعية أوربا لأمريكا وحلف الأطلنطى شئ غير طبيعى وشاذ ومؤقت ؛ ولذلك علينا نبذ وهم الشيطان الأكبر وعدم الخضوع لمخططاته فى المنطقة.. فما أحدثته فى أمريكا اللاتينية من مؤامرات وتبعية وإذلال لدولها ليس يخفي ، من نيكارجوا إلى شيلى ، ومن كوبا حتى البرازيل .. وعلينا أن نعتبر بصمود الصومال ، ذلك البلد العارى الفقيرة الموارد كيف أبى تدخل أمريكا فى شأنها الداخلى .. وكيف هزت إيران كبرياء ذلك الشيطان .

إن ما أحدثته الدول الاستعمارية فى القرن الماضى لا ينسى ، ولا ينبغى له أن ينسى ، فقد دخلت أوربا حربين عالميتين وحاربت تحت شعار « سنحارب حتى آخر جندى فى مستعمراتنا » !.. وإذلال هتلر للحلفاء ومحاولته السيطرة على العالم بإيحاء من فلسفة نتشه وهولمز العنصرية ، وتضخم الأنا وتجاهل الآخر حتى دمر نفسه وشعبه ، هو تصرف شيطانى بحت.

متى نتعلم أن الشيطان أهون من أن نخافه ، وإن كان علينا الحذر منه ومحاربته .. متى نثور لكرامتنا العربية الجريحة فى لبنان على يد اليهود وفى العراق .. من قال أن سبعة عشرمليون عراقياً رهانى القصف الأمريكى وطائرات قوات التحالف لعشر سنوات متصلة .. هل نزعت الرحمة من قلوبنا .. هل ماتت ضمائرنا .. هل بعناها مع كل ما بعنا من أشياء غالية ؟!.

* * *

١- الشيطان والصلاة

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ : **«إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط ، فإذا قضى أقبل ، فإذا ثُوِّب بها أدبر ، فإذا قُضى أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول : أذكر كذا وكذا ، حتى لايدرى أثلاثاً صلى أم أربعاً ، فإذا لم يدر ثلاثاً صلى أو أربعاً سجد سجدتى السهو»** (١) .

وفى الحديث بيان أن الشيطان يفر عند سماع النداء بالصلاة وله ضراط وكذلك يفر عند الإقامة ، أما والمسلمون فى الصلاة يقبل عليهم بخواطره ووساوسه ، فيتدخل بين عقل الإنسان وقلبه فيشغله عن ذكر ربه والصلاة ، فيفقد المسلم السيطرة على إدراك عدد الركعات التى أدَّها أو التى لم يؤدها بعد . .

وهذا الحديث إما أن يحمل على ظاهره ، وهومحال لتعارضه مع القرآن الكريم واللغة وأساسيات التوحيد والعدل ؛ فخواطر الشيطان التى يقذفها فى قلب الإنسان ووسوسته له ، تعنى أن للشيطان قدرات هائلة تساويه بخالقه ، عز وجل عن هذا الكفر والشرك البيِّن . .

كما أنه يتعارض مع حقيقة التكليف والعدل الإلهى ، أن يسلط عدوه على وليه فى أخص لحظات العبادة وهو الصلاة ، فلا يبقى له اختياراً فهو إذن مجبور جبراً على السهو والخطأ بفعل غيره ، وهو الشيطان ، ثم كيف يخطر للإنسان دون أن يشعر الإنسان بذلك عن طريق حاسة من الحواس ! . .

وكذلك الكلام إن قالوا إنه من شياطين الإنس ؛ لأن المشاهد أنهم لا يوسوسون لنا فى الصلاة ،أما من قال إن له منقاراً يصل به إلى قلب الإنسان من أذنيه ، فهو لغو باطل وهراء لا يقبله إلاالحمقى .

والصواب أن معنى هذا الحديث هو كناية عن خواطر النفس ووساوسها للإنسان فتلهيه عن الصفاء والطمانينة فى الصلاة ، وهو جائز ، أما القول بشيطان يفعل ذلك على الحقيقة من الجن أو الإنس فهو محال ، ثم كيف يدخل الشيطان إلى أماكن

---

(١) الفتح ٦ / ٣٨٨ ، حديث رقم ٣٢٨٥ .

الطهارة والعبادة ، على عباد الله المتطهرين ، فى عبادة هى ذكر خالص لله ، تعالى ، فيوسوسهم .. أليس ذلك ناقضاً لما قالته المجبرة وسائر طوائف المسلمين من قبل أن الذكر والقرآن والطهارة حرز من الشيطان، والصلاة جامعة لها ؟!

أولا يتعارض ذلك مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [1] .

إن المشكلة ليست فيمن وضع قانوناً للتأويل والفهم ، ومعايير وضوابط لقبول الرواية أو طرحها زائدة على كونها صحيحة من ناحية السند ؛ المشكلة الحقيقية فى طائفة تأخذ الكلام على ظاهره ، وتجريه كما هو ، فتفقد القرآن مصداقيته والفكر الإسلامى أهم حقائقه ، وهو توحيد الله الواحد القادر ، الذى لا شريك له من إنس أو جان أو غيرهما من المخلوقات ؛ فالله ، تعالى عن ذلك ، لم يجعل لإبليس سلطاناً مساوياً لسلطانه وقدرات حرم منها أوليائه للتصرف فى الكون، وفى مقادير الأمور وقلوب أوليائه على وجه الخصوص ليفتنهم ، ولو فعل ذلك لكان إبليس فى تسلطه ووسوسته مطيعاً لربه ، يستحق الثواب والمكافأة ، وكان الله ظالماً لعباده ! . .

تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وقد اختلف المتكلمون الإسلاميون حول شر وسواس الشيطان ، كيف يوسوس؟

(١) **فقال فريق منهم** : إنهم يوسوسون ، وقد يجوز أن يكون الله ، تعالى ، جعل الجو أداةً لهم ، أو جعل لهم أداة ما غير الجو ، وذلك متصل بالقلب ، فيحرك الشيطان تلك الآلة من جهة بعض خروق الإنسان فيوصل الوسوسة إلى قلبه بتلك الآلة ، مثال ذلك أنك تأخذ الرمح وبينك وبين الإنسان عشرة أذرع ، فتكلم فيه فيسمع الإنسان إذا كان الرمح مجوَّفاً ، وكان متصلاً بسمعه [2] .

ولا خلاف فى أن إمكانية الاتصال معقولة ولا يشك فيها أحد ، وتطور وسائل الاتصال فى عصرنا تطوراً مذهلاً يساعدنا على استيعاب إمكانية وسوسة الشيطان الجنى للإنسان من طرف خفى ، غيرأن الخلاف فى هل

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٢) الأشعرى ؛ مقالات الإسلاميين ، ٢ / ١٠٩ .

يصل ذلك إلى القلب والعقل ويتغلغل فى النفس والخواطر ويتطرق إلى الرؤى والفكرام لا ؟!.. ويساعدنا أن كل ذلك من قبيل الحسيات التى يمكن إدراكها أو عقلها .

(٢) **الفريق الثانى**: قال بأن جسم الشيطان أرقُّ من أجسامنا ، وكلامه أخفى من كلامنا ؛ فيجوز أن يصل إلى سمع الإنسان فيتكلم بكلامه الخفىِّ ، فيكون ذلك هو وسوسته .

وهذا الرأى يعترض عليه باختلاف القابل والماهية ، مما يعنى عدم استقبال أحدهما عن الآخر ، وإن أمكن ذلك من الشيطان للإنسان فهلا أدركه الإنسان وتجاوب معه .. أم أن النتائج مقدمة على الوسائل والرسالة تصل مشفرة دون أى حامل لها ؟! [١]

(٣) **وقال فريق ثالث** : قال بل يدخل إلى قلب الإنسان [٢] . بنفسه حتى يوسوس فيه .

وهذا الفريق لا يبالى باعتراض المعترضين ولا شغب الخصوم ؛ وآراؤه وأفكاره سابقة على العقل والنص معاً ؛ ويأتى بعد ذلك فيبحث فيهما عما يؤيد آراؤه . وهم أصحاب الطبع أومن يؤيد الأسطورة والخرافة ويؤثر الفكر السلفى أياً كانت قيمته وأهميته ، فتقليد الآباء ومتابعة الأجداد أمر يلزمهم تماماً .

ينبغى بعد ذلك معرفة رأى الكلاميين فى قضية علم الشيطان لما فى القلوب ، حيث يذكر الأشعرى فى مقالاته أنهم اختلفوا حول : هل يعلم الشيطان ما فى القلوب أم لا؟ على ثلاث مقالات :

(١) فقال إبراهيم ومعمر وهشام ومن اتبعهم : إن الشياطين يعلمون ما يحدث فى القلوب ، وليس ذلك بعجيب ؛ لأن الله ، عز وجل ، قد جعل عليه دليلاً ؛ ومحال أن يدخل الشيطان قلبَ الإنسان .

---

(١) المصدر السابق ، ٢ / ١٠٩ .

(٢) السابق ، الصفحة نفسها .

مثال ذلك أن تشير إلى الرجل : أقبِل – أو أدبِر . فيعلم ما تريد ، وكذلك إذا فعل فعلا عرف الشيطان كيف ذلك الفعل ، فإذا حدَّث نفسه بالصدقة والبرِّ عرف ذلك الشيطان بالدليل فنهى الإنسان ، عنه ، هكذا حكى « زرقان » [١] .

وهذا الرأى يتفق مع العقل من حيث كونه يحمل أشارات وأمارات ودلالات على معرفة الشيطان لتصرفات الإنسان الحركية والقلبية من حركاته .

(٢) **فريق آخر من المتكلمين** من المعتزلة وغيرهم رأى أن الشيطان لا يمكنه معرفة ما فى قلب الإنسان ؛ فإذا حدَّث الإنسانُ نفسه بصدقة أو بشئ من أفعال البرِّ نهاه الشيطان عن ذلك ، على الظن والتخمين » . [٢]

وهذا الرأى يلاحظ اتفاق ما ينهجه فى هذه المسأله مع أصول الدين وآيات القرآن الحكيم قال تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾ [٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [٥] .

ولا يوجد فى كتاب الله آية تصرح أو تلميح على أن الشيطان يعلم سرائر النفوس وخبايا القلوب .

(٣) **وقال فريق ثالث** : إن الشيطان يدخل فى قلب الإنسان فيعرف ما يريد بقلبه [٦] .

وهذا الرأى هو ما نعارضه بشدة فى كتابنا ، وحسبنا من تهافته تعارضه مع الشرع والعقل ولا يحظى بالقبول سوى فى الأوساط الساذجة ، والتى طرحت العقل وراءها ؛ وتبنت الخرافة بشدة .

* * *

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ٢ / ١١٠ .

(٢) المقالات ٢ / ١١٠ .

(٣) سورة الملك آية ١٣ .

(٤) سورة يس آية ٧٦ .

(٥) سورة الأنعام آية ٣ .

(٦) السابق ، الصفحة نفسها .

٢- الشيطان وصلاة الرسول، ﷺ

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه : «**عن النبى ﷺ أنه صلى صلاة فقال : إن الشيطان عرض لى فشدَّ علىَّ يقطع الصلاة علىَّ ، فأمكننى الله منه .. فذكره**» [١] .

كما ذكره البخارى بتمامه فى كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى (ص : ٣٠) : ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾** ﴾ .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : «**إن عفريتاً من الجن تفلَّت البارحة ليقطع علىَّ صلاتى ، فأمكننى الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ﴾** [٢] سورة ص ٣٥ . **فرددته خاسئاً**» [٣] .

قال الحافظ قوله ﴿ **فذكرت دعوة أخى سليمان** ﴾ أى قوله ﴿ **هَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي** ﴾ (سورة ص ٣٥) ، وفى هذه إشارة إلى أنه تركه رعاية لسليمان عليه السلام ، ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان استخدام الجن فى جميع ما يريده لا فى هذا القدر فقط ..

وهذه العبارة الأخيرة غير مفهومة فقد بين النبى ﷺ أنه ترك هذا الجنى رعاية لأخيه سليمان ، وكان قادراً على أن يربطه ولم يفعل .. ثم يظهر من كلام الحافظ أن خصوصية سليمان باستخدام الجن منعت النبى ﷺ من ذلك ، فاى خصوصية هذه ، والنبى يقرر أنه رغب فى ربطه ، أى أنه كان قادراً على ذلك ؟!

ثم ذكر الحافظ كلاماً للخطابى ، صاحب المعالم والمتكلم الأشعرى المعروف ، يفيد إمكانية رؤية الجن، استدل الخطابى بهذا الحديث على أن أصحاب سليمان كانوا يرون الجن فى أشكالهم وهيئتهم حال تصرفهم ، قال : وأما قوله تعالى ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ فالمراد الأكثر الأغلب من أحوال بنى آدم ، وتعقب بأن نفى رؤية الإنس للجن على هيئتهم ليس بقاطع من الآية ، بل ظاهرها أنه ممكن ؛ فإن نفى

---

(١) البخارى ٦ / ٣٨٨ ، حديث رقم ٣٢٨٤ ، ٣ / ٩٨ .

(٢) جاء فى الفتح ٦ / ٥٢٧ خطأ بين فى المطبوعة ﴿ رب هب لى .. ﴾ والصحيح ما اثبتناه ، وهو خطأ مطبعى لا غير .

(٣) الفتح ٦ / ٥٢٧ .

رؤيتنا إياهم مقيد بحال رؤيتهم لنا ، ولا ينفى إمكان رؤيتنا لهم فى غير تلك الحالة .

وهذا كلام غير مفهوم ورد لكتاب الله بلا مبرر واضح ، غير أنه تصور أن فى الحديث ما يدل على رؤيتهم ولذلك يذكر الحافظ رأى أكثر العلماء بأن نفى الرؤية فى الآية على العموم ، ومن قال بغير ذلك فهو مخطئ : « ويحتمل العموم ، وهذا الذى فهمه أكثر العلماء متى قال الشافعى : من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته . واستدل بهذه الآية [1] .

ورحم الله الشافعى كان نوراً يهتدى بعلمه واجتهاده ونظره .

وقد تطرق إلى هذه المسألة الأصوليين : هل يرى الإنسان الشياطين فى الدنيا أم لا ؟

(١) **فقال فريق** : لا يجوز ؛ إلا أن يريهم الله ، سبحانه ، نبياً ، أو يجعل رؤيتهم علماً ودليلاً على نبوة نبى ، وقد يقدر الله ، سبحانه ، أن يُرى عباده الملائكة والشياطين من غير أن يقلب خلقهم ، وقد يرى الإنسان الملائكة فى حال المعاينة .

(٢) **وقال فريق آخر** : لا يجوز أن يُروا بحالٍ ، إلا أن يقلب الله خلقهم ويُخرجهم عما هم عليه .

(٣) **وقال فريق ثالث** : أنه يجوز أن يُروا فى الدنيا من غير أن يقلب الله خلقهم ، ومن غير أن يجعل ذلك دليلاً على نبوة نبى .

(٤) **أما الفريق الرابع** : فقد أنكر الجن والشياطين ، ونفى وجودهم على الأرض ، وأثبت وجود الإنسان وحده [2] .

فأى هذه الآراء أقرب إلى قلبك وعقلك ، أو ليس ما جاء فى كتاب الله واتفق مع أصول العقيدة ومناهج التوحيد ؟!!

ويقول أحد العلماء النفسانيين : أما الشياطين فهم أرواح غيرمنظورة ، ولا يمكن

---

(١) الفتح ٦ / ٥٢٠ .

(٢) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ٢ / ١١٤

الاستدلال عليها بالحواس وهى ترانا من حيث لا نراها ، قال الله ، تعالى ، محذراً من الشيطان الأكبر إبليس وفئته : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) . والشيطان من خليقته الآذى والكبرياء وإلحاق الضرر بالإنسان بدون سبب أو معرفة سوى دوافع الحقد والمقت ؛ لأنه يعتبر الإنسان عدوه المبين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦ ﴾(٢) فهو ماكر محتال وسياسى ما هر فى إضلال الإنسان .

وللشيطان مع النفس الغريزية تحالف وانسجام ، وهى ما نسميه لمة الشيطان فى مقابل الملك فى النفس العليا ، وكثيراً ما تحاول الأولى خداع الثانية فتخدعها، بإقامة المبررات على قبول الرزيلة أو الفن الردئ والفواحش التى تطير فى الهواء عن طريق الشاشة الفضية أو البيضاء أوالمسرح ؛ فالقائم بها حليف للشيطان والمستقبل لها كذلك .

والحل فى الدعوة إلى فن جميل يدعو للفضيل والجمال ، وهادف يدعو إلى إصلاح المجتمع وتقويم الأخلاق ويتبنى القيم العليا للإنسان .. إن من وراء الفن الهابط شياطين الإنس والجن ، ومن ورائهم هوليود سينما العرى والعنف والطلقات ، ولا غرابة أن تقوم حضارة الغرب على الطلقة والقبلة الفاحشة والليلة الساخنة ، أما نحن فحضارتنا قامت على نقيض ذلك تماماً ؛ فدعت للخير والحق والفضيلة والعدالة الاجتماعية واحترام الإنسان والحفاظ على آدميته وصيانة الحقوق وأداء الواجبات ، والفن الجميل الراقى ، الذى يسمو بالإنسان ويغذى عقله وروحه .

لقد تحالف الغرب مع الشيطان فأخرج له مدنية منكرة ومشوهة الوجه والفعال ، فيوم أن نهض دعا إلى المادية والنفعية والبرجماتية ، ونبذ الإنسان والقيم العليا وداس على كل شئ فاستعمر وقهر غيره من البشر ؛ وأشاع العنصرية وجعل من حقه استعمار الآخرين واستغلال مقدراته وخيراته ؛ وتبنى الرأسمالية الفاحشة التى لاترعى سوى الحفنة المالكة المستغلة على حساب الجماهير الفقيرة المعدمة ؛ وعلى النقيض من ذلك تبنى الشيوعية فى أسوأ صورها ، فأشاع الديكتاتورية فأهلك الإنسان من

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٧ .

(٢) سورة فاطر آية ٦ .

أجل الوصول إلى الهدف الأسمى ، ووزع الفقر بدلاً من أدوات الإنتاج ، وأهلك الحرث والنسل وخلف البلاد من ورائه خراباً .

أما الديكتاتورية والديمقراطية فعنده سواء طالما حمت الأغنياء وأموالهم وأرضهم، وحافظت على تفوقهم ، وطبقت كلا السياستين تطبيقاً مجحفاً فى العالم الثالث ، بنفسها أو عن طريق عملائها ، أو ليس بعد ذلك يحق لنا أن نسميهم حلفاء الشيطان ؟!

لقد وظف الغرب العلم من أجل الحرب أكثر من توظيفه للسلام، وجرب فى العالم الفقير جميع أنواع الأسلحة ، وأنبت فى كل أرض خراباً ، وصنائع له يشترون ما ينتجه من سلاح ، لتزداد مديونية الدول الفقيرة ويوجه السلاح إلى صدورهم وقهرهم به ، ويزداد الغرب تخمة ، وجبال السمن والزبد إرتفاعاً !

ففى الوقت الذى يرمى الغرب القمح فى البحر ؛ ليحافظ على أسعاره العالمية تحت مسمى قيم السوق ، يموت كل يوم أكثرمن ٢٥٠ ألف طفل فى العالم الثالث ، تحت وطئه الجوع والظروف السيئة !..

إنه لا يفعل ذلك إنسان أبداً ، بل شيطان رجيم يحق لنا حربه بكل ما نملك . فلا فرق بين استعمار يحتل أرضنا عسكرياً ، واستعمار يحتل أرضنا اقتصادياً أو يمارس علينا شتى الضغوط السياسية لنقبل سلاماً غير متوازن بالمرة ، تحت التهديد النووى أو يصنع بديلا لمفهوم السلام ، فبدلاً من أن تكون الأرض مقابل السلام .. يتحول إلى الأمن مقابل السلام .. وأكيد يقصدون أمننا نحن فى أرضنا ، فمن يقبل بهذا ؟!..

* * *

٣ - الشيطان والالتفات فى الصلاة

عن عائشة رضى الله عنها . سألت النبى ﷺ عن التفات الرجل فى الصلاة . فقال : «هو اختلاس يختلس الشيطان من صلاة أحدكم» [١] .

قال الحافظ ابن حجر : قوله ﴿هو اختلاس﴾ أى اختطاف بسرعة ، ووقع فى «النهاية» : والاختلاس افتعال من الخلسة وهى ما يؤخذ سلباً مكابرة ، وفيه نظر . . أى أنه رد هذا المعنى ، ثم قال غيره : المختلس الذى يخطف من غير غلبة ويهرب ولو مع معاينة المالك له والناهب ياخذ بقوة ، والسارق ياخذ فى خفية .

فلما كان الشيطان قد يشغل المصلى عن صلاته بالالتفات إلى شئ ما بغير حجة يقيمها أشبه المختلس . وقال ابن بزيزة : أضيف إلى الشيطان؛ لأن فيه إنقطاعاً من ملاحظة التوجه إلى الحق سبحانه .

وقال الطيبى : سمى اختلاساً تصويراً لقبح تلك الفعلة بالمختلس ؛ لأن المصلى يقبل عليه الرب ، سبحانه وتعالى ، والشيطان مرتصد له ينتظر فوات ذلك عليه، فإذا التفت اغتنم الشيطان الفرصة فسلبه تلك الحالة . . ثم قال : وكان المصنف أشار إلى أن علة كراهة الإلتفات كونه يؤثر فى الخشوع - كما وقع فى قصة الخميصة - ويحتمل أن يكون أراد أن ما لا يستطاع دفعه معفو عنه ، لأن لمح العين يغلب الإنسان، ولهذا لم يُعد النبى ﷺ تلك الصلاة [٢] .

وهو من قبيل التصوير والكناية وليس على حقيقته لتعارضه مع قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [٣] . . ولأن المصلى فى عبادة فيها الذكر والقرآن وهو على طهارة ، وهى الشروط التى اشترطها المحدثون من قبل فى حديثهم عن الظروف التى يحفظ الله بها الإنسان من وساوس الشيطان ويقيه منه بها . . فلزم مما سبق إما نقضهم لكلامهم السابق فى التفسير سابقاً للإستعاذة أو آيات الكتاب الحكيم ، أو بطلان تاويلهم .

---

(١) البخارى ٦ / ٣٩٠ حديث ٣٢٩١ ، وكذلك ٢ / ٢٧٣ حديث ٧٥١ .
(٢) الفتح ٢ / ٢٧٥ .
(٣) سورة الإسراء آية ٦٥

وقد أحسن البغوى حين قال : إن النهى عن ذلك لا يدرك معناه ؛ وجعله من قبيل التعبد الذى يجب الإيمان به [١] .

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② ﴾ [٢] ، فقد حث الله ، تعالى ، المؤمنين على الخشوع ، روى أن النبى ﷺ كان يصلى رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده .

وكان الرجل من العلماء إذا قام إلي الصلاة ، هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شئ ، أو يحدّث نفسه بشأن من شأن الدنيا . وقيل : هو جمع الهمة لها ، والإعراض عما سواها .

ومن الخشوع : أن يستعمل الآداب ، فيتوقى كفّ الثوب ، والعبث بجسده وثيابه، والالتفات ، والتمطى ، والتثاؤب ، والتغميض ، وتغطيه الفم ، والسدل ، والفرقعة ، والتشبيك ، والاختصار ، وتقليب الحصا .

روى عن النبى ﷺ ، أنه أبصر رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : « لو خشع قلبه خشعت جوارحه » [٣] .

ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا ، وهو يقول : اللهم زوجنى العين ، فقال : بئس الخاطب أنت ! تخطب وأنت تعبث . فإن قلت : لم أضيفت الصلاة إليهم ، قلت : لأن الصلاة دائرة بين المصلى والمصلى له ، فالمصلى هو المنتفع بها وحده ، وهى عدّته وذخيرته فهى صلاته . وأما المصلى له ، فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها [٤] .

***

---

(١) الفتح ؛ ٢ / ٧٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية ١ ، ٢ .

(٣) أخرجه الترمذى ، والسيوطى ؛ الجامع الصغير ؛ ٢ / ١٣٠ .

(٤) الزمخشرى : الكشاف ؛ ٣ / ١٧٥ .

٤- المار شيطان

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال النبى ﷺ : **«إذا مر بين يدى أحدكم شئ وهو يصلى فليمنعه ؛ فإن أبى فليمنعه ، فإن أبى فليقاتله ، فإنما هو شيطان »** [١] .

علل الحافظ قوله ﷺ على من أراد المرور بين يدى المصلى بأنه شيطان ؛ بأن فعله فعل الشيطان ؛ لأنه أبى إلا التشويش على المصلى . وإطلاق الشيطان على المارد من الإنس سائغ شائع ، وقد جاء فى القرآن قوله تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ [٢] . وقال ابن بطال : فى هذا الحديث جواز إطلاق لفظ الشيطان على من يفتن فى الدين ، وأن الحكم للمعانى دون الأسماء ؛ لاستحالة أن يصير المار شيطاناً بمجرد مروره . انتهى .

وهو مبنى على أن لفظ « الشيطان » يطلق حقيقة على الجنى ومجازاً على الإنسى . وقال آخرون إنه يجوز أن يكون معه شيطان ، وفى رواية مسلم « فإن معه قرين » .. وفى رواية للبخارى « فإنما معه شيطان » .

والمقصود بالمقاتلة المدافعة اللطيفة لا حقيقة القتال ؛ لأن مقاتلة الشيطان إنما هى بالاستعاذة والتستر عنه بالتسمية ونحوها ، وإنما جاز الفعل اليسير فى الصلاة للضرورة، فلو قاتله حقيقة المقاتلة ، لكان أشد على صلاته من المار [٤] .. وهذا من أحسن ما ذكر الحافظ ابن حجر على لسان العلماء فى تفسير معنى الشيطان فى هذا الحديث .. وتأكيده على أن هناك من الإنس شياطين ، أى يفعلون فعل الشياطين يبين أن هناك دوافع داخلية تحرك الفعل الشرير هى نوازع وشهوات وميول .. إذن فلا عجب من أن يكون شيطان الإنسان هو هواه .. فالمار بين يدى المصلى فى الغالب مصلى مثله إلا أن الهوى والعناد دفعاه إلى الإصرار على المرور بين يدى أخيه الذى يصلى دون العبور من طريق آخر ؛ ولذا جاز دفعه دون أن يبلغ الأمر حد العنف .. فالمقصود بالمقاتلة مجرد الدفع الخفيف ، حتى ينثنى عن فعله الخاطئ ويتحول بعيداً عنه .

---

(١) الفتح ؛ ٢ / ٧٢ .

(٢) الفتح ؛ ٦ / ٣٨٦ . حديث رقم ٣٢٧٤ ، وكذلك ١ / ٦٩٣ حديث رقم ٥٠٩ .

(٣) سورة الأنعام آية ١١٢ .

(٤) الفتح ؛ ١ / ٦٥٥ .

الفصل الرابع

ليس لإبليس سلطان على الحياة

١- الشياطين فى رمضان .

٢- صدقك وهو كذوب .

٣- وصاح إبليس فى أحد .

٤- إبليس والليل .

٥- إبليس والنسيان .

٦- إبليس والفتنة .

٧- إبليس والوسوسة .

٨- معرفة أسرار النفس عند الغزالى .

٩- كيف تحدث الخواطر المختلفة ؟

الفصل الرابع

ليس لإبليس سلطان على الحياة

رأينا فى الفصل السابق أن تدخل الشيطان فى عبادة المسلمين الكبرى ، وهى الصلاة ، مجرد وهم ، وكناية عن صراع الإنسان لملذاته وشهواته وميوله ونوازعه ، أى أهواؤه النفسية .. أما إنه يأتى فيخطر للمسلم فى الصلاة على وجه الحقيقة ويقذف فى قلبه أفكاراً تشغله عن صلاته فهذا لا يحدث أبداً .. لا من شيطان الجن ولا شيطان الإنس.. وإلا لأدركنا ذلك عن طريق الحواس والعقل .. والتسليم بذلك على حقيقته يدخلنا فى حساب آخر .. يجعل من المسلم مجرد بقايا حطام متداع ، لا قدرة له على بناء الحياة والجهاد فى سبيل الله .. إذ إنه يؤتى فى مواضع الشرف والعز، ولا يستطيع دفع هذا الشيطان عن نفسه .. فكيف يجهاد دولة الشيطان وهو معها بجنوده ونفسه وعتاده ، الذى لا ندرى حجم قوته .

المهم على المسلم أن يتيقن أن إبليس ليس له سلطان على الزمان أو المكان أو النفس.. وأن الله قد حفظ دينه وله الملك وحده على الأكوان والمخلوقات لا شريك له فى ذلك ولاند .. وما سنعرضه فى هذا الفصل من أحاديث فى ضوء ما ذكرنا .

فما دلالة أن تصفد الشياطين فى رمضان وأن تطلق فيما عداه ، وماذا قصد الرسول، ﷺ ، بقوله لأبى هريرة عن ذلك الشيطان الذى أتاه « صدقك وهو كذوب »؟! وكيف يمكن قبول صدق الكذوب وجعله ديناً نتعبد به لرب العالمين ، وأن يعلم ذلك الكذوب ما لا يعلمه الرسول الرحمة ﷺ عن آية الكرسى ؟!

ثم يأتى بعد ذلك الحديث عن دور إبليس فى غزوة بدر ، وكيف أغرى الكفار حتى وقع منهم ما وقع ، فتجنبهم وفرَّ هارباً . فهل كان ذلك منه وقوعاً ، أم من شيطان الإنس أبى جهل حقيقة ؟!

وبما أن إبليس شيطان مارد لعين يبغض النور ويحب الظلمة ، التى يظهر فيها هو وذريته ليمارسوا بغيهم وعدوانهم ، فكيف نحذره بالليل وحين دخول الظلمة ؟!.. أخبرنا بذلك رسول الله ، ﷺ ، الصادق الأمين .

ولكن هل يستطيع إبليس التدخل فى الذاكرة حقيقة ، وأن ينسى بنى آدم بعض

معارفهم ويمحوها كأنها لم تكن ، أم أنه على سبيل المجاز اللغوى ؟.. ثم ما دوره فى الفتنة، وكيف يوسوس للإنسان ؟!.. هذا ما سنجيب عنه فى هذا الفصل .

وعلى القارئ أن يربط بصفة مستمرة بين ما سبق وما سيأتى ، من أوصاف وأدوار وأحوال يعيشها الشيطان ، وأن يسقط بعضها على أفعال الإنسان، فسيجد أن كثيراً من هذه الأمور يأتيها بنى آدم ، فهم أكثر من الشياطين براعةً فى إغواء الإنسان وفتنته، وكذلك نتمنى أن يكون القارئ على وعى كاف ، فيسقط هذه الأحوال على دولة الشيطان «إسرائيل» وما تفعله بنفسها ، أو عن طريق اللوبى الصهيونى فى العالم أجمع، والذى سيطر على الإعلام والاقتصادعن طريق شراء الأدوات والضمائر ؛ وتدخل الشركات المتعددة الجنسيات فى تهديد الاستقرار الوطنى والدولى ، بعودة الاستعمار من جديد ، ولن يستغرب القارئ أن هذه الدولة الشيطان هى الوسيط الأمين ، الذى ينفذ رغبات وأمانى وأمنيات إبليس ، ويحقق ظنه فى بنى آدم ، حتى يشمت فيهم فيما بعد !

* * *

١- الشياطين فى رمضان

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين**» (١) .

١- **قال الحافظ** : قوله «وسلسلت الشياطين» قال الحليمى : يحتمل أن يكون المراد من الشياطين مسترقوا السمع منهم ؛ وأن تسلسلهم يقع فى ليالى رمضان دون أيامه ، لأنهم كانوا منعوا فى زمن نزول القرآن من استراق السمع ، فزيدوا التسلسل مبالغة فى الحفظ .. وهذا اجتهاد مقبول ورأى يحتمله الحديث .

٢- **أما الرأى الآخر** : يحتمل أن يكون المراد أن الشياطين لا يخلصون من افتنان المسلمين إلى ما يخلصون إليه فى غيره لاشتغالهم بالصيام الذى فيه قمع الشهوات وبقراءة القرآن والذكر .. وهذا الاحتمال يتعارض مع نص القرآن ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٢) فقد خلق الله الجن لعبادته كما خلق الإنس ، إلا أن الجن والإنس تركوا لحرية الإيمان والكفر والطاعة والمعصية ، فمن آمن وأطاع اهتدى للفطرة ودخل فى حظيرة الإيمان ، ومن كفر وعصى فقد أوتى من جانب نفسه . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ (٣) .

كما ذهب إلى تصور هؤلاء الشياطين بانهم بعض المردة منهم وأيد ذلك بحديث أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه وغيره عن أبى هريرة : «**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن**» . والقصد أن الشياطين يقل إغواؤهم فى هذا الشهر ، فيصيرون كالمصفدين .

وقريباً مما سبق الاحتمال القائل بأن أبواب الجنة تفتح فى رمضان هوكناية عما يفتحه الله لعباده من الطاعات وذلك أسباب لدخول الجنة ؛ أما غلق أبواب النار عبارة عن تعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشهوات .

---

(١) البخارى ، ٤ / ١٣٥ حديث رقم ١٨٩٩ ، وكذلك ٦ / ٣٨٧ حديث رقم ٣٢٧٧ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٣) سورة النساء آية ١١١ .

وقد نقد الحافظ ابن حجر رأى **الزين بن المنير** بأنه لا حاجة إلى صرف المعنى عن ظاهره بأن فيه نظر . . وكذلك ذهب **القرطبى** إلى حمل هذا الحديث على ظاهره .

ومما وفق فى تأويل الحديث **التوربشتى** الذى ذهب إلى أن فتح أبواب السماء كناية عن تنزل الرحمة وإزالة الغلق عن مصاعد أعمال العبادة تارة ببذل التوفيق وأخرى بحسن القبول ، وغلق أبواب جهنم كناية عن تنزه أنفس الصوام عن رجس الفواحش، والتخلص من البواعث عن المعاصى بقمع الشهوات .

ورد **أصحاب الظاهر** على من عارضهم بأن الشرور والمعاصى واقعة فى رمضان كثيراً، فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك ؟ . . إنها تقل عن الصائمين، الصوم الذى حوفظ على شروطه وروعيت آدابه ، أوأن المصفد بعض مردة الشياطين ، وليس كلهم، أو أن المقصود أن الشرور فيه تقل عن غيره ، وهو أمر محسوس فى رمضان . إذ لا يلزم من تصفيدهم أن لا يقع شر ولا معصية ؛ لأن لذلك أسباباً غير الشياطين كالنفوس الخبيثة والعادات القبيحة والشياطين الإنسية .

ورغم قبول أغلب هذه التأويلات ، إلا أن القول بأن شياطين الجن همهم إغواء الإنسان هو المرفوض ؛ لأنهم عباد أمثالنا مكلفون وليس من التكليف تصفيد هؤلاء . . ولذلك وفق من قال أن ذلك يقع على بعض المردة من غيرهم .

– أما من يرى أن الجن خيرون والشياطين أهل شر ، وإن كانوا من جنس الجن فيجرى كلامه على الصواب إن شاء الله – أو من انتهى التكليف فى حقهم وسلسلوا فى النار . .

كما أن الإشارة إلى أن الهوى والشهوات هى الدافع إلى أن مع كل إنسان شيطانه الداخلى الذى عليه مجاهدته ودفعه عنه بالصوم والطاعات والتزام الشرع .

كذلك الإشارة إلى أن الشياطين الإنسية لا يسلسلون ، ولذا فهم ما زالوا فى رمضان وغيره ، ينشطون بين الناس ويسعون فى الأرض فساداً . . وهذه إشارة صواب وصحيحه .

* * *

٢- صدقك وهو كذوب!!

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ - فذكر الحديث :

- فقال : - إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، لن يزال عليك من الله حافظ؛ ولا يقربك شيطان حتى تصبح .

فقال النبى ﷺ : «صدقك وهو كذوب ، ذاك شيطان»[١] .

يقول ابن حجر .. فى فوائد هذا الحديث أن الشيطان قد يعلم ما ينتفع به المؤمن ، وأن الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلا ينتفع بها وتؤخذ عنه فينتفع بها ؛ وأن الشخص قد يعلم الشئ ولا يعمل به ، وأن الكافر قد يصدق ببعض ما يصدق به المؤمن ، ولا يكون بذلك مؤمناً ؛ وبأن الكذاب قد يصدق ، وبأن الشيطان من شأنه أن يكذب ؛ وأنه قد يتصور ببعض الصور فتمكن رؤيته وأن قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[٢] مخصوص بما إذا كان على صورته التى خلق عليها ، وأن من أقيم فى حفظ شئ سمى وكيلا ، وأن الجن يأكلون من طعام الإنس ؛ وأنهم يظهرون للإنس لكن بالشرط المذكور ، وأنهم يتكلمون بكلام الإنسى ، وأنهم يسرقون ويخدعون ، وفيه فضل آية الكرسى وفضل آخر سورة البقرة ، وأن الجن يصيبون من الطعام الذى لايذكر اسم الله عليه ؛ وفيه أن السارق لا يقطع فى المجاعة ، ويحتمل أن يكون القدر المسروق لم يبلغ النصاب ، ولذلك جاز للصحابى العفو عنه قبل تبليغه إلى الشارع . وفيه قبول العذر والستر على من يظن به الصدق . وفيه اطلاع النبى ﷺ على المغيبات .

ووقع فى حديث معاذ بن جبل أن جبريل ، عليه السلام ، جاء إلى النبى ﷺ فأعلمه بذلك . وفيه جواز جمع زكاة الفطر قبل ليلة الفطر ، وتوكيل البعض لحفظها وتفرقتها.[٣] .

---

(١) البخارى ؛ ٦ / ٣٨٦ ، ٣٨٧ حديث رقم ٣٢٧٥ ، وفى كتاب الوكالة باب ١٠ ، ٤ / ٥٦٨ حديث رقم ٢٣١١ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧ .

(٣) الفتح ، ٤ / ٥٧١ .

هذا ما ذكره الحافظ فى فوائد الحديث ؛ وقد ذكر له روايات أخرى ؛ وهو يسلم به تماماً ويتركنا أمام تساؤلات منها إما الإيمان بما جاء فى هذا النص أو الإيمان بما جاء فى القرآن الكريم عن إبليس والجن .. ولنناقش سوياً الفوائد التى استشفها من الحديث ؛ ومن ذلك كيف يمكن للمؤمن أن ينتفع من حكمة الكافر إن كانت نصحاً له فى دينه؛ ثم كيف يصدق الكذاب سيما إن كان عدواً لدوداً لى وأنزله منزلة المعلم وأرضى بقوله ونصحه وإرشاده ؟!..

أما أن الشيطان يمكن أن يتصور فى صورة الإنسان وصور أخرى فهو ما يعنى قدرته الهائلة على التشكل والتلون ؛ فلا يؤمن علينا من أن يفتنا عن ديننا فى أى وقت أراد إن جاءنا فى صورة شيخ أو عالم دين مثلاً .

وهذا يتعارض مع قوله ، تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [1] فهل من الضعف أن يأتى فى صورة إنسان مرة وحيوان أخرى ، ويعلم ما لا يعلمه أولياء الله عن دينهم ؛ كما يتعارض مع قوله ، تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [2] وفى الحديث تسلط الشيطان على ولى الله سيدنا ، أبى هريرة ، حتى كاد أن يفتنه ، أولا يوجد هنا شئ من التناقض ؛ فماذا أبقى عدو الله لوليه ، ولمَ أمهله الرسول ﷺ ثلاث ليال حتى يخبره بأن الذى ينتهب طعام الصدقة ويكذب عليه شيطان من شياطين الجن ؟!

ويشير الحديث أن ما علمه الجن ، لأبى هريرة ، لم يكن قد أخبر به الرسول ﷺ أصحابه ، وإلا كان أبو هريرة قد عرفه ، ويؤكد ذلك تصديق رسول الله ﷺ لمقالة الجنى فى آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة . فهل هذا الجنى يعرف ما لا يعرفه النبى المعصوم الموحى إليه من ربه عن القرآن ، وهو عليه يتنزل ؟!..

كما أن قوله ، تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [3] ينفى تماماً تنزل الجن إلى الأرض ، وتتمثل فى طبيعة طنينية وتتعامل مع الإنسان وغيره ؛ والحديث السابق لا يخصص شيئا ، كما قال الحافظ ، إذ ليس هناك تخصيص من غير

---

(١) سورة النساء آية ٧٦ .

(٢) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٧ .

مخصص، وإلا إذا جاز للجن الظهور لبنى آدم لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ فى ليلة الجن .

إن هذا الحديث يتعارض مع القرآن والعقل ؛ ولا يصمد للنقد ؛ وهو أقرب ، إلى الحكايات الشعبية التى يروجها القصاص من غيرها . . ولا ينبغى التسليم بمثل هذا الحديث واعتباره دينا لتصادمه بالعقيدة ؛ إذ لا يعقل أن يمنح الله ، عز وجل ، الإنسان تكليفاً واستطاعة على أدائه ؛ ثم يسلط على عباده شياطين الجن ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً و .

أريد أن أنبه على أن المسألة ليست بين العدلية من الزيدية والمعتزلة وأهل السنة ؛ لأن علماء أصول الدين أشاروا إلى أن أحاديث الآحاد تفيد العمل والظن ولا تفيد العلم القطعى ؛ وهذا الحديث يأخذ به فى باب العمل الفقهى أما العلم فلا ، لما ينبغى فى العلم من ضرورة القطع واليقين .

وذكرنا من قبل رأى الأصوليين فى حقيقة إخبار الجن الناس بشئ أو خدمتهم ، وقلنا أنهم انقسموا إلى فريقين :

الأول : تمثل فى النظام وأكثر المعتزلة وأصحاب الكلام : لا يجوز ذلك ؛ لأن فى ذلك فساد دلائل الأنبياء ؛ لأن من دلالتهم أن ينبئوا بماناكل وندخر .

والثانى : أجاز ذلك . . وهو رأى القلة الغالبة .

كذلك اختلفوا : هل يجوز أن ينقلب الشياطين فى صور الإنس ، أو فى غير ذلك من الصور إذا أرادوا ذلك أم لا ؟

فقال فريق : بأن ذلك جائز فللشياطين أن ينقلبوا إلى أى صورة شاءوا من الصور، فيكون الشيطان مرة فى صورة إنسان ، وفى صورة حية مرة أخرى .

أما الفريق الثانى : من المعتزلة وغيرهم ؛ فقال إن ذلك غير جائز ولم يجعل الله ، سبحانه ، إليهم أن ينقلبوا متى أرادوا [1] .

* * *

(١) الاشعرى : المقالات ٢ / ١١٤ .

٣- وصاح إبليس فى أحد

عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : «**ولما كان يوم أحد هزم المشركون ، فصاح إبليس : أىْ عبادَ الله ، أُخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم ، فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان ، فقال : أى عباد الله ، أبى أبى .**

فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه فقال حذيفة : غفر الله لكم .

قال عروة : فما زالت فى حذيفة منه بقية خيرحتى لحق بالله» [١] .

لم أجد للحافظ ابن حجر شرحاً أو تاويلاً لما جاء فى الحديث من قول عائشة «فصاح إبليس» .. وقد ذكر البخارى الحديث فى مواضع متعددة من صحيحه ؛ منها كتاب المغازى باب غزوة أحد [٢] ؛ ولم يتعرض بالشرح لقول عائشة السابق ؛ ولكنه فى الباب الذى يليه فسر قوله تعالى ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا** ﴾ [٣] ، وقد نزلت فيمن تولى من المسلمين فى أحد فقال (استزلهم) أى زين لهم أن يزلوا ، وقوله : ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ [٣] قال ابن التين : يقال : إن الشيطان ذكرهم خطاياهم فكرهوا القتال قبل التوبة ، ولم يكرهوه معاندة ولا نفاقاً ، وهذا تاويل لا يصح إذ كيف ذكرهم الشيطان ؟! .. وهذا أمر يحتاج إلى مواجهة وكلام ومشافهة وحديث ، وكل ذلك لم يحدث يقيناً إذ لو حدث بالفعل لصرح به الصحابة وينتفى لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** ﴾ [٤] .

فاللقاء والرؤية والحديث والمواجهة ، بالكتاب ممتنعة وبالعقل ممتنعة ، وليس فى قدرته أن يفعل ؛ ولكن المعنى على الكناية والمجاز أى أنهم لما فروا وأعطوا للمشركين أدبارهم ، كأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا رسول الله ﷺ بفعلهم ، والذى حذرهم ترك أماكنهم مهما يكن من أمر .. فأغرتهم الغنائم لما رأوا فرار الكفار وتركهم لأرض

---

(١) البخارى ، ٦ / ٣٨٩ حديث ٣٢٩٠ .. وفى طبقات ابن سعد واحمد والواقدى ، على النحو التالى جـ٢ ق ١ ص ٢٩ - ٣٢ ، ١ / ٢٨٧ ، ص ١١٢ ، ١٣٦ .

(٢) الفتح ، ١٠ / ٦٢٨ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٥ .

(٤) سورة الأعراف آية ٢٧ .

أحد وما ظنوا أن خالداً سيكر عليهم بالجيش مرة أخرى .. فكان فعلهم محاكياً لما يحب الشيطان ويريد ويرضى .. يؤيد ذلك نقد الحافظ لتأويل ابن التين فيقول : ولم يتعين ما قال ، فيحتمل أن يكون ا فروا جبناً ومحبة فى الحياة لا عناداً ولا نفاقاً فتابوا فعفا الله عنهم [1] .

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [2] .

وتفسير ﴿ استنزلهم ﴾ أى طلب منهم الزلل ودعاهم إليه ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ أى من ذنوبهم .. والمعنى أن الذين انهزموا يوم أحد كان السبب فى توليتهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفُوا ذنوباً ، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا.

وقيل : إن استنزلال الشيطان إياهم هو التولى ، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقدمت لهم ؛ لأن الذنب يجرُّ إلى الذنب ، كما أن الطاعة تجرُّ إلى الطاعة وتكون لطفاً فيها .

وقال الحسن ، رضى الله عنه : استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة .

وقيل : ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ هو تركهم المركز الذى أمرهم رسول الله ، ﷺ ، بالثبات فيه . فجرَّهم إلى الهَزيمة .

وقيل : ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها ، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية [3] .. وهذا الرأى الأخير الذى ذكره الزمخشرى رد عليه الحافظ فيما سبق .

* * *

(١) الفتح ؛ ٧ / ٤٢١ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٥ .

(٣) الزمخشرى : الكشاف ؛ ١ / ٤٣٠ .

٤- إبليس والليل

عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «**إذا استجنح الليل - أو كان جنح الليل- فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ ؛ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأغلق بابك واذكر اسم الله ؛ وأطفى مصباحك واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض عليه شيئاً**» (١) .

شرح ابن الجوزى الفائدة من كف الصبيان عند إقبال الليل وإدبار النهار فقال : إنما خيف على الصبيان فى تلك الساعة ؛ لأن النجاسة التى تلوذ بها الشياطين موجودة معهم غالباً ؛ والذكر الذى يحرز منهم مفقود من الصبيان غالباً ، والشياطين عند انتشارهم يتعلقون بما يمكنهم التعلق به ، فلذلك خيف على الصبيان فى ذلك الوقت.

والحكمة فى انتشارهم حينئذ أن حركتهم فى الليل أمكن منها لهم فى النهار؛ لأن الظلام أجمع للقوى الشيطانية من غيره ، وكذلك كل سواد . ولهذا قال فى حديث أبى ذر «فما يقطع الصلاة ؟ قال الكلب الأسود شيطان» (٢) .

ويبدو من كلام بن الجوزى أن الشياطين من الجن الكافر غير المسلم ، وهو يضرب عابثاً فى الفضاء وينزل فى الليل إلى الدنيا ؛ ويأوى إلى الأماكن الخربة والنجاسات، والأولاد الصغار كثيراً ما يحرمون حول هذه الأماكن فى لعبهم ؛ وكفهم عن اللعب عند جنوح الظلام حماية لهم من عبث هذه الأبالسة ومسها لهم بشرٌ .. وما جاء فى الحديث منهج إرشادى لاتقاء شر الشياطين والسلامة من أذاهم . ولا ينكر أن يكون لهم أذى مثل أذي الإنسان بالإنسان .. إلا أنه مجرد عبث وإيهام ومس لا يصيب إلا الكفار من أمثالهم فى مواطن خاصة مثل النجاسات والخرابات وفى الظلام وقد يصيب الأطفال لما ذكره ابن الجوزى ..

وقد شغب بعض العلماء على من قال بأن الكلب الأسود شيطان لامتناع تمثل الشيطان فى طبيعة غير التى خلقه الله عليها ، وكون الكلب مخلوقاً حيوانياً ؛ لا

---

(١) رواه البخارى فى مواضع كثيرة منها ؛ ٦ / ٣٨٧ حديث ٣٢٨٠ .

(٢) رواه مسلم .

جناية له فى كونه أسوداً أو أحمراً ..!.. وكلامهم أقرب للصواب .. فلا الكلب الأسود شيطان ولا أى شئ آخر سوى كونه حيواناً مخلوقاً ولايد له فى صفة لونه ولا علاقة له بغيره من مخلوقات الله .. وربما ما ذكره أبو ذر مجرد مثل للتقريب وكان الشيطان على هذه الصفة . وراجع ما ذكرنا من آراء الأصوليين فى جواز تقلب الشياطين فى صور غير ما خلقهم الله عليه ، وجواز تقلب الجن فى صور الإنس وغيرها، والصواب المنع .

وربما كان من الفائدة بيان دور الشيطان فى أحداث أواخر القرن العشرين ، فقد عبد الشيطان تحت عناوين كثيرة منها المباشر وغير المباشر ، فقد ظهرت عبادة الشيطان ببلاد العرب عند الرافدين قديماً على يد اليزيدية ؛ وهى فرقة لها طقوس وعادات شيطانية ، وعددها قليل وانحسر عنها الضوء ، إلا أن غيرها من الأندية والمعابد التى شُيدت لعبادة الشيطان فى أنحاء المعمورة قد انتشرت وذاعت وشاعت ، حتى صار لأصحابها شعاراً دينياً .

وانضم لهذه الجماعات كثرة من كبار الفلاسفة والمفكرين والفلاسفة والعلماء والأثرياء من آمريكا وانجلترا وفرنسا وألمانيا ، بعد أن سادت المادية وتقوقع الإنسان على نفسه وتضخمت ذاتيته فلم يعدْ يرى غيره، فأخذ يلهث خلف تحقيق رغباته وشهواته ، ورفع لواء اللذة والمنفعة الآنية ؛ واستشعر أن الكون له وحدهُ دون غيره ، فارتفعت معدلات الجريمة والانتحار فى كل مكان، وفى الدول الغنية ذات الوفرة الاقتصادية والديمقراطيات المتقدمة على وجه الخصوص.

لقد تسائل الشباب ماذا بعد ؟ فلم يجد إجابة سوى الانتحار والموت ، وانتشرت موضة الانتحار الجماعى فى بلد كالسويد وأمريكا .. لماذا ؟.. لأن الإنسان نسى ساعة أنه إنسان مخلوق .. وهبه الله الحياة حين وهبه ليسعد نفسه والآخرين.. فانحرف وأفسد واتبع هواه ولحقه الصرع والوساوس ، وانهزم من جوانيته ، ولم يعد له هدف يطوى الزمان فى تحقيقه وإرضاء نفسه .

إن الإنسان الذى يحرك آلات الدمار ، هو نفسه الذى يعانى الفقر والجوع

---

(١) انظر الاشعرى : المقالات ؛ ٢ / ١١١ ، ١١٤ .

والموت .. والإنسان الذى يعانى التخمة والوفرة والموت شبعاً ، هو هو ذلك الإنسان الذى يموت جوعاً وحرماناً ، غير أنه فى الغرب أبيض البشرة وفى الشرق أصفر أواسود البشرة !..

لقد تسلط الشيطان على عقل الإنسان فأغراه بقتل جنسه وإبادته موهماً إياه أن الأرض لم تخلق لسواه !

وهو ضرب من الجنون ..

وإذا كان الجنون فنوناً فمن الفنون ما يقتل ، ماذا يمكن أن يقال عن فنون أدواتها الجنس والدعارة والإتجار بالمرأة وهتك الأعراض وتفشى مواخير الفسق والفجور ، كل ذلك ملوناً بالمدفع الرشاش والمسدس .. وحلم الإنسان السوبر الذى يعاشر آلاف النساء ويقتل آلاف البشر ، وينام فى الصحراء والجبال ويعود بالتاريخ ملايين الأعوام للوراء . هذا ما تقدمه هوليود .. فهل هنا . حلم عربى غيره يبدى وجه الفن الجميل؟!..

إن النوادى التى يعبد فيها الشيطان وجه حقيقى آخر ، بلا أقنعة ، لسقوط حضارة الغرب التى اتسمت بالأنانية والذاتية والمادية .. وفقدت روح التعاون والتسامى والتعالى عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، تحت شعار حق رعاية وامتلاك أصحاب الحضارة «للآخر .. المتخلفين!» حتى يتحضروا مثلهم .

فهل حدث بعد استعمار الرجل الأبيض للعالم أكثر من خمسة قرن أن تحضر العالم مثلهم ؟.. أم أن الغرب استأثر بمقدرات الأرض ، وامتلك مصادر المادة الخام فى أفريقيا السوداء وأسيا .. وأذل شعوباً ذات حضارات ، وأفنى حضارات هى أسمى وأرقى آلاف المرات مما أبدع الغرب بآلته الصناعية ..

فقد كان الشرق نبع الحضارة والرقى وتخلف تحت وطأة الإجرام والقهر والغزو الاستعمارى والثقافى ، الذى يستهدف الآن القضاء على وجوده بعد أن قضى على مصادر الثروات فى بلاده .. فمن سقوط الخلافة إلى انتحار هتلر .. استوطن اليهود وتشرد الفلسطنيون العرب !..

أعطت أمريكا السلاح للعراق لقتال المسلمين بإيران فصفَّق العملاء .. وبعد ذلك

تحولت قوى الشر (قوى التحالف) للإجهاز عليه ، دون رحمة بعد أن تصور شيطان العراق أن فى قدرته قهر إخوانه العرب بالعرب بالكويت !.. فلا أفلح هو ، ولا إخوانه العرب .

وأصاب الجميع الانكسار والذل والهوان والإفلاس بعد أن عدنا إلى ما قبل ١٩٦٢م فى أرض اللؤلؤ والذهب الأسود.

كذلك اعطت أمريكا للثوار فى بروندى وراوندا السلاح ، وأداروا عجلة الموت وجربوا الأسلحة المستحدثة فى هذه الشعوب الضعيفة، فكانت النتيجة مليون قتيل- أو قريباً من ذلك - طم بهم نهر النيل بعد أن القوا فيه جثث القتلى !

وسلطوا بعض صنائعهم وعملائهم فى أفريقيا على شعوبهم ، فاذلوهم وأفنوا زهرة شبابهم فى السجون والمعتقلات تحت قهر التعذيب والقتل الجماعى والسحل ، حدث ذلك على يدى عيدى أمين بالصومال، وهيل سلاسى باثيوبيا ، والثوار الجدد عند منابع النهر ، وكذلك على يدى بغل أوغندا الذى قتل شعبه جهاراً نهاراً !

أو ليس كل ذلك فعلاً للشيطان الإنسى ، دولة كان أو قرداً ديكتاتوراً ؟!!

لقد أباد ستالين أكثرمن سبعة عشر مليوناً (١٧) من المسلمين فى الحرب العالمية الثانية ، وما حدث بعدها من هجرة الأقليات المسلمة فى بلاد البلقان وأسيا الصغرى إلى مواطن كثيرة من الاتحاد السوفيتى ، كانت تحتاج للعمران وتفتقر إلى الإيدى العاملة ، فاستغل المسلمين أسوأ استغلال ومن بعده جاء من حذى حذوه !.. حتى تفكك الاتحاد ولم ينس النصارى إبادة المسلمين ، الذين شمخت أنوفهم وارتفعت رؤسهم مطالبين بالاستقلال ، أسوة بغيرهم ، حدث ذلك فى أوزباكستان وأزربيجان وبخارى والشيشان .. والبقية تأتى !

لقد تجمع الغرب فى مواجهة بعرض الجبهة ، ضد المسلمين والعرب فى كل مكان.. فبدأوا باضطهاد العمالة العربية فى الغرب .. وتاليب القوميات المختلفة ضد المهاجرين الجدد فى ألمانيا ضد الأتراك ، الذين عمروها بعد الحرب العالمية الثانية ، وضد المغاربة فى فرنسا بعد أن أدوا واجبهم على أكمل وجه !..

وإسرائيل فى الأرض المحتلة لا تألوا جهداً فى اضطهاد العرب فى الضفة وغزة

والقطاع وفى جنوب لبنان ، وتحاول جهدها عرقلة جهود السلام فى فلسطين وجهود الإصلاح فى كل بلد عربى .. واخذت على عاتقها تأديب العرب ، وتصورت نفسها عسكرى المنطقة الحامى لمستعمرات الغرب السابقة الأمينة !

ولا يمكن كسر الغرور الذرى والنووى الإسرائيلى ، بغير اتحاد العرب ولم شمل الصف العربى .

وبعد على المسلمين أن يروا الشيطان فى هؤلاء الذين حولوا التسامح إلى صراع وصدام حضارات .. ولن يستكينوا أو يهدأوا حتى يعودوا مرة أخرى تحت لواء الصليب كماجاءوا من قبل .. ويفعلوا ما فعلوه من قبل .. ولا سبيل – من أجل الحفاظ على الذات والدفاع عن حضارتنا ووجودنا – إلا أن ينهض الشرق المسلم ويأخذ بعرى التقدم ، وأن يصطنع لنفسه مناهج تنافس مناهج التغريب ، فلن نتقدم صناعياً وعلمياً عن طريق التبعية ، لأن أقصى ما يمكن أن نصل إليه أن نكون مقلدين مهرة لما صنع الغرب فى أواخر النصف الأول من القرن العشرين مثلاً ، وهو ما لا يحقق الأمل المنشود فى التقدم والازدهار .

* * *

٥- إبليس والنسيان

عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس فقال : حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : **«إن موسى قال لفتاه آتنا غداءنا ، قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمر الله به»** (١) .

ولم يتعرض الحافظ ابن حجر لبيان هذا الحديث فى كتاب بدء الخلق ، ولكنه أفاض فى شرحه فى كتاب التفسير (٢) ؛ إلا أنه لم يبين هل هذا الشيطان الذى أنسى يوشع بن نون الحوت على الصخرة فى مكتله هو شيطان إنسى أم جنى ، أم إنه العجلة التى لحقت بيوشع لما تقدمه موسى ، عليه السلام ، فى السير ؟!..

وما ذكره الإمام أحمد (٣) فى تفسير الآية فيه الكفاية وزيادة ، حيث روى أنه كان لموسى عدو من الناس ، سعى فى قتله ، فلما علم بخروجه خرج وراءه ابتغاء تصيده بعيداً عن أعوانه .. فهو ذلك الشيطان الذى قصده يوشع فى كلامه .. فقد كان يترقبه ويفكر فيه طول الرحلة ،فنسى بسببه الحوت فى المكتل على الصخرة ، حيث عادا إليها فوجدا الخضر بأماراته بجوارها ، فجرى من قصة موسى ما جرى معه من طلب للتعلم والرغبة فى المعرفة .

ولنا تساؤل على هذه المقالة ألا وهو هل يستطيع الشيطان أن يُنسى الإنسان ويتدخل فى عقله وتركيبته وذاكرته الحافظة ، فيلغى ويمحو منها ما يشاء ؟!.. شيطان الإنس يفعل ذلك بطرق عدة عن طريق الإيحاء والإيهام ، أو عن طريق حصر الضوء عن بعض الأحداث وتسليط الضوء على البعض الآخر ، التى يرغب فى إظهارها.. وقد مارس أساتذة علم النفس التعليمى العديد من التجارب على الحيوانات وعلى الإنسان ، بصدد هذا الموضوع .

فماذا يبقى من الإنسان إن نسى تاريخه وماضيه؛ أونسى أهدافه

---

(١) البخارى فى مواضع كثيرة منها / ٦ / ٣٨٧ حديث ٣٢٧٨ ، وكتاب التفسير ؛ ٨ / ٢٦٢ حديث ٤٧٢٥ - ومسلم؛ ١٥ / ١٢٦ حديث ١٧٠ - ١٧٤ ، والترمذى ، كتاب التفسير سورة الكهف ؛ ٥ / ٢٨٩ حديث ٣١٤٩ - ٣١٥٠ .

(٢) الفتح ؛ ٨ / ٢٦٨ .

(٣) انظر النص فيما يلى .

وخططـــه المستقبلية وعاش بلا هدى من السماء ولا إرشاد من عقل يقظ وضمير حارس ؟!

لقد حاول اليهود مسخ الشخصية العربية بفلسطين فعجزوا عن ذلك ، وحاول الأمريكان السخرية من تاريخ العالم – لأنهم أمة بلا تاريخ – وقيمه وحضارته ؛ والتقليل من شأنها ، فمزقوا بعض الدول وحطموا تاريخها وحضارتها أو ما تبقى من عمران فى حضارتها .. وما حدث ببلاد الرافدين ليس ببعيد .. ومن قبله ما حدث فى الكوريتين وفيتنام ..

والحقيقة أن للأمريكان تاريخ ثابت وطويل فى قهر الحضارات وإخفائها .. فأين هى حضارة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية واللاتينية !.. لقد أجهزوا على شعب بأكمله فأفنوه تماماً حتى تلاشت حضارته ..

إن الشيطان الأكبر المتربع على عرش العالم يجند رعاياه فى العالم من أجل أن ينسى الإنسان تاريخه المرير وصراعه الطويل مع الشيطان ، بداية من إبليس الأب ونهاية بأعوانه ومساعديه فى عصرنا الحالى .

لقد دخل نابليون مصر وهى عامرة بالبنيان ، ولم يخرج منها حتى ترك عمارة القاهرة خراباً يباباً ، فقد كان يهدم كل يوم آلاف المنازل والقصور والشوارع والأزقة والحارات القديمة .. بالإضافة إلى قتل عشرة من طلاب الأزهر وعلمائه كل يوم !.. لماذا كان يفعل ذلك .. لكى ينسى المصريون تاريخهم ومرجعيتهم الثقافية ، ويسهل غزوهم ومسخهم وتطوير شخصيتهم مرة أخرى ..

لقد كان تاريخ علاقتنا مع الآخر المسيحى الغربى تاريخاً أسوداً مريراً .. دفعت فيه مصر الحظ الأوفى والقدر الأكبر من التضحيات ، لما لها من ثقل وأهمية فى تاريخ البشرية .. وما أن تبدأ فى استرداد عافيتها وجمع أمرها وامتلاك خيوط النهضة فيها ، حتى يضربها الغرب فيردها مرة أخرى إلى نقطة البدء !!..

ولذلك ينبغى على كل مسلم وعربى أن لا ينسى ، تحت تأثير الإعلام الغربى الضخم ودعاوى العولمة والعالمية والتدويل والنظام العالمى الجديد والغزو الثقافى والاقتصادى لذاتنا وأسواقنا ، ينبغى أن لا ينسى أن له تاريخاً وهوية حضارية وثقافة

ذاتية تخصه هو وحده دون غيره ، فلا يشاركه فيها الصينى مثلاً ولا الامريكانى صاحب ثقافة الكاوبوى والبيتزا والتاك أوى !

فاصعب ما يمكن أن ينسى الإنسان حضارته وتاريخه وثقافته وذاتيته ، ويصبح من الغد لا يملك شيئاً سوى أنه كان فى يوم ما إنساناً له أرض وعرض وأشياء يعرفها وتعرفه !!..

وربما كان البديل الذى أقدمه ، ويغنى عن النسيان والتلاشى فى الآخر ، هوالحلم القومى الإسلامى والوحدة العربية والإسلامية على كل المستويات .. فيصير العالمين الإسلامى والعربى فى الشرق الأدنى والأوسط والأقصى ، يغنى أغنية واحدة سياسياً واقتصادياً وثقافياً وإعلامياً .. ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق المنظمات العربية الإسلامية المشتركة الفاعلة والناهضة والمهتمة بالشأن الشرقى .. فالغرب لن يعطينا شيئاً ، إن لم يأخذ منا طواعية عن طريق السياسة أو غصباً عن طريق الضغط والاستعمار والوسائط العميلة ، كل شئ بدأ من الأرض وما فيها من كنوز ، ونهاية بالثقافة والحضارة وما على الأرض من عمران !

* * *

٦- إبليس والفتنة

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : «**رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال : ها إن الفتنة ها هنا ، إن الفتنة ها هنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان**» [١] .

وهناك رواية أخرى «**أو قرن الشمس (يعنى المشرق)**» .. وذكره سالم بن عبد الله بن عمر فى ثنايا خطبته فى أهل العراق : يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم الكبيرة ؛ سمعت أبى يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الفتنة تجئ من ههنا . وأومأ بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان**» .

وفى الحديث أن للشيطان قرنين يسد بهما جهة المشرق حيث تطلع الشمس ، وأصاب ابن حجر فى قوله إنه لا يطلع إلا من جهة واحدة أما باقى الجهات فلا ، وفيه إشارة إلى تخييله لعبدة الشمس بأنه إلههم ومعبودهم ، وأنه يفعل ذلك عند شروق الشمس ولذلك اعتبره الشرع وقت كراهة لا يستحب الصلاة فيه إلا المكتوبة على أشهر الأقوال ؛ وفى الحديث إشارة أخرى إلى أن الفتن من أعمال الشيطان التى يباركها ويناصرها .

يقول ابن حزم : وأما قول رسول الله ﷺ : «**إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان ؛ فإذا ارتفعت فارقها ؛ فإذا استوت قارنها ؛ فإذا زالت فارقها وإذا جنحت للغروب قارنها فإذا غربت فارقها ، ونهى عن الصلاة فى هذه الأوقات**» [٢] .

أو كما قال ، عليه السلام ، مما هذا معناه بلا شك . فقد قلنا إنه ، عليه السلام ، لا يقول إلا الحق وأن كلامه كله على ظاهره ؛ إلا أن يأتى نص بأن هذا النص ليس على ظاهره فنسمع ونطيع ، أو يقوم بذلك **برهان من ضرورة حسٍّ أو عقل** ، فنعلم أنه ، عليه السلام ، إنما أراد ما قد قام بصحته البرهان لا يجوز غير ذلك ..

وقد علمنا يقينا أن الشمس فى كل دقيقة طالعة على أفق من الآفاق ، مرتفعة على آخر ، مستوية على ثالث و زائلة عن رابع ، جانحة للغروب على خامس غاربة على سادس . هذا ما لا شك فيه عند كل ذى علم بالهيئة ، فإذا (كان) ذلك كذلك فقد

---

(١) البخارى ؛ ٦ / ٣٨٧ ، ١٣ / ٤٩ ، الحديث ٧٠٩٢ - ٧٠٩٣ - ٧٠٩٤ .

(٢) مسند أحمد : ٤ / ٣٤٨ .

صح يقينا أنه ، عليه السلام ؛ إنما عنى بذلك أفقاً ما دون سائر الآفاق لا يجوز غير ذلك ، إذ لو أراد كل أفق لكان الإخبار بأنه يفارقها كذبًا ، وحاشى له من ذلك .

فإذاً لا شك فى هذا كله فلا مرية فى أنه ، عليه السلام ، إنما عنى به أفق المدينة ، وهو الأفق الذى أخبر أهله بهذا الخبر ، فأنبأهم بما يقارن الشمس فى تلك الأحوال وما يفارقها من الشيطان .

والله ، عز وجل ، أعلم بذلك القرن ما هو ؟ لا نزيد على هذا إذ لا بيان عندنا فيما بينه إلا أنه ليس شئ من ذلك يمتنع أصلا ؛ فصح بما ذكرنا أن **أول الخبر خاص** ، كما وصفنا ، وأن نهيه ، عليه السلام ، عن الصلاة فى تلك الأوقات قضية أخرى ، وقضية ثانية وحكم غير الأول ، **فهو على عمومه فى كل زمان وكل مكان** ، إلا ما قام البرهان على تخصيصه من هذا الحكم بنص آخر [1] .

ولنا أن فى الحديث مقاصد أخرى ، كان جدير بالقدماء أن يلتفتوا إليها وأن يولوها اهتمامهم .. ومن ذلك أن إشارة النبى ، ﷺ ، إلى المشرق تعنى أن المسلين سيفتحون فى الآفاق بلاداً كثيرة ، ويخرجون من جزيرة العرب دعاة إلى الله .. وستكون لهم علاقات مع أهل البلاد المفتوحة ومع غيرهم ، ومنهم الوثنيون عبدة النار والبد ، وأهل الكتاب من النصارى – الرومان – ومع غيرهم ، والذى نسميهم بلغة عصرنا «الآخر» .. وهذا الآخر لن يترك المسلمين فى سلام بل سيجرهم إلى فتن – الحرب والسلام – ويحاول أن يدفعهم إلى التخلى عن دينهم بكل سبيل ، ولذلك فهو شيطان يأتى مع الشمس من حديث أقبلت من كل أرض .

فبلاد العرب المدينة وما حولها ، يتسع المفهوم ليشمل شبه الجزيرة العربية .. أما غيرها فستحلق بها .. وسيكفى الله هذه البلاد الفتن الموبقة الحالقة للدين والمبيرة التى تهلك الحرث والنسل .. ولكن الفتنة ستطل برأسها آتية إليها من غيرها من البلاد ..

ولو تذكرنا الثورة على عثمان وعلى ، رضى الله عنهما ، فى الفتنة الكبرى .. لرأينا أنها أتت إلى المدينة من البلاد المفتوحة .. وأن الثوار جاءوا إليها من كل صوب وحدب .. كما أننا لو انتقلنا فى الزمن إلى العصر العباسى الثانى فى أواخره ، نجد فتنة

---

(١) ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ؛ ٥ / ١١٣ – ١١٤ .

التتار وسقوط بغداد وزوال شمس الخلافة العربية ، وهى فتنة لا شك فى ذلك ، ولو اعتبرنا فتنة الحروب الصليبية قبلها .. لكان لنا من كل ذلك رصيد من فهم مضمون الفتنة التى أشار إليها حديث رسول الله ، ﷺ .

وما زالت الفتنة آتية إلى بلاد المسلمين من حيث تطلع الشمس من كل أرض .. من أوربا أو أمريكا لتطفأ شمس حضارتنا وتمسخنا قروداً وأتباعاً فى عصر العولمة .. أو فتنة « يهود » حارس الغرب بالمنطقة العربية .

لقد أرسل الغرب آلاف المستشرقين وجند من العملاء آلاف المستغربين – التنويريين بالادعاء – حتى تسقط رايه التوحيد من أيدينا .. ونتحول إلى قبلة الغرب ، نبحث عن حضارة بديلة وثقافة بديلة ونلبس الفضلات من ثيابهم ونتبنى أفكارهم ، التى ضاقت عليهم ولم تتسع لنا !

واقتران الفتنة بالشيطان إشارة إلى أنها محرومة من هدايات السماء .. تضرب بكل أرض وتنبت حيث يأسن الماء ويتعفن الهواء .. لقد نظرت فى أغلب الفلسفات المعاصرة .. فوجدت أصحابها قد استجمعوا فتات الفلسفة الإسلامية ، وانتزعوها من كتب أصحابها الأصليين وأخذوا فى تحويرها ، فجاءت فجة غبية وقد وقدموها لنا على أنها بضاعة من عندهم ابتدعوها خالصة لهم .. وكذبوا كما كذبوا من قبل ومن بعد ، لم تكن لهم – ولن يكون لهم – فلسفة متكاملة مثل ما كان فلاسفة الإسلام ، غير أنهم شغبوا علينا فوقعنا فريسة لطلاءات مزينة كسراب يلمع بقيعة ، فلا نحن فهمنا التراث ولا بلغنا شيئاً من حيث المعاصرة ، فبين الأصالة والمعاصرة وقفنا حيث لا شئ!!..

وهذه هى محنة الثقافة وفتنة التخلى عما نملك ، والبحث عن أى شئ لا نملكهُ تأتى به الريح من الشرق أو الغرب .. المهم عند شيطان الفتنة أن نخلع جلدنا وهويتنا وثقافتنا ، ونتنكر لحضارتنا من أجل لا شئ .. ولحساب « الآخر » الذى هو غيرنا يقيناً . أو ليست تلك الفتنة التى قصدها رسول الله ، ﷺ ؟!.

* * *

٧- إبليس والوسوسة

عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : **«يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»** (١) .

يبين هذا الحديث أن الشيطان يحاور الإنسان فى قضية الإيمان ؛ فإذا كان كل شئ مخلوقاً فمن إذن خلق ربك أيها الإنسان ؛ والحديث لا يضع إجابة للتساؤل وإنما يكتفى بالاستعاذة بالله من هذه الوسوسة . . لأنه يبغى بها إفساد دين المسلم وعقله ولا يريد بها الجدل أو المناظرة الإيجابية ؛ فقصده التضليل لا غير ؛ ولذلك يجب دفعها بالاشتغال بغيرها .

ولوكان الأمر على وجه الجد والمناظرة كما يحدث من زنادقة بنى آدم لأمكن قطعهم بالحجة والبرهان . . فالإنسان يراعى حدود المناظرة وطبيعتها ويجارى المناظر فى الحجج ويصل معه إلى نهاية الشوط ، إما أن يؤمن أو لا يؤمن ، يقتنع أولا ، أما الشيطان فلا نهاية لوسوسته .

وما يريده إبليس من هذه الوسوسة يؤكد وجود الله ، وأنه خالق كل شئ ولا خالق له؛ إذ لو كان لابد له من خالق يخلقه ماكان إلهاً وللزم الدور والتسلسل اللانهائى للتساؤل ؛ كما أن العالم والمحدثات من حولنا تؤكد أن لها صانعاً غيرها ؛ فى الطبيعة وفى كل شئ ؛ صنعها ودبرها وأتقن خلقها على هذا الوجه البديع ، ولو كان مثلها ما أبدعها وما قدر على صنعها .

ويقدم الحافظ ابن حجر بحثاً فى الخواطر وأقسامها والفرق بينها عن أحد شيوخه وهو **المازرى** حيث يقول : الخواطر على قسمين : فالتى لا تستقر ولا يجليها شبهة هى التى تندفع بالإعراض عنها ، وعلى هذا ينزل الحديث ؛ وعلى مثلها ينطلق اسم وسوسة ، وأما الخواطر المستقرة الناشئة عن الشبهة فهى التى لا تندفع بالنظر والاستدلال .

---

(١) البخارى ؛ ٦ / ٣٨٧ - الحديث رقم ٣٢٧٦ .

ولكن **الطيبى** يوضح وجه النصح بالاستعاذة والاشتغال بها عن هذا التفكير ؛ لكونه ، تعالى ، لا يحتاج إلى نظر واستدلال لإثبات وجوده فهو أمر ضرورى لا يقبل المناظرة ؛ كما أن الاسترسال فى هذا الاتجاه يؤدى الى مزيد من الحيرة وعلى هذا فالحل والعلاج فى اللجوء الى الله والاعتصام به .

وبعد هل يمكن القول بأن شيطان الإنسان فى هذا الحديث هونفسه وهواه . . حيث أن الله ، تعالى ، قد خلق الإنسان ونفسه دائمة التردد والعبث ﴿ **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢** ﴾ [١] فهى كثيرة اللوم ويتنازعها دوافع ورغبات كثيرة ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [٢] .

ولذلك قال ، تعالى :﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠** ﴾ [٣] ، وقال تعالى : ﴿ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠** ﴾ [٤] .

أو أن يكون هذا الشيطان من شياطين الإنس حيث أن الوسوسة فى حقهم أقرب من أن تكون من شياطين الجن ، فالإنس ندرك ما يقولون ، سيما إن كانوا كفاراً أو زنادقة ، ويحبون أن يكفر المؤمن مثلهم ويشاركهم فى ضلالهم .

* * *

---

(١) سورة القيامة آية ٢ .

(٢) سورة يوسف آية ٥٣ .

(٣) سورة الشمس الآيتان ٧ – ٨ .

(٤) سورة النازعات آية ٤٠

٨- معرفة أسرار النفس عند الغزالى

إن اختلف القدماء فى تحديدهم لمفهوم القلب والنفس والروح .. هل هى ذوات مختلفة أم أسماء لشئ واحد ؟ وأين تقع هذه الثلاثة من جسم الإنسان .. وهل هى جسمية مادية أم غير ذلك ؟ كما اختلفوا فى تحديد ماهية كل منها وطبيعتها .

يرى الغزالى أن معرفة الإنسان لنفسه واجب مفروض عليه ، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة ؛ حتى تدرى أى شئ أنت ؛.. ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأى شئ خلقت وبأى شئ سعادتك، وبأى شئ شقاؤك ؟!.. أما الروح فهى حقيقة جوهرك وغيرها غريب عنك وعارية عندك ..

وقد لجأ إلى تقسيم الإنسان إلى جسد ونفس ، والنفس : هى القلب والروح أى النفس .. ثم عاد الغزالى فجمع بين النفس والقلب .. فهما شئ واحد !.. وعَدَّ القلب من عالم الغيب .. لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة .. وأصل معدنه من الحضرة الإلهية .

والروح من أسرار القدرة الإلهية ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ [١] .. فالإنسان من عالم الخلق أى الشهادة ، والروح من عالم الأمر أى الغيب ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [٢] .

وبعد أن نقد الغزالى الفلاسفة القدماء فى تحديدهم ماهية الروح ، وهل هى عرض أم جسم ، قديمة أم محدثة ، وبين خطأهم فى ذلك كله وأشار إلى صعوبة تحديد تعريف جامع مانع، يمكن به إدراك ماهية الروح ؛ ولكن يكفى شرف الاجتهاد وهو فضيلة الدين الإسلامى فى المعرفة ، وغاية المجاهدة والاجتهاد والمعرفة ، أن تعرف من تكون ؟.. بداية من الروح / والقلب / والنفس ، ونهاية بمعرفة لمَ خلقك الله ؟ وماهو مراده منك؟..

فلمَ خلق الله القلب / النفس؟.. خلقها من أجل المعرفة ، والعمل من أجل سعادة الدنيا والآخرة .. وإذا كان الجسد لا يعيش إلا بالطعام والشراب فالروح / القلب لا

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(٢) سورة الأعراف آية ٥٤ .

يعيش إلا على المعرفة .. فأنْ تعرف هو غاية خلقِ الله للإنسان .. ولا معرفة يمكن تحصيلها إلا من طريق الحواس ، ولذلك فهى نافذة القلب على العالم ؛ لإدراك آيات الله المقروءة والمنظورة جميعاً وعلى حد سواء.

وتنقسم قوى النفس / القلب إلى قوى آلية عملية ، يحكمها تصرفات الإنسان الظاهرة من رضا وغضب وشهوات ونزوات ونوازع وميول، وقوى باطنية تتمثل فى التركيب الدماغى للإنسان، والذى يشبه رأس الكمبيوتر ، بما يحمله من قوى التفكر والحفظ والتذكر والخيال والتمثيل والوهم .. ولكلتا القوتين عمل يختص بها ، فإن حدث خلل فى إحديهما أدى إلى ضعف الإنسان واهتزازه ، أو نقص البنية بالكلية .

ويرتكز فى القلب / النفس قوة الأمر لأعضاء الإنسان وحواسه ؛ فإن توقف عمل إحدى هذه الأعضاء لم يُجد أمرها شيئاً ؛ لأنه يتوقف فى الدماغ أولاً عن طريق فشل العصب فى نقل الأمرعبر السلوك المنتشرة فى الجسم .

ويشبه الغزالى القلب / النفس بالملك ، والعقل بالوزير .. ويرى أن سلامة الإنسان فى وضع قوى النفس الشهوانية والغضبية تحت تصرف العقل وحكمته ، حتى تستقر أحوال النفس .. والعكس يهلك الجميع ، وفى ذلك إشارة إلى استفادة الغزالى من أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » وبيان لمعرفته به وقراءته له ، فيرى الغزالى / أفلاطون أن قوى النفس ثلاثاً : " الناطقة والغضبية والشهوانية ، وكذلك أفلاطون يجد تشابهاً كبيراً بين النفس والمدينة ، وحيث أن للمدينة ثلاث وظائف : الإدارة والدفاع والإنتاج .. فهى تقابل قوى النفس الثلاث .

فإن كانت الشهوةُ والغضب تابعين للنفس ، فالنفس بدورها تابعة للحواس ، والحواس تابعة للعقل ، والعقل تابع للقلب . يقول الغزالى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [1] . معناه إنا خلقنا القلب ، وأعطيناه الملك والعسكر ، وجعلنا النفس مركبهُ ؛ حتى يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين .

وتبنى السعادة عند الإنسان على ضبط هذه القوى الثلاث ألا وهى الغضب ،

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

والشهوة ، والعلم ، فخير الأمور الوسط . . والفضيلة وسط هى الأخرى ؛ والعلم يتحكم فى القوتين الأولتين، حتى يكبح جماحهما ففى توسطهما العفة والقناعة . .

فإذا كان الإنسان – من حيث هو مادة تتكون من جسد ونفس – يشترك مع البهائم فى الأكل والشرب والنوم والنكاح ، فعليه أن يراعى فى أمر أحسن الأحوال وإلا تحول إلى أسوأ من البهائم . . وإذاكان الضرب والقتل والخصومة من أخلاق السباع فعليه ضبطها والتحكم فيها ، وإلا صار إلى أسوأ من السباع فى معاقلها وعرينها . . وكذلك المكر والحيلة والغش . . من أخلاق الشياطين، وهى كمائن للنفس الإنسانية مستورة ، وعليه مراعاتها والحذر منها حتى لا يسلم نفسه للشيطان .

أما الرحمة والعلم والخير فهى أخلاق تتحلى بها النفس البشرية ، ويشترك مع الإنسان فيها الملائكة ، فإن ظهرت صار الإنسان ملائكى الطباع ، محمود السيرة مطهر السريرة .

وعند نوم الإنسان ينفتح لقلبه باب الغيب وتغلق حواسهُ فى عالم الشهادة وينقطع عن الدنيا بقوانينها ، ويتصل بالغيب بكل ما فيه . . ليتسع له أمر المعرفة ، فيطلع على أكوان وعوالم لم يكن ليدركها فى يقظته بحواسه المحدودة ورؤيته المحدودة، والتى تحبسها المادة . . ولذلك كان عالم الملكوت هو عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس ، وعالم الملك هو عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية .

والقلب عند الغزالى أعلى من العقل ، وإن كان لا يستطيع الاستغناء عنه كمستشار له . . وبتصفية القلوب وتخليتها من حب غير الله وتجريدها من حظوظ النفس وشواغل الشهوات والملذات . . ينفتح للقلب الرؤيا فى عالم الملكوت ، حيث يجول فى أكوان ماكان له أن يرها ، لولا اجتهاد صاحبه فى نفى العلائق والشواغل عنه . . فهوكالمرآة كلما ذات صقلا ذات صفاء فى جودة نقل الصور التى تتلقاها . . وشبيه بما ذكره الغزالى فى عصرنا التليفزيون . . فكلما كان الجهاز قوياً وجيداً كان استقباله للإرسال واضحاً ولا شائبة فيه . . بل يستطيع التقاط قنوات لم يكن فى وسع الأجهزة الأخرى التقاطها ، إما لقدمها أو ضعفها وعدم جودتها . ولا يخرج ما يذكره عن كونه خيال لم يصل إلى درجات اليقين العليا ، والذى لا يكون للقلب إلا بموت صاحبه .

وإذا عرفنا أن الغزالى يجعل القلب من عالم الملكوت ، ليسهل عليه الانفتاح والدخول إلى عالم الغيب بسهولة .. وعرفنا أن الحواس عنده من عالم الملك / الشهادة .. فهى عوائق لانفتاح القلب على الملكوت / الغيب فإنه يدعو إلى تفريغ القلب من شواغل الحواس ومشاهداتها .. فهى حجب تحجبه عن التجوال فى الملكوت!

وأعظم المعارف عند الغزالى هى معرفة الله ، وليس موجود أشرف من الله ، سبحانه، ولذة شهوات الدنيا متعلقة بالنفس ، إذ إنها من عالم الملك / الشهادة ، وهى تبطل بالموت ، أما لذة معرفة الربوبية ؛ فمتعلقة بالقلب ولا تبطل بالموت ؛ لأنه لا يهلك بالموت بل تزداد لذته وتتسع ؛ لأنه خرج من ظلمة المادة وانطلق نحو النور .

وهذه نظرية كاملة عند الغزالى فى المعرفة ينبغى تحليلها فى ضوء فكر صاحبها ، ونقدها كذلك فى إطار معرفى يسعها ويتسامح معها ، فالغزالى تركيبة أفلاطونية محدثة/ إسلامية عند حديثة عن نظرية النفس الإنسانية والمعرفة المحيطة بها .. وكذلك هو تركيبة يونانية آرسطية / إسلامية عند حديثة عن « ميزان العمل » وضوابط المنطق « الإسلامى » كما يراه هو ، وابتدعه على حد تعبيره .

ويؤمن الغزالى بأن المعرفة بالذات / النفس .. هى أول درجات المعرفة حتى يصل الإنسان إلى أشرف المعارف ، وهى معرفة الله خالقه .. وليست معرفة وجود كما يرى الفلاسفة والمتكلمون ، بل هى معرفة كنه وذات .. فهى تلج الباب ، وتسعى إلى ما بعد ذلك بكثير .. ولذلك فالإنسان يسمو بالمعرفة إلى الملائكية ويتجاوزها .. وبغيرها ينحط إلى أخلاق البهائم وما دونها [1] ..

وبعد .. لم نر فى كلام الغزالى عن النفس والقلب والروح شيئاً عن إبليس أو قدرته وهيمنته على قوى الإنسان الظاهرة أو الباطنة .. فأين ذلك الشيطان الذى طالما تحدث عنه الصوفية ومشبهة المحدثين .. وأسندوا له كثيراً من الأفعال الهائلة والفائقة التى تتجاوز أفعال القدرة الإلهية وفى أقل تقدير لها تساويها ؟!!..

---

(١) انظر فى ذلك رسالة الغزالى : « كيمياء السعادة » ، طبعة مكتبة القرآن ١٩٨٧م ، بتحقيق محمد عبد العليم . وانظر الإحياء جـ٣ / ٤٣ وما بعدها ، طبعة دار البيان العربى ، وكتاب شرح عجائب القلب ، وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات حتى ، ص ٢٦ .

٩- كيف تحدث الخواطر المختلفة

يرى الغزالى كذلك أن مداخل القلب هى الحواس الخمس من حيث الظاهر ، والخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان من حيث الباطن . . فالقلب يحصل له التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب ، وأخص الآثار الحاصلة فى القلب هى الخواطر . .

والخواطر عنده هى التى تحرك الرغبة ، وتنقسم إلى ما يدعو إلى الشر ، أعنى إلى ما يضر فى العاقبة ، وإلى ما يدعوا إلى الخير ، أعنى إلى ما ينفع فى الدار الآخرة ، فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى إسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمى **إلهاماً** ، والخاطر المذموم أعنى الداعى إلى الشر يسمى **وسواساً** .

هكذا نجد الغزالى يؤصل لنظريته فى معرفة النفس وأحوالها ، بوضع المصطلحات التى تتفق مع كل هاجس وخاطر وظرف ، دون أن يخلط بين مصطلح وآخر . . فالأمر **هو مجرد مصطلحات وتسميات** ولا تتعدى ذلك ؛ ولذلك يبنى على ما سبق أن أنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى **ملكاً** ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى **شيطاناً** ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول الخير يسمى **توفيقاً** ، والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى **إغواء وخذلاناً**، **فالمعانى المختلفة تفتقر إلى أسامى مختلفة** .

لقد نجح الغزالى نجاحاً كبير ووقف فى تأصيل النظرية ، حيث وُفِّقَ فى تحديد المصطلح . . ونحن لا نناقشه فى صحة ماحدد أو نبحث عن مصادر هذه المصطلحات فى التصوف العالمى أو الفلسفة اليونانية أو غيرها . . إنما نشير إلى بيان أن ماكان يقصده الغزالى وغيره من علماء الإسلام ، بالشيطان الذى يوسوس للإنسان ، هو الخاطر الداعى للشر ؛ والملك هوالخاطر الذى يدعو للخير . . وهكذا .

لقد أشار إلى ذلك الغزالى نفسه ، حيث قال إن الوسوسة فى مقابلة الإلهام ، والشيطان فى مقابلة الملك ، والتوفيق فى مقابلة الخذلان . . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك . . أى إن خاطر الخير فى مقابل خاطر الشر ؛ لا أكثر .

وربما كانت هى النوازع والميول المتباينة المركبة فى النفس الإنسانية .. والدين والأخلاق والعادات والموروث والبيئة هى التى تخرج الخير منها أو الشرير ..

ولهذين الخاطرين ، أو لمة الملك ولمة الشيطان ، سلطان على الإنسان ولا فكاك له من أحدهما .. ويخرج إلى عالم الوجد أحدهما دون الآخر ، بتأثير من المؤثرات التى أشرنا إليها سابقاً .. والشيطان جنوده الشهوة واللذة .. فإن أقبل الإنسان على الدنيا تسلط الشيطان ، بحكم ما يجده من مرتع للشهوات .. وإن انصرف القلب عن الشهوات تسلط الملك وألهم .. فمعركة القلب دائمة إلى أن ينفتح لأحدهما فيستوطن ويستمكن .. ويكون اجتياز الثانى اختلاساً .

ولا خلاص للإنسان إلا بذكرالله ، فهو الذى يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال .. ولا يعالج الشئ إلا بضده ، وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرى عن الحول والقوة ..

فإذاً الوسواس معلوم بالمشاهدة ، **وكل خاطر فله سبب** ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ، ولا يتصورأن ينفك عنه آدمى ، وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته ، ولذلك قال ، عليه السلام : **«مامن أحد إلا وله شيطان»** [1] .

ويدعو الغزالى إلى الاشتغال بمحاربة الشيطان ، بدلاً من الاشتغال بالبحث عن كنهه ، وكيف يدخل القلب ويوسوس للإنسان .. وإن عارضناه – إلا أن رأيه له وجاهته فالذى تشتعل بثيابه النيران لا ينشغل بالبحث عن سبب اشتعالها !.. وهو محق فى هذا .. إلاأنه بعد ذلك سيتسائل حتماً عن السبب .. وإلا كان مغفلاً .. وعرضه للحادث مرة أخرى ! [2]

وقد بين أن سلاح الشيطان هو الهوى والشهوات .. والخواطر تنقسم إلى ما يعلم ، وهى إما وسوسة فى الشر ، أو إلهام فى الخير .. وإلى ما لا يعلم وهو الخاطر الذى يتردد بين الاثنين : «والتمييز فى ذلك غامض ، وأكثر العباد به يهلكون» .. وبعد .. رغم مناصرتنا لتحليل الغزالى لكوامن النفس وأحوالها .. إلا أن كتابه «الإحياء»

---

(١) رواه مسلم ، ١٧/١٥٧ – ١٥٨ ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ح (٦٩ – ٧٠ – ٧١) ، وأحمد ، ٦/١١٥ .

(٢) انظر الغزالى : الإحياء ، ٣ / ٤٣ – ٤٧ .

لايخلو من الخرافة ، وهو ما يأخذه عليه الناقدون له بشدة . . ومن ذلك ما يذكره فيقول : « إنما المكاشف فى اليقظة هو الذى انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التى تكون فى المنام ، فيرى **فى اليقظة ما يراه غيره فى المنام** ، كما روى عن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله ، أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى فى المنام جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ، ورأى الشيطان فى صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر ، بين منكبه وأذنه؛ له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله ، تعالى ، خنس . ومثل هذا قد يشاهد بعينه فى اليقظة ، فقد رآه بعض المكاشفين فى صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها ، وكانت الجيفة مثال الدنيا . . .

هذا هو الغزالى ، على جلالة قدره وتنظيره الرائع الذى ذكرنا طرفاً منه من قبل ، يذكر مثل هذه الأمثلة السمجة والتى لا تتفق مع شانه الجليل ، والذى ربما لو سمعه من غيره لسخر منه . . إذ إننا ذكرنا من قبل أن الغزالى نفسه يعلم أن القلب / النفس / الروح يصعب تحديد كنهه أو مكانه من الجسد ، وهل هو عرض أو جسم أوجوهر . . إلا أنه هنا يتنازل عن شخصيته الناقدة الواعية إلى هذا الحضيض . . والذى يدل دلالة واضحة أن الجهل بالتشريح ، أدى لمثل هذه الخرافات التى تعجب العامة وتقنع الخاصة فى زمانه . . ولذلك قلنا للشباب الذى يجهم على كتب التراث فيقرأها من غير مرشد ولا أدلة تضئ له الطريق عند قراءتها . . إنك تقع فى خطأ فادح حيث أن لكل زمان علماءه الواعين بظروف العصر وطبيعة الثقافة فيه . . ولا يمكن لعقلية القرن الخامس الهجرى ، بما حلّها من مجموع علمى وثقافى ، أن تتحكم فى أحوال مسلمى القرن الواحد والعشرين !

لكن من يرى ومن يسمع . . فهذا الشباب يحمل ما هو غث وغثاء ، وكذلك يحمل كل ما هو ثمين ، ويلقى به فى وجوهنا دون تمييز أو نقد !! . . والأسباب التى دعته كثيرة . . منها عدم ثقته – أو فقدانه الثقة – فى الحاضر – علماء وثقافة وقضايا وحلم قومى مفقود . . إلخ . . إلا أنه لا يعذر مع ذلك . . فدواء الجاهل السؤال . . وآخر العلاج الكى . . فليعذرنا – من شاء أن يعذرنا – لصراحتنا . . فقد فاض الكيل

مما نرى ونسمع من سخافات يعتقد البعض – وهم كثيرون – أنها عقائد لا ينبغى مناقشتها !.. وبذلك نقلوا لنا أمراض كل العصور.. وذلات كل العلماء .. والشاذ من الآراء .. وقذفوه فى وجوهنا – مرة اعتراضاً ، ومرة حقداً وحسداً – على من وممن، لا أدرى والبقية تأتى ؟!!..

القصد .. ربما ساعدنا ما سبق وأشرنا إليه فى هذه المقالة على تصور صحى وصحيح – بعيداً عن الوهم والترهات – فها هو الغزالى حجة الإسلام بحق فى عصره.. يبين أن الشيطان والملك والإلهام والوسوسة هى مجرد تسميات مختلفة لأمور وأحوال وخواطر متباينة ، حاول من خلالها تفسير ماهية الأحوال النفسية كيف تبدأ ومن أين تنشأ وكيف تتطور ، وما الداعى لها والباعث عليها ، وكيف يمكن تقويم وترشيد قوى النفس / القلب / الروح من نوح كثيرة كتابنا هذا ليس مجاله البحث فيها .. غيرأن ما ذكرنا إطلاله قوية لبيان أن الأمر محصور فى الخواطر ، وعلى من يعبد الشيطان أو يدعى أن الله وظفه للوسوسة وإضلال الإنسان وإغوائه ، البحث عن أكاذيب أخرى يمنى بها النفس ، ولن نعزيه فى عقله القاصر ، إن هو لجأ بعد بيان الحجة إلى التذرع بأدلة أخرى ننقدها عليه إن شاء الله ، تعالى ، بمنه وفضله .

***

الفصل الخامس

الشيطان يجرى مجرى الدم!

١- الشيطان والغضب .

٢- الشيطان يجرى مجرى الدم .

٣- بات على خيشومه الشيطان !

٤- الشيطان والتثاؤب .

٥- الذى أجاره الله من الشيطان .

الفصل الخامس

الشيطان يجرى مجرى الدم !

إن التفكير الردئ فى كوامن النفس يزكى الشر فى الإنسان ويدفعه لأذى الآخرين، فالكبر والحسد والغل والغيظ ونيران الغضب تعمى الإنسان عن حقيقة نفسه ، فلما خلقه الله وكيف يرد شرور نفسه عن غيره ، .. فإذا غضب كظم غيظه وعفى ، وإذا نازعته نفسه لفعل الشر تذكر ربه وأنه قادر عليه .. فلا يبادل الشيطان أفعاله فيصير مثله سواء بسواء .

صدق رسول الله ﷺ حين قال : «**الغضب من الشيطان**» (١) .. فدوافع الغضب تأتيك من شيطان الإنس الذى تلاعبت به نفسه ، فشاركه الشيطان فى حظها وصار مفتاحاً يصل به إلى تحريك الأذى والشر فيك أنت .. فصارت حركة نفسك مقيدة بردود أفعال شيطانية ، والله يريد منك أن تسيطر على نفسك وتمتلك قواك ، فلا تدعها قيداً فى يد غيرك .. يريدك أن تسمو به وتشرف بالنسبة له .. وأن تنتمى إلى من رضى عنهم ورضوا عنه .. فصنع لنفسك مقياساً ومعياراً ربانياً تعرف به عند الغضب ، أتغضب لله ولانتهاك حقوقه وحدوده أم لنفسك الأمارة بالسوء؟!.. قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ ﴾ (٢) .

لابد أن النبى ﷺ ، حين قال : «**إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم**» كان يكنى عن مدى ما يفعله الغضب بالإنسان ، ولم يقصد أن هناك كائناً حياً يعيش ويجرى فى دم المسلم حين يغضب .. فالغضب فى حد ذاته ليس كله شراً .. فمن الغضب ما هو خير ، كالغضب عندما تنتهك حرمه من حرمات الله .. أو غضب المسلم لعرضه وشرفه ، أو عندما يقدم على قتال الأعداء فى المعركة ، فهذا غضب يحبه الله وتباركه السماء .

---

(١) رواه ابن عساكر عن معاوية ، السيوطى الجامع الصغير ؛ ٢ / ٧٣ ، وقال : ضعيف . وأحمد ؛ ٤ / ٢٢٦ عن عطيه بن سعد ؛ وابو داود ؛ ٤ / ٢٤٩ ، ح (٤٧٨٤) كتاب الأدب ، وابو نعيم فى الحلية ؛ ٢ / ١٣٠ ، والمناوى فى فيض القدير؛ ٢ / ٣٧٧ .

(٢) سورة الشمس الآيتان ٧ – ٨ .

فليس الكلام على إطلاقه ، إلا أن له مصادر وموارد ، فمن علم مصادره وموارده أراح واستراح .

فما يكون هذا المسلم الذى يستكين ويتخاذل ولا يغضب حين تغتصب أمام عينيه الأعراض ، ولا يهب غاضباً لدينه ويصدُّ من اعتدى ؟!

لقد اغتصبت دول وانتهكت أعراض النساء وقتل الرجال والأطفال ، ولم يثر فى العروق العربية والإسلامية دم !! .. وقرأ الناس الأخبار فى الجرائد والصحف السيارة وسمعوها فى الإذاعات المختلفة ورأوها رأى العين – إى والله – وهم يأكلون ، فما قاموا عن طعامهم والتهامهم ما لذ وطاب .. وليغتصب من يغتصب وليمت من يمت .. طالما أن الحريق فى غير دارنا ، والقتلى ليسوا من ذوى الرحم فلا يهم ، ولتستمر الحياة .

ماخاصمنا قاتلاً ولا شجبنا على غاصب ، وتركناهم يرعون فى بلاد المسلمين – فى أفظع لا مبالاة أصيب بها العالم الإسلامى – حدث ذلك فى فلسطين وما فزعنا ، وفى البوسنة والهرسك وكوسوفا وكشمير والصومال ... فمن نحن ومن نكون ؟!.. أى طعام نأكل وأى شراب نشرب يصيبنا بكل هذا الجبن الخذلان !

ألا نغضب لماحدث لإخواننا العرب بجنوب لبنان ، أم نمصمص الشفاة توكلاً على الله ، الذى سيقتل أعداءنا فداء لعيوننا نحن الجبناء !.. أين الغضب العربى .. بل الإسلامى المحمدى ؟!.. أين محمداً وصحبه والمعتصم ومن ملؤا الدنيا خيلاً ورجلاً ، عندما اغتصب عرض امرأة مسلمة فى أقصى الأرض ؟!

دفعنى إلى ذكر ، ما سبق خطيب جاهل للجمعة لم يفهم من الغضب إلا الاستكانة والتحلى بالصبر ، عندما يلطمك أحد على خدك الأيسر !!.. ولم يفرق بين غضب وغضب .. وبين ماالله وما للنفس .. وصادف فى هذا اليوم أن إحدى الجرائد صدرت صفحاتها الأولى بصورة لفتاة بوسنية مذبوحة ، بعدما اغتصبت على مرآى ومسمع من أهلها الذين قتلوا ودفنوا فى مقابر جماعية ، فى أسوأ وأبشع عمل إجرامى .. ألا تغضب أيها الخطيب الهمام لما حدث؟!.. ألا لانامت أعين الجبناء!!..

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ ﴾ (٢) .

ماذا نقول لله إن حاججنا بدماء المسلمين الذين أبيدوا بنيران الروس ، ودمرت بيوتهم فوق رؤسهم وسالت الأودية بدمائهم الحرة الغالية ، وهم يصدون الدب الكافر عن أنفسهم وأرضهم ؟!.. ماذا سنقول ؟!.. نقول له : لم نغضب يا ربنا لأننا دعونا لهم فى رمضان ، والسماء تمطرهم بالقنابل والنابلم والقذائف المحرمة دولياً والأسلحة التى جربت فيهم لأول مرة ، بأن تنصرهم ... واكتفينا .. ثم تجمعنا على موائد الطعام ننسفها وتمددنا كالبغال فى الحصباء !

أعلم أن هناك من أغبياء العقول من سيغضب منى ، لأنى تطاولت عليه وعلى أمثاله، ولكنى لن أغضب منه بل سأرثى له ولأمثاله من الجبناء ، الذين لايفكرون حتى كيف يمسحون أفواههم بعد أن يأكلوا .. ألا تسمعون القرآن مثلى حين يقول المولى ، عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠ ﴾ (٤) .

إن هناك من الناس صنف لا يغضب إلا إذا حرم من شهوات نفسه ، أو غبن فى بعض دريهمات .. فهوى النفس ، والتماع الدينار الأصفر هما بواعث الغضب عنده.. وهؤلاء لا يجرى الشيطان فى دمائهم ، بل هم شياطين ومصاصو دماء .. لا يشبعون إلا إذا ولغوا فى دماء المحرومين وأكلوا أموال اليتامى والمساكين ، وتاجروا

---

(١) سورة محمد آية ٧ .
(٢) سورة الشورى الآيات ٣٩ - ٤١ .
(٣) سورة الأنفال آية ٧٢ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٦٠ .

فى أوجاع الناس وجراحهم .. وأمثال هؤلاء كثيرون فى بلادنا الآن ، منهم تجار وزراع وأطباء وأصحاب حرف وأصحاب ولاية على أموال المسلمين .. والغضب والثورة على هؤلاء وزجرهم لله .. وغضبهم من الشيطان ، وهم حلفاؤه ، لا شك فى ذلك أبداً .

***

١- الشيطان والغضب

عن سليمان بن صُرد قال : **«كنت جالساً مع النبى ﷺ ورجلان يستبان ، فأحدهما أحمرُ وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبى ﷺ : إنى لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد . فقالوا له : إن النبى ﷺ قال : تعوذ بالله من الشيطان ، فقال : وهل بى جنون؟!..»** [١] .

يعد الغضب باباً من أبواب الشركبيراً ؛ وذلك أن من يغضب يحمله غضبه على كل حماقة ويعميه عن التريث والاتزان ، لأنه يخرجه عن حد الاعتدال ؛ ولا يملك من نفسه شيئًا فينسى مكارمها ، ويقع فى براثنها وأسوأ ما فيها من كبر واستعلاء وعناد؛ فيهجم حيث كان من الواجب التوقف أوالتراجع ، ويسب حيث كان عليه الصبر والعفو والتسامح . . ولأن كل ما فى الغضب من شرور يفجر كوامن النفس الأمارة بالسوء نسبت إلى فعل الشيطان الرجيم ، وكأنه حين يثور الغضبان يصير شيطاناً بتأثير أفعاله ويرتكب معاصيه وحماقاته .

وفى الحديث كان الأولى بمن نصح بالتعوذ بالله من الشيطان أن يمتثل للإرشاد والنصح ؛ وأن يعلم أن فى طاعة رسول الله ، ﷺ ، الخير كل الخير فى الدنيا والآخرة ؛ ولكنه ركب غضبه وغلبه داعى السوء من نفسه فزجر الناصح الدال على الخير ؛ وآثر حرارة الغضب وسعيره على برد الرضا والتسليم والثبات والصبر ، فأساء حيث كان من الواجب عليه الإحسان لمن أسدى له جميل النصح ؛ وربما كان كافراً أومنافقاً أو على أقلِ تقدير من جفاة الأعراب قساة القلوب ؛ الذين لم تلن بعد عريكتهم بالإيمان والعمل الصالح والتربية المحمدية المؤثرة ؛ فظن أن الاستعاذة من الشيطان لا تكون إلا فى حق المجنون ؛ وهو لم يكن مجنوناً فى اعتقاده ليأتيها ، أى الاستعاذه ، وهو ظن خاطئ منه وقياس فاسد .

إن الغضب أحد الأسلحة الشيطانية الحادة التى يسلها الشيطان – الإنسى أو الجنى– على عدوه ، فيقضى عليه ويجهز على ما تبقى من اتزانه وهدوئه ، فإن كان له مال أو عقار أو ثياب أو أثاث أو ماعز عليه من عرض الدنيا ، قام إليه فأفسده تحت

---

(١) البخارى ، ٦ / ٣٨٨ ، حديث رقم ٣٢٨٢ ، ١٠ / ٤٧٩ – ٤٨٠ حديث ٦٠٤٨ .

وطأة الغضب وحرارته ؛ هذا إن لم يقم على من أغضبه قاتلاً أو ضارباً أو سباباً ؛ وكل ذلك أمارة من أمارت فساد النفس فى هذا الوقت وخروجها عن السيطرة ، قال، ﷺ : «إن الغضب من الشيطان» [1] أى أن مصدره من الشيطان ، أو هو فعل كفعل الشيطان ، أو هو شر مجلوب على الإنسان من عدوه وعدو أبيه آدم ؛ يدخل به عليهم ، فيفسد إيمانهم ودينهم وأموالهم وجملة حياتهم .

وربما كان المفيد بيان قيمة التربية وتعليمها ، ومعرفة أسسها بالنسبة للمربين والمؤدبين ومن يعمل فى سلك التعليم والتدريس بدرجاته المختلفة ، فى درأ الغضب الناتج من عملية الاحتكاك والاختلاط فى الفصول التعليمية بالطلاب ، فكثيراً ما أجد معلماً يضج من حيل تلاميذه وصخبهم فى الفصل ، أو عدم التزامهم بآداب التعلم أثناء الشرح .. ويتحول حلمه إلى غضب .. وسعة صدره إلى ضيق .. وتظلم الدنيا فى وجهه ، فيسئ إلى نفسه وإلى العملية التعليمية بأسرها .. فإن تهور فى ضرب بعض طلابه ساءت سمعته لديهم وفشل فى خطب ودهم ، وعجز توصيل المادة التعليمية لهم..

ولهذا المعلم أنصحه بدراسة أصول التربية وممارسة تأثيراتها المختلفة ، على نفسه ، قبل أن يمارسها على غيره .. ثم يوسع الدائرة فيطبق ما تعلمه على أولاده .. وليفسح صدره ويروض نفسه على كظم الغيظ ، وتهدأتها عندما يَثيره مثير ما من المثيرات التي تعرض له .. فهدوء النفس ضرورة من الضرورات التى ينبغى أن يتحلى بها المعلم.. ثم معرفة باب الحيل التربوية ، والابتكار والإبداع فيها ، سيساعده عند القيام بالتدريس .. فالمعلم واسع الحيلة صاحب الحضور الذهنى والإخلاص فى عمله ، لن يلجأ أبداً للغضب والتهور على تلاميذه .. وهناك مئات من الطرق التربوية التى يمكن للمعلم أن يستغلها عند قيامه بالتدريس فى الفصل أو المعمل أو فى فناء المدرسة..

عندما يضطرب سلوك المعلم تهتز شخصيته ، وعندما تهتز شخصيته ، لا يمتلك أدواته ، وكل ذلك بمرأى من التلاميذ ، ولا يمكن أن يستجمع قواه بعد ذلك لممارسة مهنته بعد ذلك ، والسبب هو سرعة غضبه وتهوره الناتج عن قلة خبرته وجهله

---

(١) اخرجه : ابو داود ، ٤ / ٢٤٩ (كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب) . ح (٤٧٨٣) .

بالأصول التربوية لممارسة التعليم .. وبعد ذلك نجد أمثال هذا المعلم يتجنى على التلاميذ بأنهم شياطين أو أولاد شياطين ، وأن الشيطان هو الذى جعله يمارس القهر والتعذيب على الأطفال ، سيما من لم يبلغ منهم سن السادسة .

صادفت أثناء إشرافى على مدرسى المرحلة الابتدائية والإعدادية ، معلمة فى الصفوف الدنيا .. تعاقب طالبة لها بسبب أنها لا تعرف كيف تكتب .. ولم يكن من أهداف هذه المرحلة تعليم الطفلة الجملية معرفة الكتابة بقدر تحبيبها فى التعليم والمدرسة وتمكينها من استكشاف العالم من حولها بشكل أفضل .. ودخلت عليها الفصل وهى تعاقبها ، وقد امتلكها الغضب والثورة .. فماذا أقول لمثل هذه المعلمة .. هل الجهل هو الذى دفعها إلى مثل هذا السلوك .. أم الشيطان أم هما معاً ؟!

علينا أن نتعقل عند ممارسة الخبرات فى الحياة ، فالحياة ليست قسمة بيننا وبين الشيطان .. نحن نصلح وهو يفسد ، ونبنى وهو يهدم .. لا .. بل علينا أن نستفيد من تجارب الآخرين ونكثر من جمع الخبرات وترتيبها واستدعائها عند اللزوم لننتفع بها ..

لقد تأخذنا بعض الممارسات الحياتية إلى طريق مسدود ، عند التعامل مع بعض الأشخاص .. وعلينا عند إذ أن نعلن فشلنا فى التعامل معهم ، وإعداد النفس مرة أخرى لجولات جديدة ، نعيدُ فيها التجربة من جديد فى ضوء معطيات أخرى ، فليس هناك مستحيل فى الحياة .. ولا يوجد من البشر من يستحيل الاتصال به عن طريق وسيلة من الوسائل .. والسؤال هو كم من الوسائل تعرف ؟!.. فإن أجبت على هذا السؤال .. فقد فهمت من أين تأتى بواعث الغضب .

* * *

٢- الشيطان يجرى مجرى الدم

عن صفية بنت حيّ قالت : «**كان رسول الله ﷺ معتكفاً ،فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ثم قمت فانقلبت ، فقام معي ليقلبني - وكان سكنها في دار أسامة بن زيد - فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال النبي ﷺ : على رسلكما ، إنها صفية بنت حي . فقالا : سبحان الله يارسول الله !!.. قال : إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً . أو قال شيئاً**» [١] .

ذكر الحافظ في كتاب «الاعتكاف» في باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ؟.. أن محصل روايات هذا الحديث تفيد أن النبي ﷺ لم ينسبهما إلى أنهما يظنان سوءاً ، لما تقرر عنده من صدق إيمانهما ، ولكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك ؛ لأنهما غير معصومين فقد يفضي بهما إلى الهلاك ، فبادر إلى إعلامهما حسماً للمادة ، وتعليماً لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك .

وحديثه يفيد أن هذه الوسوسة قد تكون سوء ظن بمن لا يجوز في حقه مثل ذلك، وأن سوء الظن من الشيطان ؛ يقول الحافظ : وغفل البزار فطعن في حديث صفية هذا ، واستبعد وقوعه ولم يأت بطائل» .

أما قوله ﴿ إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم.. ﴾ أو أنه يجرى من الإنسان مجرى الدم .. إلخ إما على ظاهره وأن الله ، تعالى ، أقدره على ذلك .. وهو ما نستبعده ؛ لأن اللغة عرفت المجاز وهو كناية على سرعة وقوع الإنسان في الهوى والشهوات ، ومنها إساءة الظن وكل ذلك أفعال إبليس .. أما ظاهره فيرده القرآن الكريم حيث بين أن الشيطان منذ خرج من الجنة فهو ذليل حقير ضعيف ؛ كما أن الله خلق الجن لعبادته لا لإغواء الناس قال تعالى : ﴿ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴿١٣﴾ ﴾ [٢] ومن أذله الله كيف يقدره على عباده فيؤثر في قدراتهم وإرادتهم في الطاعة ؟!.. وهو ظن سئ في الله أن يحب عباده الإيمان به ، فيسلط عليهم من يضلهم عنه!

---

(١) البخاري ؛ ٦ / ٣٨٨ ، حديث رقم ٣٢٨١ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٣ .

وقال تعالى في حقه : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ... ﴾ [1] ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [2] ولا يعقل لمن هذا شأنه أن يقدر على ما قدر عليه ربه من الوصول إلى أسرار القلوب فيتلاعب بها ويوسوس فيها !.

أما من قال: إن هذا على سبيل الاستعارة من كثرة إغوائه ، وكأنه لا يفارق الدم ، فاشتركا في شدة الاتصال وعدم المفارقة .. فقد أصاب الحقيقة ووفق إلى تخريج معاني الحديث على وجه يتقبله العقل والشرع جميعاً [3] .

إن معالجة النفس ومداواتها خيرمن الندم حال الوقوع في الخطيئة ، والنفس نازعة إلى الشهوة والهوى وملذاتها طواقه إلى ذلك .. ولوانها أخذت حدَّها وكفايتها من الحلال ؛ لكان ذلك خيراً لها ولصاحبها ، إلا إنها تميل إلى الفضول الذى يتخمها ، إن طلبت حلالاً ، والذى يهلكها إن رتعت في مرتع حرام ..

والبدن تابع للنفس فإن مالت ونزعت إلى التفريط أو الإفراط ، جارت عليه وأعلّته .. فما بالك وجل رغبات النفس وميولها نحو المحرمات !!

وعند التأمل في قطف النفس لثمار اللذة من الحلال وقضاء الوتر فيه ، شهوة كانت للبطن أو الفرج ، دون رادع يردعها أو ناصح ينصحها ، يؤدى حتماً إلى الضرر البالغ بصاحبها ..

وإن كانت شهوتها في الإفضاء إلى إلفها في الحلال ، بإفراط ودون ضابط يهلكها ويقضي عليها في مقتبل عمرها .. فما بالك لو كان كل ذلك في حرام ؟!.. ما أسوأ العاقبة على النفس ..

ومعالجة الشهوة واللذة عند بدأها خير من مداواة آثارها .. والصبر على الهوى خير من اتباع شيطانه .. فالنفس تسوق الإنسان إلى هلاكه ، إن لم يسهر عليها ناصحاً ومهذباً ومؤدباً ، لعلها تتزكى أو تصير إلى الاعتدال ، وهو ما ينغص على الشيطان أمره.

* * *

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨ .

(٢) سورة الإسراء آية ١٨ .

(٣) الفتح ، ٤ / ٣٢٨ - ٣٢٩ .

٣- بات الشيطان على خيشومه !

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «**إذا استيقظ - أراه - (قال :) أحدكم - من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثًا ، فإنَّ الشيطان يبيت على خيشومه**»[١] .

كيف يبيت الشيطان على خيشوم العبد المسلم المتوضأ الذى غفل عن الاستنثار؟!.. أو لكل مسلم نام ثم قام ليتوضأ ويصلى الفجر يفعل به الشيطان هذا إن لم يستنثر؟ فهل صار المسلم مأوى للشيطان ؟!..

يقول الحافظ ابن حجر : ظاهر الحديث أن هذا يقع لكل نائم[٢] ، وهذا الظاهر غير مقصود على مانعتقد ، وإلا كان معناه معارضاً بغيره من الأحاديث والقرآن والنص لا يختلف ولا يتناقض ، كما أن العقل يرفض إذ إن الحس هو نافذة الإدراك ، ولم يشاهد أحد من المسلمين ، أو من غيرهم ، شيطاناً نائماً على خيشومه أو أحس بذلك !

ويحتمل أن يكون مخصوصاً بمن لم يحترس من الشيطان بشئ من الذكر ، لحديث أبى هريرة المذكور قبل حديث سعد ، فإن فيه « فكانت له حرزاً من الشيطان »، وكذلك آية الكرسى ، وقد تقدم فيه « ولايقربك شيطان » ..

ذكرنا من قبل رأى الإمام أحمد بأن شيطان الإنسان إنسان مثله بنص القرآن الكريم، أو هو الهوى والشهوات ، فشيطان الإنسان من داخله ، فنوازع الإنسان ودوافعه هى شيطانه الحقيقى ، وكل فعل يفعله يقصد به معصية ربه فهو يرضى الشيطان ويحبه ويفرحه ؛ لأنه يوافق هواه ومراده من بنى آدم الذى أقسم أن يضلهم عن الحق والتوحيد ، قال تعالى : ﴿ **قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)** ﴾[٣] فهو بذلك يشارك الإنسان ، وهو بذلك تنسب إليه كل أفعال الشر ؛ لأنه أول من عصى وتكبر وانحراف عن سواء الصراط .

---

(١) البخارى ٦ / ٣٩١ حديث ٣٢٩٥ .

(٢) الفتح ٦ / ٣٩٥ .

(٣) سورة الإسراء آية ٦٢ - ٦٤

ويحتمل أن يكون المراد بنفى القرب هنا ، أن لا يقرب من المكان الذى يوسوس فيه، وهو القلب ، فيكون مبيته على الأنف ؛ ليتوصل منه إلى القلب إذا استيقظ ، فمن استنثر منعه من التوصل إلى ما يقصد من الوسوسة ، فحينئذ فالحديث متناول لكل مستيقظ .

ولو كان هذا الذى ذكره الحافظ مجرد رأى لا تأثير له على مجموع المسلمين أوخاصاً به ، لقلنا أنه كلام عابر ، ولا ضرر من ورائه إلا أن هناك أمة صارت هذه الآراء معتقدات لها ومذاهب ، وجاء علماء من قبله ومن بعده يشققون فى المعانى .. وكان ما يقولون حقاً يتبع أولازم الاتباع .. والحقيقة غير ذلك .. فأى دين أو عقل يمكن تقبل هذا الكلام .. هل جاء بهذا الإسلام أوجد فى خط كتاب ، أو عقله عاقل ليقبل أو سبق أن تناقلته العرب أو أثر عن صحابة رسول الله ﷺ ، أن الشيطان نام على أنوفهم ؟! من يشهد بذلك فهو محق ..

ومن جاء بآية واحدة تدل على أن منام الشياطين أنوف عباد الله – مسلمين أو غير مسلمين – فهو محق ، ومن دلته مدارك الحس فيه أن الشيطان نام على أنه فهو محق.. ومن شاهد الشيطان نائماً على أنف غيره فهو محق.. ومن شاهد شيطاناً يوسوسه أو يقذف فى قلبه ما توهمه هؤلاء القوم فهو محق ، ومن لم يجد من ذلك شيئاً فليعلم أن ماراجع فى هذا الموضوع واستقر فى أوهام وخيالات المسلمين من هذا الحديث فهو باطل باطل لا أصل له فى دين الله وكتابه ولا يقبله عقل عاقل.. ومن قال بغير ذلك فهو على ملة غير ملة الإسلام مكابر لعقله ومعاند ، ولا فائدة فى أمة اشتغلت بالضلالات واعتبرتها أدياناً تدين بها لربها ..

وليعلم من يقرأ كتابنا أن غرضنا الإصلاح الدينى وتقويم مفاهيم الأمة لدينها .. فإن التوحيد إذا فسد فسد دين المسلمين ، ومنهج الفهم والاستقبال واضح لا لبس فيه، كتاب لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وما صح من حديث رسول الله ﷺ ووافق الكتاب بلا أدنى شبهة أو إغراق فى التأويل أو توفيق بين المتعارضات والمتناقضات .

فالكتاب لا يتعارض ولا يختلف ولا يتناقض وكذلك السنة ؛ وكلاهما لا يتعارض مع صاحبه ، والتوفيق والجمع بين الكتاب والسنة ، عند التعارض ، تكلف مرفوض ،

فأحدهما – عند وجود الرواية الصحيحة السند وتناقضها مع القرآن – صحيح ، ولا يعقل صحة السنة وتكذيب الكتاب إلا عند المهوسين بآثار الرواة ؛ الذين جعلوا الكتاب وحقائقه وأصول الدين فيه وراءهم ظهرياً ؛ ودفعوا ما دون عقائدهم التى كوَّنوها من مجموع روايات وآثار تكلفوا جمعها واستنتجوا من فهمها ديناً آخر غير الإسلام ! .

يضاف إلى ذلك المنهج الذى قررناه من الكتاب والسنة كمصدرين أصيلين للعقائد وغيرها ، المنهج العقلى القائم على تقرير البديهيات أولاً والاتفاق عليها ؛ ومصاحبة الدليل والأخذ بالاستنباط والاستقراء والقياس والمشاهدة والاستدلال والنظر فى الأدلة حسب الأصول المقررة والمقدمات ، الصحيحة فى ذاتها ، وترتيبها على وجه منتج صحيح .

كما أن **للغة العربية ومعانيها وتصاريفها** وما يصح من استخدامات العرب لوجوه البيان فيها والبلاغة أهمية بالغة فى فهم الكتاب ومراد الله منه ؛ لأن العرب أقدر الناس على استقبال كتاب الله وآيات التنزيل ، وفهمها على الوجه الذى أراده الله عز وجل . . فعرفوا نواحى الإعجاز البيانى والبلاغى فيه ، ووقفوا عندها مشدوهين ومدهوشين . . وسلموا بأنه أكبر من أن يكون قول بشر منهم ، وهم أصحاب البلاغة والفصاحة، . . **والقرآن كتاب عربى نزل بلسان عربى . . ولا يعقل إهمال المنهج اللغوى بما يزخر من أدوات تساعد على الفهم والوصول إلى مقاصد الشارع ، بعد أن حس الله على تدبر** آياته ، ولا تدبر للآيات بدون أسس تأتى فى مقدمتها اللغة التى نزل بها الكتاب . فإذا كان الكتاب عربياً وآياته عربية وكلماته عربية ولالاته عربية وألفاظه عربية ومعانيه عربية ، وتراكيبه وأمثاله وبلاغته وبيانه عربية . . كيف يمكن تجاوز عامل اللغة وإقصائها من منهج التفسير والتأويل بأى حال من الأحوال ؟!!

* * *

٤- الشيطان والتثاؤب

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «**التثاؤب من الشيطان ؛ فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإنَّ أحدكم إذا قال : ها . ضحك الشيطان**» [١] .

ذكر البخارى فى « كتاب الأدب » باب « إذا تثاءب فليضع يده على فيه » عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «**إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ، فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له : يرحمك الله .. وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ؛ فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان**» [٢] .

فى شرحه معنى قوله ﷺ « **وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان** » قال ابن حجر : قال ابن بطال : إضافة التثاؤب إلى الشيطان بمعنى إضافة الرضا والإرادة ، أى أن الشيطان يحب أن يرى الإنسان متثائباً ؛ لأنها حالة تتغير فيها صورته فيضحك منه . لا أن المراد أن الشيطان فعل التثاؤب . وهوتوجيه صحيح وافقه عليه ابن العربى فقال : قد بينا أن كل فعل مكروه نسبه الشرع إلى الشيطان ؛ لأنه واسطته ، وأن كل فعل (خيِّر) نسبه الشرع إلى الملك ؛ لأنه واسطته .

كما بين ابن العربى طبيعة التثاؤب والعطاس بما يتوافق مع تأويله السابق فقال : والتثاؤب من الامتلاء وينشأ عنه التكاسل وذلك بواسطة الشيطان ، والعطاس من تقليل الغذاء وينشأ عنه النشاط وذلك بواسطة الملك . هذا الكلام أقرب إلى التوصيف والتشخيص الطبى الذى يقبل فى عصره بحسب المفاهيم والمعارف الطبية التى كانت قائمة .. أما فى عصرنا فقد يكون لأمر قريباً من ذلك أو بعيداً عنه .. فهو لا يقبل على عواهنه كما يظن البعض من المقلدين .

كما نفى النووى كون التثاؤب من الشيطان وبين أنه أضيف إليه ؛ لأنه يدعو إلى الشهوات ، إذ يكون عن ثقل البدن واسترخائه وامتلائه ؛ والمراد التحذير من السبب الذى يتولد عنه ذلك وهوالتوسع فى المأكل . ولا يظن أحد أن الناس فى هذا العصر

---

(١) رواه البخارى ؛ ٦ / ٣٨٩ ، حديث ٣٢٨٩ ؛ ومسلم ، وابو داود ، والترمذى ، واحمد ، والطيالسى حديث ٢٣١٥ .
(٢) رواه البخارى ؛ ١٠ / ٦٢٧ ، حديث ٦٢٢٦ .

كانوا فى رغد من العيش .. ولكن تأثير الفكر الصوفى على الوسط الإسلامى كان نافذاً .. واتخذ الأمراء والسلاطين منه آداة إلى خلق توجهات شعبية .. وثقافة موحدة ورأى واحد يتفق عليه العامة - فالدعوة إلى الزهد وقطع العمر فى الزوايا والتكايا والخلوات .. وترك الدنيا وقطع المسلم أو المريد نفسه عن كل ما يشغله بالذكر والدعاء كان هو السائد ساعة إذ .. فما السبب فى ذلك ؟!

السبب يعود إلى تفرد المماليك بالسلطة .. وتحريمهم اشتغال المسلمين بالساسية أو مناقشة الحكام فى الشئون العامة أو الخاصة .. وقبضهم على الأمور بيد من حديد وحرمان الشعب من أدنى حقوقه المدنية .. وإهدار إنسانيته فى أغلب الأوقات .. فبماذا يشتغل شعب حرم من المشاركة فى إدارة شئون وطنه أو إبداء رأيه فى السياسة أو الاقتصاد أو التجارة .. وهى مجالات محرمة عليه ؟!.. يشتغل بالذكر والدعاء والعبادة .. فما نتيجة هذه السياسة المملوكية على الأمة الإسلامية ؟!.. لن أجيب .. لأن الكل يعلم ما حدث للأمة من تخلف وارتداد وتبعيه .. ثم تدهور حالها حتى صارت محتلة على كل المستويات تستجدى قوتها .. ولا تملك أمرها ..

من إذاً الشيطان ؟.. هل هو الحكام الذين ظلموا الأمة .. أم العلماء الذين سكتوا عن الحق والواجب المفروض عليهم فى قيادتها .. أم الشعوب التى استكانت حتى اهدرت حقوقها عن آخرها ؟!.

روى ابن ماجه بسنده من طريق عبدالله بن سعيد المقبرى عن أبيه بلفظ : **«إذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه ولا يعوى ، فإن الشيطان يضحك منه»** [1] ، قال ابن حجر : قال شيخنا فى شرح الترمذى [2] : أكثر روايات الصحيحين فيها **إطلاق التثاؤب**، ووقع فى الرواية الأخرى تقييده بحالة الصلاة ، **فيحتمل أن يحمل المطلق على المقيد** ، وللشيطان غرض قوى فى التشويش على المصلى فى صلاته ، ويحتمل

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ؛ ١ / ٣١٠ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما يكره فى الصلاة ؛ حديث رقم ٩٦٨ ، وفى الزوائد فى إسناده عبدالله بن سعيد ، اتفقوا على ضعفه .

(٢) جاء فى صحيح الجامع للترمذى عن ابى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان ؛ فإذا تثاءب احدكم فليضع يده على فيه ، وإذا قال : آه آه فإن الشيطان يضحك من جوفه ، وإن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ؛ فإذا قال الرجل : آه آه إذا تثاءب فإن الشيطان يضحك فى جوفه » ٥ / ٨٠ حديث ٢٧٤٦ كتاب « الأدب » باب « ما جاء إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب » .. وانظر الحديث ٢٧٤٧ .

أن تكون كراهته فى الصلاة أشد ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكره فى غير حالة الصلاة .

وقد قال بعضهم : إن المطلق إنما يحمل على المقيد فى الأمر لا فى النهى ، ويؤيد كراهيته مطلقاً كونه من الشيطان ، وبذلك صرح النووى [1] ، **قال ابن العربى** : ينبغى كظم التثاؤب فى كل حالة ، وإنما خص الصلاة ؛ لأنها أولى الأحوال بدفعه لما فيه من الخروج عن اعتدال الهيئة واعوجاج الخلقة .

ولا مانع من وصف التثاؤب كسلوك بأنه معيب شكلاً ولا ينبغى ، لكونه باعث على الكسل والاسترخاء ودليل على التوانى ، أما أخذ المعنى على ظاهر بأنه من الشيطان فعلاً فهو ما لا نقبله ؛ **لأن فى اللغة والمجاز اللغوى سعة** ؛ وقد فهم بعض العلماء ذلك كما أشرنا ؛ فهو كناية عن مدى قبح هذا السلوك وليس فعلاً للشيطان ، وإلا تعارض مع القرآن وأصول الدين ؛ لأنه ليس للشيطان على عباد الله سلطان ؛ فضلاً عن أن يكون سلطانه على عباد الله المؤمنين وفى الصلاة التى هى أخص العبادات عند المسلمين .

أما حديث العلماء عن المطلق والمقيد من روايات هذا الحديث فهو من الفضل ويتعارض ، ياليتهم تناولوه فى ضوء أساسيات العقيدة ؛ إذن لأسدوا لنا جميلاً كبيراً . . بدلاً من الحديث عن جزئيات . . وهم على ما فعلوا يشكرون ونحن لهم ممنونون ؛ ولكل مجتهد نصيب .

وجاء فى رواية أبى سعيد تشبيه المتثاءب بالكلب «ولا يعوى» ؛ لأنه إذا أفرط فى التثاؤب شابهه ومن هنا تظهر النكتة فى كونه يضحك منه ، لأنه صيره ملعبة له بتشويه خلقه فى تلك الحالة . . وهو على المجاز جائز ؛ أما على الحقيقة فلا يجوز .

يقول الحافظ ابن حجر: وأما قوله فى رواية مسلم : «فإن الشيطان» [2] فيحتمل أن يراد به الدخول حقيقة ، وهو إن كان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، لكنه لا يتمكن منه ما دام ذاكراً لله تعالى ، والمتثائب فى تلك الحالة غير ذاكر فيتمكن الشيطان من

---

(٢) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٨ / ١٢٠ .

(١) روى الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده ، فإن الشيطان يدخل» ١٨ / ١٢٢ .

الدخول فيه حقيقة [1] .. وهذا أمر لا يجوز عقلاً ولا شرعاً ، وهو تجاوز فى الكلام إنساق له كثير من المحدثين ؛ لأنه يستحيل دخول الجان فى الإنسان لاختلاف الطبيعيتين .. فالإنسان من طين والجان من نار السموم .. والجن غير مكلف بالدخول فى أجسام بنى آدم وغير مأمور بذلك وهو غير قادر عليه .

وآراء المتكلمين فى هذا الموضوع قال عنها الأشعرى : اختلف الناس فى الجن هل يدخلون فى الناس ؟ على مقالتين :

(١) **فقال قوم** : إنه محال أن يدخل الجن فى الناس.. وهذا هو الصواب الذى يتفق مع العقل والدين ويؤيده الطب والتشريح .

(٢) **وقال آخرون** : يجوز أن يدخل الجن فى الناس ؛ لأن أجسام الجن أجسام رقيقة ، فليس بمستنكر أن يدخلوا فى جوف الإنسان من خروقه ، كما يدخل الماء والطعام فى بطن الإنسان ، وهو أكثف من أجسام الجن ؛ وقد يكون الجنين فى بطن أمه ، وهو أكثف جسماً من الشيطان ؛ وليس بمستنكر أن يدخل الشيطان إلى جوف الإنسان [2] . وأصحاب هذا الرأى حاولوا إكسابه صفة عقلية أو شرعية ولكنهم فشلوا .

ويحتمل أن يكون أطلق الدخول وأراد التمكن منه ؛ لأن من شأن من دخل فى شئ أن يكون متمكناً منه . وهو تأويل مقبول يحتمله المعنى والصورة الكلية التى يرسمها الحديث .

ذكر المحدثون أن النبى ﷺ لم يتثاءب أبداً ، وهو من خصائصه النبوية التى خصه الله بها .. « ما تثاءب النبى ﷺ قط » .. وقال ابن حجر : وقع فى « الشفاء لابن سبع » أنه ﷺ كان لا يتمطى ؛ لأنه من الشيطان ، والله أعلم [3] .

* * *

---

(١) انظر الفتح ؛ ١٠ / ٦٢٨ .

(٢) انظر ، الأشعرى : المقالات ؛ ٢ / ١٠٨ .

(٣) انظر الفتح ؛ ١٠ / ٦٢٨ .

٥- الذى أجاره الله من الشيطان

عن علقمة قال : «قدمت الشام ، قالوا : أبو الدرداء ، قال : أفيكم الذى أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ ؟ ... والذى أجاره الله على لسان نبيه ﷺ ، يعنى عماراً» [١] .

والحديث بتمامة فى كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمار وحذيفة ... قال الحافظ والغرض من قوله : «الذى أجاره الله من الشيطان» فإنه يشعر بأن له مزية بذلك على غيره ، ومقتضاه أن للشيطان تسلطاً على من لم يجره الله منه .

ذكر المحدثون روايتين فى سبب قولهم على عمار أنه هو الذى أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه :

١- **أحدهما** : قول النبى ﷺ : «ويح عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» .

والثانية : «ما خُيِّرَ عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما» [٢] .

فكونه يختار أرشد الأمرين دائماً يقتضى أنه قد أجير من الشيطان الذى من شأنه الأمر بالغى .

ذكر ابن سعد فى طبقاته من طريق الحسن قال : «قال عمار : نزلنا منزلا فأخذت قربتى ودلوى لأستقى ، فقال النبى ﷺ : سيأتيك من يمنعك من الماء ، فلما كنت على رأس الماء إذا رجل أسود كأنه مرس ، فصرعته» فذكر الحديث ، وفيه قول النبى ﷺ «ذاك الشيطان» فلعل ابن مسعود أشار إلى هذه القصة [٣] .

وهذا الكلام يدل على معرفة الرسول ، ﷺ ، بما سيحدث من الشيطان ، فلمَ لم يكن فى نصرة عمار عند القليب ؟!.. وما النكتة فى معرفته بما سيحدث من الشيطان ، هل فى هذا إظهار لمعجزته ﷺ أو كرامة لعمار ، رضى الله عنه ، بأن صرع رجلاً أسوداً ؛ كأنه مرس ، وإخبار النبى بعد ذلك له أنه الشيطان ؟!

---

(١) البخارى ، ٦ / ٣٨٩ حديث ٣٢٨٧ - وحديث ٣٧٤٢ - ٣٧٤٣ - وغيرها .

(٢) أخرجه الترمذى ؛ ٥ / ٦٢٧ (كتاب المناقب، باب مناقب عمار ..) حديث (٣٧٩٩) ، وقال السيوطى فى الجامع الصغير رواه الترمذى والحاكم ؛ ٢ / ١٤٥ .. قال : الترمذى هذا حديث حسن غريب ..

(٣) الفتح ؛ ٧ / ١١٦ .

ما النكتة في أن الشيطان لا يكون إلا كلباً أسوداً أو إنساناً أسوداً .. هل هو احتقار للسواد أو استهزاء ببعض المخلوقات لجنسها أو لونها .. ما الذى حقر الكلب أو الإنسان الأسود حتى يشبه بهما عدو الله النكرة إبليس ؟!

الفصل السادس

دولة إبليس !

١ - إبليس على عرش العالم !

٢ - قرنا الشيطان والشمس .

٣ - الشيطان وساعة الميلاد .

٤ - القريـــن !!

٥ - الشيطان والكهان .

٦ - الشيطان والرؤى .

٧ - عمر والشيطان .

الفصل السادس
دولة إبليس

إذا سلمنا أن إبليس على عرش العالم .. وهو المتصرف فى دولة الشر .. وأن له على كل إنسان قريناً .. وانه يأتى كل إنسان ساعة الميلاد فيطعن فى خاصرته كأنه يضع عليه خاتمه ، وأن الشمس تشرق من بين قرنيه .. وأنه يتسمع فى الملأ الأعلى لحساب الكهان .. هو وجنوده .. وله قدرة على النفاذ إلى الإنسان حتى يمتلك خياله فى عالم الرؤى والغيب .. لو تصورنا وسلمنا بكل هذا .. فماذا بقى لدولة الخير .. أو ليس هذا التصور مناقضاً للتوحيد ، وكونه تعالى ﴿ **خالق كل شئ** ﴾ ! .

كيف تنهض أمة التوحيد فى مواجهة اليهود ومن ورائهم من شياطين الإنس وسادة الشر فى العالم إن كانت دولة الشيطان هى المسيطرة على كل ما سبق ؟!..

إن ما جاء فى السنة والأحاديث – إن صح ثبوتها لفظاً ومعنى – فلابد لها من تفسير وتأويل يقصد به التصوير والتقريب .. لا الحقيقة .. فديننا جاء ليحررنا من أوهام المجوس والمانوية والبوذية الذين عبدوا النار والشر والخير والظلام والنور وجعلوا الشيطان شريكاً لله وندا .. تعالى الله عما يشركون .. وكل ما جاء فى تراث الشعوب من تمجيد الشيطان وإعلاء قيمته لا شك ترك أثراً فى نفوس المسلمين ، وخاض كثيرون فى أوحال اليأس والجبرية المقيتة وسلموا بأنه ما أراده الله منهم فى قرآنه وقصده رسوله فى سنته ..

ألا إن السنة مبينة للكتاب وموضحة له .. تسير فى أنوار منهجه وليست ناقضة له .. والحق واحد لا يختلف ولا يتناقض ولا يتضاد ، ومن اعتقد هذا فهو واهم . خرج من التوحيد إلى التحيد .. ومن الإيمان إلى الكفر .. وهو يؤمن بدين غير الإسلام .. إن الإسلام جاء أمناً للإنسان ونوراً يملأ الأكوان .. لا سبيلاً للجهل والخرافة عليه .

خلقنا الله من عدم وأوجد الأكوان والإنسان والجان والملائكة ، وكل ما فى الوجود صنعته .. ولم يجعل لأحد من خلقه سلطاناً على الوجود من دونه .. وإنما هو فتنة

وإبتلاء .. ولا يخرج الأمر عن هذه الحدود ، ما أقسم عليه إبليس مجرد ظن ووهم .. صدقه بنى آدم من سوء فعالهم .. ومن تاب تاب الله عليه وهو الغفور الرحيم .

وفى عصرنا دولة إبليس هى تلك الدولة التى تمد سلطانها وهيمنتها على العالم ، سياسياً واقتصادياً وثقافياً .. وتظن ، لفرط غرورها ، أنها ستضع من نفسها حضارة الزمن الآتى ، وستكون مركزاً لتلك الحضارة ..

فهى تلك الدولة التى تتبنى العنصرية أساساً لتفكيرها وعقيدتها السياسية ، لكونها شعباً مختاراً من قبل الله ، تعالى ، يحق له استعباد العالم .. وتحاول خلق تبعية سياسية لجميع الدول .. وحكم العالم من خلال عدة منظمات ، اتضح تماماً أنها شكلية فمن منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، حتى صندوق النقد الدولى ومنظمة الدول الست ، المتصرفة فى شئون العالم وخلق الأزمات فى كل جزء من العالم .. لتعبر عن هيمنتها التامة .. وامتلاك الأسواق العالمية ، عن طريق اتفاقية الشراكة والجات .. وتعويم العملة .. والسيطرة على السوق العالمية للسلاح والمنتجات الثقيلة .. وفرض الإصلاح الاقتصادى الذى تراه على الدول المدينة ، وبما يتفق مع مصالحها السياسية والاقتصادية .. عن طريق الشركات متعددة الجنسيات والخصخصة .

كما أن دولة إبليس هى تلك الدولة التى ترعى الحكومات العميلة ، وتزرع الحكام التابعين لها مثال ذلك بونشيه فى شيلى ، والعديد من الحكومات فى البرازيل مثل كولور ونهاية بكارلوس منعم فى الأرجنتين .. وكذلك ما حدث فى نيكارجوا .. وربط اقتصاد بعض الدول بها كالمكسيك وكندا .. ثم حكم هذه الدول من داخل الكونجرس بإصدار قوانين يسير مفعولها على هذه الدولة، كما فعلت مع الشركات التى تعاملت مع كوبا أو إيران أو السودان أو ليبيا .. بقانون (هيلمز – بورتون) أو قانون (داماتو) [1] .. لقد عدنا إلى الوراء فصرنا سنّة فى ترس كبير ، يدور بقوة ماكينة تقودها دولة إبليس .. فتحديد سياستنا الاقتصادية بداية من الزراعة ونهاية بالأعمال اليدوية مرهون بتخطيطها .. فهنيئاً للشيطان .. وإلى أن تظهر طبعة

---

(١) انظر روجيه جارودى : كيف نصنع للمستقبل ؟ ، ص ٧٩ .

جديدة من عرب ينشدون طعم الحرية .. ويريدون الحياة فى أرض عربية ، لها حضارة عريقة راسخة .

ودولة الشيطان هى تلك الدولة التى تقهر شعباً عربياً ، أكثر من عشرة أعوام متصلة ، حصاراً وتعذيباً وتدميراً وقتلاً ، حتى خرجت أنفاس أطفاله موتاً واحتجاجاً .. والعالم العربى يستجديها أن ترفع الحصار عنه رحمة بالصغار والشيوخ والمرضى والنساء ، فلا تستجيب .. وهم عاجزون عن مساعدة أختهم الشقيقة التى تذوق الهوان ، خشية بطش وغضب دولة الشيطان !!

ويكفى ماكتبت حتى لا أتهم بأنى أحاول بعث ركاماً بشرياً يسمونه العرب وأؤلبهم ، حتى ينتفضوا فى وجه دولة إبليس التى صنعوها هم بخوفهم وأموالهم التى تطفح بها بنوكها ، وتدير عجلة اقتصادها وتطور به سلاحها الذى تجربه أول ما تجربه فينا نحن !

وحتى لا أتهم بأنى قد أرهبت الشيطان وأفزعته .. فلتنعم سيدى .. فإنهم نائمون .. ولن يستيقظوا إلى يوم يبعثون!

***

١- إبليس على عرش العالم !

روى مسلم بسنده عن جابر قال سمعت النبى ﷺ يقول : **«إن عرش إبليس على البحر فيبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة»** (١) .

وروى أيضا عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجئ أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا. فيقول : ما صنعت شيئاً . قال : ثم يجئ أحدهم فيقول : ماتركته حتى فرقت بينه وبين امرأته . قال : فيدنيه منه ، ويقول : نعم أنت . قال الأعمش : أراه قال : فيلتزمه»** (٢) .

وهذا الحديث يشير إلى أن لإبليس دولة وجنود .. ووظيفته التحريش ببنى آدم وإغوائهم وإيقاعهم فى حبائله .. ويعنى أن إبليس وجنوده مسلطون على بنى آدم ولاهم لهم غير ذلك .. فمن الذى سلطهم ؟.. يبدو أن المجبرة حسموا هذا الأمر وقرروا أن الله ، تعالى ، هو الذى سلط إبليس وجنوده على بنى آدم !.

وهل من العدل تسليط أعدائه على أوليائه ، ليغوهم عن التوحيد والطاعة .. وإذا كان لإبليس كل هذه الطاقات الهائلة والقدرات الفائقة ماذا بقى حتى يساوى الله ، عز وجل ، القادر على كل شئ .. وماحيلة الإنسان فى عدو يأتيه من كل اتجاه وهو لا يقدر على دفعه ودرأ مكائده ؟!

إن هذا الحديث يتعارض مع القرآن والعقل .. والتوحيد والعدل .. وأصول الدين جملة وتفصيلاً .. وهو أشبه بحكايات الرواة منه بأحاديث المعصوم ، عليه الصلاة والسلام .. ولا يقال إنى أرد سنة رسول الله ، ﷺ ، وأنكرها .. فهذه مقالة شنعاء من قوم مفترين ، ضاقت عقولهم وصدورهم عن فهم دينهم .. ومنهم من يهوى الهجوم على العلماء .. وأن يصنع من نفسه حارساً ، حيث لا يحمد من أمثاله أن يكون كذلك .

وعموماً لو فسروا هذا الحديث ووجدوا له تأويلاً يتسع له صدورهم وعقولهم ..

---

(١) مسلم ؛ ١٧ / ١٥٦ حديث ٦٥ .

(٢) مسلم ؛ ١٧ / ١٥٧ حديث ٦٦ .

بأن قالوا إن إبليس الذى قصده الرسول ، ﷺ ، هو إسرائيل وأمريكا حيث تعربد الأولى فى المنطقة العربية كيف شاءت وتضرب بذراعها الطويل ، التى نتمنى قطعهُ ، أى دولة عربية فى أى وقت .. كما حدث لتونس حين ضربتها بحجة راعيتها للمنظمة والفلسطنيين فى الثمانينات .. أو ضربها للمفاعل النووى العراقى العربى .. أو قصفها واحتلالها للبنان .. أو .. إلخ فأنا أوافق على هذا التأويل ..

وإن قالوا إن إبليس وجنوده هى أمريكا ؛ لأنها تضرب العراق مرة والسودان مرة أخرى ، ثم تنعطف فتضرب ليبيا والصومال .. وهى الآن بصدد ضربها لإيران بحجة راعيتها للإهاب(الإسلاميين) الإسلام .. فأنا معهم كذلك .. ولا خلاف بيننا !!

* * *

٢ - قرنا الشيطان والشمس

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا طلع حاجبُ الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز ، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب .. ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولاغروبها ، فإنها تطلع بين قرنى شيطان أو الشيطان» [١] .

حاجب الشمس : طرف قرصها الذى يبدو عند طلوع الشمس ويبقى عند الغروب، وقرنا الشيطان: جانبا رأسه ، فإذا انتصب الشيطان فى محاذاة مطلع الشمس حتى إذا طلعت كانت بين جانبى رأسه لتقع السجدة له إذا سجد عبدة الشمس لها وكذا عند غروبها .. وهو مجرد ظن عبدة الشمس أما أن هناك شيطاناً عند مطلعها؟!.. فهو ما يحتاج إلى تفسير وتأويل .

ومن يشاهد طلوع الشمس لو شاهد الشيطان لرآه منتصباً عندها !.. هكذا تصوروا والصواب أن يقال إنه مجرد مثل ضربه الرسل ﷺ لبيان الأوقات التى نهى عنها الشرع أن يصلى فيها.. أو أن النهى لعدم مشابهة الكفار الذين يسجدون لها ، وهو مذكور نصاً عند مسلم «وحينئذ يسجد لها الكفار» .

عبادة الشمس:

ولقد عبد الناس قديماً الشمس وقدسوها وتوجهوا إليها ، حدث ذلك فى حضارات مختلفة فالمصريون القدماء عبدوا قرص الشمس ، واعتبروا الفرعون ابن الشمس المقدس.. واشتهرت عبادة آمون وتفرعت عنها العديد من الطقوس والشعائر .. والتى بقى من آثارها بعض العادات عند المصريين حتى يومنا هذا .. وكذلك كان الحال عند الآشوريين والفينيقين .

ويبدو أن العديد من القبائل البدائية كانت تعبد الشمس لذاتها ، أو كوسيط بينهم وبين الله .. وهوما تطور فى عقائد الوثنيين القدماء ، عندما أرادوا وضع تصور

---

(١) الفتح ٦ / ٣٨٦ حديث رقم ٣٢٧٢ . ومسلم فى كتاب الإيمان حديث ٨١ ؛ واحمد فى مسنده ٤ / ٢٢٣ ، ٥ / ١٩٠ - والطيالسى حديث ٨٩٦ ، ١١١٧ .

وتفسير لكيفية خلق العالم الميتافيزيقى ، وكيف صدر عنه خلق العالم المادى « الفيزيقى » والذى كان عبارة عن عدة دورات للفلك ، انتهت بدورة فلك القمر ، التى من خلالها خلقت الأرض .

وجاء من بعد ذلك فلاسفة اليونان ، ليضعوا تصوراً كلياً للوجود وخلق العالم ، حرصوا فيه على ربط خلق الأرض بالسماء وما فيها من كواكب ونجوم ومادة .. ومنها ما يرتبط بدورة الأرض وخلقها .. ولذلك تصور من عبد الشمس قديماً أنها ملك من الملائكة ولها نفس وعقل ، ومنها نور الكواكب وضياء العالم ، وتُكوِّنُ الموجودات السفلية ، وهى ملك الفلك - كما يقول الشهرستانى نقلاً عنهم - فتستحق التعظيم والسجود والتبخير والدعاء ، ويسمى هؤلاء بالدينكيتية ، واتخذوا لهم صنماً فى الأرض كوسيط بينهم وبين معبودهم الشمس ، على صورة أربعة أفراس على عجل[1] ، وبيد الصنم شعلة نار . أو تشكيل يمثلها ، يطوفون حوله بالدخان والمزاهر والمعازف لنيل رضاه وإعلاناً منهم لطاعته .

وجعلوا له بيتاً خاص بنوه باسمه ، واوقفوا عليه الضياع والأراضى الواسعة ، وجعلوا كذلك له السدنة والكهنة وحارساً هو الكاهن الأعظم .. وصلُّوا له وصاموا ، وقصده المرضى والزمنى وأصحاب العلل وتوجهوا له بالدعاء والحاجات [2] !!

فقد كان يعرف القدماء التوحيد .. وعبادة الله الواحد خالق الإنسان والأكوان .. ولكنهم ضلوا فى زمن الفترة ، والتى كانت تخلو من الرسالات والهدايات السماوية .. فأرادوا باجتهاداتهم أن يتخذوا إلى الله ، تعالى ، وسطاء من خلقه يشفعون لهم ومع تقادم الزمن قصدوا الوسطاء والشفعاء ، وغفلوا عن جوهر التوحيد .. أو أراد غيرهم تفسير علة الوجود والخلق ، فاعتقد بانها تنتهى إلى الشمس والعقل الاول والمصدر الأول للوجود .

.. وهكذا تعددت الأسباب لعبادة الكواكب والنجوم من عهد إلى آخر ، ومن قوم إلى آخرين .. وهؤلاء ماكانوا يعبدون شيطاناً ولا يقصدونه إجلالاً وهيبة أوخوفاً وخشية .

---

(١) انظر ابن النديم : الفهرست ١ ص ٤٤٨ .

(٢) انظر الشهرستانى : الملل والنحل ٢ / ٦٠٩ ، ٦١٠ .

عبادة الشيطان:

جاءت عبادة الشيطان من خلال الصلة التى أنشاها شياطين الإنس بشياطين الجن، طمعاً فى تسخيرهم أو الانتصار بهم على بنى جنسهم من المستضعفين : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)** ﴾ (١) .

وقال تعالى فى بيان هذه العلاقة وكيف نشأت وأهدافها : ﴿ **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)** ﴾ (٢) فالشراكة التى بينهم جمعتهم على الضلال والكفر والرغبة فى خراب العالم ودماره ، وإغواء البشر وإهلاكهم هو مقصدهم الأسمى .. لقد رغبوا فى الشر والفساد .. وأراد الله هدايتهم فأبوا إلا الفسق والفجور، بما ركب فيهم من طبائع فاسدة ونفوس خبيثة غلب عليها حب الشر وكراهية الخير ﴿ **فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)** ﴾ (٣) .

وزادت صلة الإنسان بالشيطان فى القرن العشرين فاشتعلت الحروب أكثر وشاع الدمار فى العالم من خلال حربين كونيتين أهلكت أكثر من خمسين مليون إنسان ، وانقسم العالم بعدها إلى معسكرين أحدهما شرقى . تمثل فى الاتجاه الشيوعى الذى أمته روسيا .. والآخر رأسمالى غربى تزعمته أمريكا .. وبين قطبى الرحى تمزق العالم وقامت الحروب ، ولم تهدأ نيرانها فى أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

وسقطت الخلافة الإسلامية وتحالف العرب والمسلمون مع القطبين العالميين .. وأذنت شمس الحضارة العربية بالزوال إلى غير رجعة - لولا رحمة ربى - وتحكمت الاستراتيجيات والأيدلوجيات المختلفة بالمنطقة ، ودارت حركة الحياة فى بلادنا تبعاً للشرق أو للغرب وما زالت .

فمتى تكونت وتأسست جمعيات وأندية عبادة الشيطان وأين ؟!.. تأسست فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وأول ما كان ظهورها فى أمريكا وأوربا .. وأعلنت

---

(١) سورة الأنعام آية ١١٢ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢١ .

(٣) سورة الأعراف آية ٣٠ .

صراحة عبادتها للشيطان ، والقليل منها الذى استحى من الإعلان أو رغب فى إخفاء هدفه ، لمقاصد سياسية واجتماعية منعته .. أوحاول التبشير بها .. وضمت هذه الجمعيات العلنية أو السرية كثيراً من كبار المفكرين والفلاسفة والعلماء والأثرياء ، من أمريكا وانجلترا وفرنسا وألمانيا .. وبدأ عصر من التحلل الخلقى سعياً وراء اللذة .

وتعود الدعوة إلى عبادة الشيطان إلى أمريكا ، حيث تأسست جمعية المتشيطنون Sataniat .. وهو إعلان ضمنى لخلع عبادة الله والالتزام بالشرائع والأخلاق .. وعبادة الشيطان والهوى والغريزة ، فكان هدف هذه الجمعية إشباع الغرائز الجنسية ، وممارسة السحرالأسود وشرب المخدرات بأنواعها .. وإعلان طقوس وشعائر جديدة تناسب أفعالهم .

لقد رغبوا فى فعل شئ وأى شئ .. تحت ما يسمى بالحرية البدائية أو المطلقة .. والعودة بالإنسان إلى الحرية الأولى ، والعهد الذى لم يكن يقيد حريته شئ ! .. وما لبث أن شاعت هذه الجمعيات ، فأنشأ (**دريانوليمى**) واحدة بشارلستون .. وانتقلت من أمريكا إلى انجلترا ، فأنشأ (**السيركرولى**) جمعية لعبادة الشيطان ، وأخذ يبشر بديانته الجديدة فى أنحاء أوربا والعالم ، بمساعدة الطبقة الفنية والأثرياء ، الذين استهوتهم هذه الديانة !!

ومن انجلترا انتقلت إلى بلجيكا على يد القس (**دوركبر**) .. وأخذوا فى بث دعوتهم ومذكرات أتباعهم وما صادفوه فى هذه الدولة الجديدة ، التى أنشأها إبليس على أيديهم .. وفى حفلاتهم وسهراتهم كانت تمارس الرذيلة ، بكل أشكالها ويستمعون لموعظة إبليس .. وغالى بعضهم فى الأمر فذبح آدمياً قرباناً للإله الجديد !

فمن الجمعيات الماسونية ، حتى نوادى الروتارى والنوادى المغلقة ، التى لايدخلها إلا الخاصة عُبد الهوى ، فهناك نادى « جهنم » **بانجلترا** أنشأهُ «**الأبرل**» والذى يضم كبار رجال المال والأعمال ، ودير «**مادنهام**» الذى أقامه السير **فرنسيس راشوود** ، وأعاد بناءه على حسب الهوى الشيطانى ، وكما تقرره اللوائح الإبليسية .. وأعضاءه جميلات العالم ، وذوى المكانة الاجتماعية والسياسية والماليه بانجلترا ؟!

وفى «**جنة الشيطان**» يشيع الجنس والشذوذ والتطرف .. ويمارسه النساء والرجال

على السواء .. فى جو من السكر والعربدة والمخدرات ، يتواصون بالتمسك بعبادة الشيطان ولبس الشعارات الدالة على حبه وتعظيمه ..

أما ثقافة هؤلاء العابدين فقد كانت كتب الجنس وتراتيل ومزامير شيطانية .. ومن هؤلاء المشاهير الذين قصدوا هذه النوادى الشاعر «توماس بورتر» .. ولم يغلق هذا الدير إلا بعد أن ضج الناس من الصخب والجنون الذى لحقهم وأصابهم ، وقد تطورت هذه الأندية لتوافق الأوضاع القانونية .. فأخذت تختار وتنتقى أسماء مهذبة لها .. وتبث دعوتها عن طريق أفلام الجنس ونوادى العراة والكباريهات [1] .

وامتدت هذه الصرعة حتى تفشت فى بعض أوساط الشباب فى مصر ، فى بداية التسعينيات من القرن العشرين ، وفوجئ الجميع بأن هذه النوادى تدعوا إلى عبادة الشيطان وممارسة الجنس وشرب المخدرات والكفر بالأديان .. وأفزعت هذه الظاهرة أولياء الأمور والسلطات وعلماء الأزهر والكنيسة فى مصر .. وحاولوا السيطرة على هؤلاء الشباب .. ولكنى أعتقد أن الأمر أكبر من مجرد خطب وعظية أو نصائح أبوية تم توجيهها لهم .. وينبغى أن تعمل الدولة والمؤسسات التعليمية على بث رسالة مناهضة إلى هذا الدمار الخفى ، الذى من شأنه هز كيان المجتمع المصرى وتقويض دعائمه عن طريق إفساد جيل الشباب الصاعد .. الذى يمثل ثلث الشعب المصرى ..

فما أصعب أن نرى شباب الإسلام وقد انحرف عن عاداته وتقاليده وترك عقائده .. واتبع حضارة الرصاص والدعارة .. وأهلك نفسه فى بحر من الجنس والمخدرات .. والذى يحدث غالباً فى نوادى وكباريهات وصالات الديسكو وشواطئ العرى !! .. فمصر أكبر من أن يسقط شبابها غيلة فى أيدى شياطين اليهود وإعلام الجنس عبر القنوات المشفرة .. عموماً المسألة تحتاج إلى بحث ومراجعة أخرى ، ليس هذا الكتاب مجالها .. ولن يتسع المقام لتناولها .

---

(١) والعجب فى الأمر أنه عادت هذه الجمعيات فنشطت مرة اخرى .. حتى اصدرت امريكا قانوناً ترعى فيه الشواذ وحقهم فى الحياة وعمل ما يشاؤن ، وتسلل القانون إلى انجلترا وفرنسا .. وبدأت نغمة حرية الجنس تشيع على يد جمعيات حقوق الإنسان ، وتبنتها المؤتمرات العالمية لمنظمة الأمم المتحدة ضمن وثيقة حقوق المرأة ..! وكانت ابرز الفقات التى خطب الرئيس بيل كلنتون وُدّها فى انتخابات الرئاسة الشواذ !!

وبعد .. عند النظر إلى حديث الرسول ، ﷺ ، ينبغى أن يكون لدى الناظر فيها،كل هذا الزخم من الثقافة ، ليعلم أن الأمر أكبر من مجرد أن يكون فعلاً ساذاجاً أو تصور بدائياً ، لشيطان يمتلك العالم والفضاء ويسدُّ بقرينه عنان السماء !

فقد كان المعصوم ، ﷺ ، يعلم يقيناً ، ما فعله الإنسان من عبادة الشمس أو عبادة الشيطان والهوى .. وأراد أن ينزه أتباعه من الوقوع فى شبهة عبادته ، أو التوجه للشمس بالعبادة كمن سبقهم ، فنهاها محذراً ومشدداً فى التحذيرات أن يستقبلوها بعبادة ، هى أبرز وأجل العبادات التى جاء بها ديننا الحنيف ، وهى الصلاة؛ وليعلن مبدأ التبرؤ والمفاصلة بين من يعبد الله الواحد الأحد خالق الكون والبرايا ، وعبدة الشيطان .

* * *

٣- الشيطان وساعة الميلاد

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال : **« كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبيه بإصبعيه حين يولد ، غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب »** [١] .

اعترض الإمام أحمد على هذا الحديث واتهم المجبرة بالافتراء على الله ورسوله، ﷺ ، وعد هذا الحديث مكذوباً ؛ وهو يحمل عدة معانٍ تعارض الكتاب ؛ إنهم يمنحون إبليس قدرة خرافية على تصريف أمور الإنسان فى الأرض ، وأنه يطلع على ميلاده! .. حتى الأنبياء والمرسلين لم يسلموا من هذا الطعن الذى يزعمون .. عدا مريم وابنها عصمهما الله منه !

هل هذا حال الذليل الحقير الصاغر ، كما وصفه الله ، الضعيف الحيلة ؟! فلم يطعن فى خاصرة كل إنسان ، هل ليُعلمه أو ليعلنه أنه لن يفلت من قبضته ؟! .. إنه كلام لا معنى له منسوب لرسول الله ﷺ ، يعلنون به أن هناك إلهان أحدهما للخير والآخر للشر كالثنوية تماماً ، وإله الخير عاجز عن مواجهة إله الشر ودفع مكائده!

من المسئول عن تصوير إبليس بهذا الشكل ؛ ثم الحديث عن أسرار وقدرات هذا المخلوق وسعة حيلته فى الأكوان ؟!

يبدو أن شياطين اليهود والمجوس كان لهم دخل فى تعظيم صورة الشيطان فى الإسلام عن طريق الدس فى الحدث ، وهذا الحديث يرويه البخارى ومسلم [٢] ، وأحمد [٣] ، ولم يسع أحد لنقد متنه على ضعفه ، خوفاً من أن يتهم بالإلحاد والكفر، والإلحاد والكفر الحقيقى الإيمان به وبالتوحيد الخالص فى آن واحد .

تعود هذه السخافات إلى قوم من المسلمين نسبوا الخير والشر من أفعال البشر لله رب العالمين .. وظنوا أنهم يثبتون له مطلق التوحيد والمشيئة والتصرف فى الأكوان ..

---

(١) البخارى ؛ ٦ / ٣٨٩ حديث رقم ٣٢٨٦ .

(٢) عن أبى هريرة ، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢ / ٩٢ .

وانظر ومسلم بشرح النووى ، ج ١٥ / ١٢٠ ؛ حديث رقم ١٤٦ ، ١٤٧ ، المجلد الأمن ، طبعة الريان ١٩٨٧م..

(٣) انظر مسند أحمد ، الجزء الثانى ؛ ص ٢٣٣ ؛ ٢٧٤ ؛ ٢٨٨ ؛ ٢٩٢ ؛ ٣١٩ ؛ ٣٦٨ ؛ ٥٢٣ .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [1] .. فما معنى أنه خالق كل شئ.. فإذن هو خالق الخير والشر من أفعال الإنسان !.. وكأنهم لم يقرأوا قوله تعالى: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ [2] ؛ أوأن الإنسان ينقض التوحيد لو كان فعله منه وحده!

وبسبب مقالتهم هذه ذهبوا يؤولون كل نص ، ويكفرون من يسفه قولهم ويتهمونه بالجهل وتلاعب الشيطان به !

وطالما أن الله قد خلق الشر من أفعال خلقه ، فقد خلق إبليس وأراد منه فعل الشر! وهم الجهلاء لو علموا وفقهوا .. لقد اسقطوا معقولية التشريع والتكليف وما يترتب عليه من جزاء وحساب .. كما أنهم ألحدوا فى التوحيد حيث رفعوا إبليس وجنوده لمقامات الألوهية .. وزادوا على ذلك فاعذروا إبليس بكفره .. وأعذروا كل كافر وفاسق ، ولم يستطيعوا أن يفرقوا بين أوامر الله الكونية وأوامره الشرعية .. ولم يفرقوا بين الخلق والأمر .. وأن الإرادة الإلهية فى الخلق لا ترد ولا تدفع .. وأنها فى الأمر تعطى المأمور حرية أن يفعل أو لا يفعل ، وحرية أن يكفر أو يؤمن ، وحرية أن يطيع أو يعصى .. إلخ .

وهذه الحرية .. وهذه الاستطاعة الممنوحة للإنسان ، لتكتمل فى حقه أركان التكليف وشروطه .. ولا يصير له حجة على ربه .. وهوأساس الاختبار والابتلاء الذى اختبر وابتلى الله به الإنس والجن ، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [3] .

هى من صميم خلق الله .. بإرادته الكونية التى تقول للشئ ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [4] .. فقال للإنسان : كن حراً فى فعلك مختاراً ، ولن نجبرك على اختيار ما لاتريد .. ثم كان منه – لحبه أن يهتدى عبده إلى عبادته واختيار طاعته – أن أرسل له رسله بهداياته ، وتواترت الرسالات وألطاف الله ، تعالى ، بعباده لم تنقطع،

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٢ .

(٢) سورة العنكبوت آية ١٧

(٣) سورة الملك آية ٢ .

(٤) سورة يس آية ٨٢

حتى أكرم خلقه بسيد البشر وخيرهم سيدنا محمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [1] رحمة كان النبى ، ﷺ ، ورسالته هى رسالة الرحمة .. فكيف يتهم رب الرحمة «الرحمن الرحيم» . بإضلال عباده وخذلانهم ؟!

تعالى الله رب العالمين عن مقالة المكذبين .

* * *

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

٤ - القريـن !

روى مسلم بسنده عن عائشة ، رضى الله عنها ؛ «**أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت : فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع . فقال : مالك يا عائشة أغرت ؟!.. فقلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك !.. فقال : رسول الله ﷺ : أقد جاءك شيطانك ؟!.. قالت : يارسول الله أو معى شيطان ؟!.. قال : نعم . قلت : ومع كل إنسان ؟!.. قلت : ومعك يارسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم**» (١).

اختلف العلماء حول فتح وضم كلمة « أسلم » على روايتين مشهورتين ، فعلى الرفع معناه أسلم أنا من شره وفتنته ، وعلى الفتح معناه ان القرين أسلم وصار مؤمناً لا يأمرنى إلا بخير . .

قال القاضى عياض : واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبى ﷺ من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه . وفى هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنته ووسوسته، فأعلمنا بأنه معنا ؛ لنحترز منه بحسب إلا مكان (٢) .

ولقد علقنا على ماجاء فى كلام القاضى أكثر من مرة ، فليراجع . . وعلى المسلم أن يكون فطن ، فمثل هذا الأثر لا يأخذ على ظاهره ؛ ولكنه يأوَّل فى ضوء ما عرف من أصول الدين وقواعد اللغة وصرفها ومعانيها . فيحتمل أن يكون هذا القرين هو الهوى والشهوات أو أنه من شياطين الإنس .

والمسألة أبعد من هذا الحديث فى الفكر الجبرى . . فهم يعتقدون أن الله زين للعصاة المعصية بالإرادة والأمر معاً ! . .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** ﴾(٤)، وقال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤** ﴾ (٥) . . ورأى المجبرة

---

(١) مسلم النووى : شرح صحيح مسلم ؛ ١٧ / ١٥٧ - ١٥٨ . الحديث رقم ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ - واحمد ٦ / ١١٥ .

(٢) شرح مسلم ، ١٧ / ١٥٧ ، وانظر الإيجى : المواقف ؛ ص٣٥٨ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٠٨ (٤) سورة فصلت آية ٢٥ (٤) سورة النمل آية ٤ .

أن الله زين أمراً وإرادة للعصاة والكفار فيما يفعلون .. وهذا لعماهم وجهلهم الذين ورثوه .. ولو علموا أن هذا ينقض التوحيد والعدل .. لعدلوا عما قالوا .. وإليك بيان ذلك ..

فكيف زين الله وحسَّنَ للعصاة والكفار ما يصنعون .. وأراد منهم إقامتهم فيها ومثابرتهم عليها ، جل وتقدس عن ذلك ؟.. بل أمرهم بالإيمان والعدل والإحسان وفعل الخير وترك الشر .. ويستدلون ، كذلك بقوله ، تعالى : ﴿ **ولا تسبُّوا الذين يدْعُون من دُونِ اللَّهِ فيَسبُّوا اللَّهَ عدْواً بِغيْرِ علْمٍ كذَلِكَ زيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عمَلَهُمْ** ﴾ (١) فصدق الله ، جل جلاله ، وكذبوا .

ولو لاحظنا أسباب النزول لاتضح لنا الأمر برمته .. فهذه الآية نزلت في **أبي جهل ابن هشام المخزومي** – فرعون هذه الأمة – لعنه الله ، وذلك أنه لقي **أبا طالب** ، عم رسول الله ؛ ﷺ ؛ فقال : يا **أبا طالب** ، إنَّ ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويقع في أبائنا ، واللات والعزى لئن لم يكف عن شتمه آلهتنا لنشتمن إلهه . فأنزل الله في ذلك ما ذكر في أول هذه الآية ؛ تأديباً للمؤمنين ، فأمرهم بالكف عن شتم أصنام المشركين ، لكيلا يجترئوا بغير علم على شتم رب العالمين (٢) .

وأما التزيين والتقييض الذي جاء في الآيات فهو الإمهال وترك المعافصة لهم بقطع الآجال ، وما كان في ذلك منه لأهل الجهل من التبرى منهم والجدل منه ، فسبحانه ، لمن عشا عن ذكر ربه منهم ،فلما أن أُمهلوا وعلى ما هم عليه من الشرك والكفر تُركوا وبالعقوبات لم يعاجلوا ، وأملى لهم ليرجعوا فتمادوا ولم ينيبوا ورأوا من إمهال الله وتأخيره لهم ، وصرف ما عاجل به غيرهم من القرون الماضية والأمم الخالية ، من ثمود وعاد وفرعون ذي الأوتاد وقوم نوح وقوم لوط وأصحاب الرس والأيكة وقوم تُبَّع والمؤتفكة ، وغير ذلك من القرون المهلكة (٣).

فزادهم تأخير ذلك عنهم اجتراء وتكذيباً ومجانة وافتراء وترتيباً ، لصرف ذلك

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٨ .

(٢) انظر أبا الحسن النيسابوري : أسباب النزول ؛ ص ١٩١ ، ١٩٢ .. بهامش مختصر تفسير الطبري ؛ طبعة دار العد العربي . القاهرة

(٣) قارن الزمخشري : الكشاف ، ٢ / ٥٦ .

عنهم ما هم عليه من أعمالهم وفاحش قولهم وأفعالهم ، **فكان إملاء الله وتركهم ليرجعوا ، أو لتثبت الحجة عليهم وتنقطع المعذرة إليهم** ، هو الذى أطمعهم وزين عملهم فجاز أن يقول : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ ﴾ [1] ، إذ قد تفضلنا وأمهلنا وأحسنا فى الثانى بكم ورحمنا .

وكذلك تقول العرب لعبيدها، يقول الرجل لمملوكه ، إذا تركه من العقوبة على ذنب من بعد ذنب ، وتأنى به وعفا عنه وصفح ، ليرجع ويصلح فتمادى فى العصيان ولم يشكرمن سيده الإحسان ، فيقول له سيده : أنا زينت لك وأطمعتك فيما أنت فيه إذ تركتك ، وتأنيت بك ولم آخذك ولم أعاجلك .. **فهذا على مجاز الكلام المعروف عند أهل الفصاحة** والتمام [2] .

وأما تفسير الآية الثانية فهو كالسابقة فالله ، تعالى ، أوجد القرناء وخلقهم ، ولم يجمع بينهم وبين من أطاعهم ، ولم يامرهم بطاعتهم ولا اتباعهم ، بل خصهم على مخالفتهم ، وأخبر بعداوتهم ، ونهاهم عن اتباع الهوى [3] ، فقال : ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا** ﴾ [4] ، ﴿ **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾** ﴾ [5] .

وقال ، تعالى ، فيمن يأمر ويوسوس بالسوء من الشياطين : ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا** ﴾ [6] ، فبين ما افترض وأمر به ، فلم يترك لذى علة قبله متعلقاً [7] ، فكان تقيضه لهم ما ذكر من القرناء هو تخليته لهم وتبرئته منهم ، وترك الدفع لنوازل الأسواء عنهم ، وذلك فيما تقدم عنهم من الكفر بربهم والشرك بخالقهم [8] .

وبعد .. لعلنا قد وفينا مفهوم التزيين الذى يفعله القرين .. وهل هو موجود أم لا .. وما علاقته وصلته بالإنسان على وجه الحقيقة .. وما الدور الذى أراده الله للإنسان .. وهل تعوقه هذه العلاقة أم لا ؟

ولننظر كيف أفاد التفسير البيانى للقرآن الكريم ، فى توضيح المقصود من التزيين

---

(١) سورة النمل آية ٤ .

(٢) قارن الزمخشرى : الكشاف ؛ ٣/٣٤٨ .

(٣) قارن بالزمخشرى : السابق ؛ ٤/١٩٦ ، ١٩٧ .

(٤) سورة الكهف آية ٢٨ .

(٥) سورة القلم الآيات ١٠ – ١٣ .

(٦) سورة فاطر آية ٦ .

(٧) قارن ، الكشاف ؛ ٣/٥٩٩ .

(٨) انظر الهادى : الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية ؛ ٢ / ٢٠٥ – ٢٠٧ .

الذى قصده الله عز وجل فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (١) .

فقد أسند ، تعالى ، تزيين أعمالهم إلى ذاته فى هذه الآية ، وأسنده للشيطان فى آية أخرى حيث قال : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٢) .

فكيف يلتقى النصان ويتوافقان ، وأحدهما ينسب الفعل لله .. والآخر ينسبه للشيطان .. وكلاهما يحقق الغرض من تسلط الشيطان على الإنسان ؟!

ويلحق بالنص الأخير الذى ذكرناه هذه النصوص التالية :-

١- ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٣) .

٢- ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٤) .

٣- ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٥) .

٤- ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٦) .

إن بين الإسنادين فرق ، وذلك أن إسناده إلى الشيطان حقيقة ، وإسناده إلى الله ، عز وجل ، مجاز . وله طريقان فى علم البيان :-

أحدهما : أن يكون من المجاز الذى يسمى الاستعارة .

والثانى : أن يكون من المجاز الحكمى .

وتفسير الأول هوانه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق ، وجعلوا إنعام الله ، تعالى، بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرهم وإيثارهم الروح والترفه، وبفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة ، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم .

وإليه أشارت الملائكة ، صلوات الله عليهم ، فى قولهم : ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة النمل آية ٤ .
(٢) سورة النمل آية ٢٤ .
(٣) سورة الأنعام آية ٤٣ .
(٤) سورة الأنفال آية ٤٨ .
(٥) سورة النحل آية ٦٣ .
(٦) سورة العنكبوت آية ٣٨ .
(٧) سورة الفرقان آية ١٨ .

والطريق الثانى : أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يُزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين، فاسند إليه ؛ **لأن المجاز الحكمى يصححه بعض الملابسات** .

وقيل : هى أعمال الخير التى وجب عليهم أن يعملوها؛ زينها لهم الله فعموها عنها وضلوا ، ويعزى إلى الحسن [1] .

أما القرناء فهى تعنى الأخدان عند الزمخشرى .. ويجيب على التساؤل التالى : كيف جاز أن يقيض – أى الله تعالى – لهم القرناء من الشياطين ، وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم ؟.. وأجاب عليه على النحو التالى : معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين .

وهذه الإجابة تتماثل مع ما ذكرنا من حديث الهادى إلى الحق من قبل .. إلا أنه يروق لى أن أذكر طرفاً من تعليق أحد الأشاعرة على الزمخشرى ، وأترك الحكم للقارئ لعله يفهم نوعية الفكر الذى كان يحكم هذا الاتجاه ، يقول معلقاً عليه : هذا على مذهب المعتزلة أنه ، تعالى ، لا يقدر الشر . أما على مذهب أهل السنة أنه ، تعالى ، يقدره كالخير ، فلا داعى إلى هذا التكلف . قال ، تعالى : ﴿ **ألم تر أنَّا أرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أزًّا** (٨٣) ﴾ [2] .. إلخ .

ويقول أيضا .. على مذهب أهل السنة : «إن الأمر على ظاهره ، فإن قاعدة عقيدتهم أن الله ، تعالى ، **قد ينهى عما يريد وقوعه ، ويأمر بما لا يريد حصوله** ، وبذلك نطقت هذه الآية وأخواتها ، وإنما تأولها الزمخشرى ، ليتبعها هواه الفاسد فى اعتقاده **أن الله ، تعالى ، لا ينهى عما يريد** ؛ وإن وقع فعلى خلاف الإرادة – تعالى الله عن ذلك ، وبه نستعيذ من جعل القرآن تبعاً للهوى» [3] .

هذاهو رجل أهل السنة المفوه الحكيم .. أى إنك إن أردت أن تكون منهم ، عليك أن تؤمن بالله **الذى** : «**قد ينهى عما يريد وقوعه** ، ويأمر بما **لا يريد حصوله**» !.. وهذا الرجل وأمثاله من أسوأ الصور التى تعرض للإسلام ، فلكى يقنعك بما يعتقد من ضلالات .. وعقيدة سيئة فى الله ، تصوره على أنه غير عادل وغير حكيم .. يحذرك

---

(١) انظر الزمخشرى : الكشاف ، ٣ / ٣٤٨

(٢) سورة مريم آية ٨٣ .

(٣) هامش الكشاف ، ٤ / ١٩٦ – ١٩٧ .

بأن هذه عقيدة أهل السنة .. وأن من يعتقد غيرها فهو مبتدع ضال .. ويخوفك بأنك تكفر بماجاء من ظاهر القرآن النص !!..

ولو عرف الفرق بين الإرادة الكونية للخلق ، والإرادة الأخرى التى هى للأمر .. لأمكنه فهم آيات الله فى كتابه فهماً صحيحاً .. فلم يقل أحد من الأولين والآخرين أن لا يقدر على فعل الشر .. ولكننا وجدنا قوماً عقلاء قالوا : إنه يقدر على فعله ، ولكنه لا يفعله تنزيهاً لذاته من فعل ما يقدح فى الحكمة أو يناقض العدل والرحمة .. وقد كتب على نفسه الرحمة ، وأكد على أنه لا يظلم أحداً من خلقه بعد أن حرم الظلم على نفسه ، وأمر بالقسط والعدل والإحسان .

قال تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٤) .

شرب سائق الخمر ثم قاد سيارته الجديدة فى طريق وعر بسرعة جنونية فانقلبت به، فأخذ يلعن صانعها .. فهل هومحقٌ ؟!.. إنه مجنون ؛ لأنه لم يقدها فى طريق ممهد ولا حسب السرعة المقررة .. وصانعها اتقن صنعها ؛ ولكنه أساء استخدامها .

وكذلك الله رب العالمين – ولله المثل الأعلى – فقد خلق الإنسان وأبدعَ فى خلقه ، وركب فى صنعته نفساً ، وميزها بأن أعطاها القدرة على الاختيار بين الخير والشر .. ودعاها إلى الخير ورغبها فيه ، وحذرها من الشر وقبحه لها ، وبيَّنَ لها عاقبة الاختيار ونواتجه .. أبعد هذا يقال إن اختيارات الصنعة ، التى هى بمثابة السيارة للسائق ؛ محسوبة على خالقها ؟!

نعم فالصنعة وما تفعل ملك لصانعها .. وكما أنها من خلقه ففعلها من خلقه كذلك .. إلا أنه لا يمنع أن يكون فى الوقت نفسه أنه أحب لها أن تختار الخير ..

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢ .
(٢) سورة فصلت آية ٤٦ .
(٣) سورة الأعراف آية ٢٩
(٤) سورة النحل آية ٩٠ .

وكره لها أن تختار الشر ؛ وكما أن اختيارها للشر كان اختياراً لشئ من خلق الله ، فاختيارها للخير هو كذلك من خلق الله .. ويسر لها الأمرين .. ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [1] ، ولم يحل بينها وبين طاعته .. كما أنه لم يقسرها على فعلها .. والأمر كذلك بالنسبة لاختيارها للمعصية ..

غاية ما فى الأمر أن هناك اتجاهاً يريد أن ينسب إلى الله ، تعالى ، اختيارات الشياطين من الإنسن والجن؛ ليعذرهم على كفرهم وفسقهم .. وهناك فريق آخر يقول إن اختياراتهم هى لهم وحدهم ، ويحاسبون عليها .. ويجزون عليها بالإحسان إحساناً وبالسيئات إساءة .. والمسافة فى اعتقادى بين الاتجاهين ، إذا ما نفينا الشكلية واللفظية ؛ جد قريبة ؛ لولا التعصب وسوء الفهم .

***

(١) سورة البلد آية ١٠ .

٥- الشيطان والكهان

عن عائشة ،رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ قال : «**الملائكة تتحدث فى العنان - والعنان : الغمام - بالأمر يكون فى الأرض فتستمع الشياطين الكلمة ، فتقرها فى أذن الكاهن كما تقرُّ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة**» [١] .

يقول الحافظ ابن حجر حديث عائشة فى ذكر الكهان أو رده معلقاً عن الليث ، وقد تقدمت الإشارة إليه فى صفة الملائكة [٢] ، وقد وصله **أبو نعيم** فى المستخرج من طريق أبى حاتم الرازى عن أبى صالح كاتب الليث عنه وقال : يقال إن البخارى حمله عن عبدالله بن صالح [٣] .

وتوقف في وصل هذا الحديث ، وبين طرقه لبيان أن البخارى قد تفرد به فقال : قوله « حدثنا محمد حدثنا ابن أبى مريم » قال الجيانى : محمد هذا هو الذهلى ، وقال أبو ذر بعد أن ساقه : محمد هذا هو البخارى ، وهذا هو الأرجح عندى ، فإن الإسماعيلى وأبانعيم لم يجدا الحديث من غير رواية البخارى فأخرجاه عنه ، ولو كان عند غير البخارى لما ضاق عليهما مخرجه ، ونصف هذا الإسناد الأعلى مدنيون، ونصفه الأدنى مصريون .

كما ذكره البخارى فى كتاب « الطب » باب « الكهانة » فقال : حدثنا على بن عبد الله حدثنا هشام بن يوسف أخبرنا معمر عن الزهرى عن يحيى بن عروة بن الزبير « عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال : ليس بشئ . فقالوا : يارسول الله ، إنهم يحدثوننا أحياناً بشئ فيكون حقاً ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه ، فيخلطون معها مائة كذبة » [٤] .

نقل عن الخطابى أن النبى ﷺ بين أن إصابة الكاهن أحياناً إنما هى لأن الجنى يلقى إليه الكلمة التى يسمعها استراقاً من الملائكة ، فيزيد عليها أكاذيب يقيسها على

---

(١) البخارى ؛ ٦ / ٣٨٩ حديث ٣٢٨٨ .
(٢) فى الفتح ؛ ٦ / ٣٥٠ حديث ٣٢١٠ .
(٣) الفتح ؛ ٦ / ٣٩٤ .
(٤) البخارى ، ١٠ / ٢٢٧ حديث ٥٧٦٢ .

ماسمع ، فربما أصاب نادراً وخطؤُه الغالب .. ويسمعها كما يسمع صوت الزجاجة إذا حلت على شئ أو ألقى فيها شئ .. واختلف العلماء هل يقرها كما تقر القارورة .. أوقر الزجاجة .. أوقر الدجاجة ؟!.. وبدى أن فى الأمر اجتهاد فى التصوير ، وآخر فى إثبات رواية وتغليط أو تصحيف أخرى .

قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢) .

والكاهن عند العرب فى الجاهلية راعى بيت الأصنام الذى كان يقدم الذبائح والقرابين ويتولى الشعائر والطقوس الدينية التى تقام لها ... وقد عرفت الكهانة كوظيفة فى الجاهلية ؛ ولا يستبعد نشأة علاقة بين الكهان والجان .. سيما أن هؤلاء كانوا يتسمعون فى الملأ الأعلى ويسترقون الأخبار .. والكهان يدعون معرفة الغيب وأمر السماء وما سيحدث فى غد .. وقد أكذبهم الله فى ذلك حيث قال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ (٤) ، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٥) فقد كذب الجن على الإنس ، وصدقوهم .. وظن الشقى منهم أن له حظوة أو ميزة على غيره .. ولكنهما فى العذاب المهين .

* * *

---

(١) سورة الطور آية ٢٩ .

(٢) سورة الحاقة آية ٤٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٧٩

(٤) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(٥) سورة الجن آية ٢٦

٦- الشيطان والرؤى

عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : قال النبى ﷺ : «**الرؤيا الصالحة من الله ، والحُلْمُ من الشيطان فإذا حَلَمَ أحدكم حُلماً يخافه ، فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها ؛ فإنها لا تضُّره**» . (١)

كما روى البخارى فى كتاب «الطب» باب «النفث فى الرقية» الحديث عن يحيى ابن سعيد ، قال: سمعت أبا سلمة ، قال: سمعت أبا قتادة يقول: «**سمعت النبى ﷺ يقول : الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان .فإذا رأى أحدكم شيئًا يكرهه فلينفث حين يستيقظ ثلاث مرات ، ويتعوَّذ من شرها ، فإنها لا تضره**» (٢) .

وفى معنى الحلم من الشيطان قال المهلب : سمى الشارع الرؤيا الخالصة من الأضغاث صالحة وصادقة ، وأضافها إلى الله ، وسمى الأضغاث حلماً وأضافها إلى الشيطان إذ كانت مخلوقة على شاكلته ، فأعلم الناس بكيده وأرشدهم إلى دفعه ، لئلا يبلغوه أربه فى تحزينهم والتهويل عليهم ، وقال **أبو عبد الملك** : أضيفت إلى الشيطان ؛ لأنها على هواه ومراده ، وقال **ابن الباقلانى** : يخلق الله الرؤيا الصالحة بحضرة الملك ويخلق الرؤيا التى تقابلها بحضرة الشيطان ، فمن ثم أضيف إليه ، **وقيل** : أضيفت إليه ؛ لأنه يخيل بها ، ولا حقيقة لها فى نفس الأمر (٣) .

ويبدو من سكوت الحافظ ابن حجر رضاه وقبوله لهذه الاجتهادات السابقة ، وأياً منها يجوز ؛ إلا أن قول **الباقلانى** يحتاج إلى دليل من الشارع ؛ لأن طريق هذه المعرفة السماع ، وطالما أنه لا سماع يؤيده يبقى اجتهاده معلقاً أومحمولاً على جملة ماجاء فى باب الرؤيا والتعبير ، وأحسن الحافظ فى قوله (ولا حقيقة لها فى نفس الأمر) .. لأن الشيطان لا قدرة له على الدخول إلى وجدان الإنسان والعبث بالذاكرة الحافظة والمبدعة ، وكذلك البصيرة التى تستقبل الصورمن عالم الغيب .. فكل ذلك من أمر الله ولا قدرة له على ذلك . إلا إذا قصد **الباقلانى** أن من الخواطر ما يسمى ملكاً إذا

---

(١) البخارى ، ٦ ، ٣٩ حديث ٣٢٩٢ .

(٢) البخارى ، ١٠ / ٢١٨ حديث ٥٧٤٧ .

(٣) الفتح ؛ ١٢ / ٣٨٦ - ٣٨٧ .

كان الداعى إليها خير ، ويسمى ما يدعو إليه إلهاماً ، ومنها ما يسمى شيطاناً إذا كان الداعى إليها شر ، ويسمى ما يؤدى إليه وسوسة كما قال الغزالى فى «الإحياء» [1] .

وروى البخارى بسنده فى باب «الرؤيا من الله» عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ يقول : «**إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هى من الله ، فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هى من الشيطان فليستعذ من شرها ، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضرُّه**» [2] .

يقول الحافظ فى قوله : (وإذا رأى .. الشيطان) ظاهر الحصر أن الرؤيا الصالحة لاتشتمل على شئ مما يكرهه الرائى ، ويؤيده مقابلة رؤيا البشرى بالحلم وإضافة الحلم إلى الشيطان ، وعلى هذا ففى قول أهل التعبير ، ومن تبعهم ، أن الرؤيا الصادقة قد تكون بشرى وقد تكون إنذاراً نظر ، لأن الإنذار غالباً يكون فيما يكره الرائى ، ويمكن الجمع – أى بين الرأيين – بأن الإنذار لايستلزم وقوع المكروه كما تقدم تقريره ، وبأن المراد بما يكره ما هو أعم من ظاهر الرؤيا ومما تعبر به .

وقال القرطبى فى «المفهم» : ظاهر الخبر أن هذا النوع من الرؤيا يعنى ما كان فيه تهويل أو تخويف أو تخزين هو المأمور بالاستفادة منه ؛ لأنه من تخيلات الشيطان ، فإذا استعاذ الرائى منه صادقاً فى التجائه إلى الله ، وفعل ما أمر به من النقل والتحول والصلاة ، أذهب الله عنه ما به وما يخافه ، من مكروه ذلك ولم يصبه منه شئ .

وظاهر كلام القرطبى الذى فسر الأثر على ظاهره أن للشيطان قدرات خرافية هائلة يمكنه بها تكوين صور وخيالات فى ذاكرة الإنسان بما يحب أن يكون من رؤى ، وهو ما ندرك تماماً عدم حدوثه ؛ لكونه أمراً يدرك بالحواس ولا حقيقة لذلك . أماعلى سبيل المجاز وأنه يحدث للإنسان ما يسر عدو الله من رؤيا مفزعة أو محزنة لذلك أرشد الشارع إلى الاستعاذة والتحول والصلاة ، لتغيير كمياء الجسم وتفاعلات الإنسان البيولوجية والسيكولوجية ، فيعود مرة أخرى إلى النوم هادئ البال ويتلاشى من الذاكرة ما كان سبباً فى هذا الكابوس ، فهو أمر صحيح ومقبول عقلاً ونقلاً ﴿مَا كَانَ

---

(١) انظر الغزالى : الإحياء ، ٣ / ٤٢ والحديث رواه أحمد والبخارى والترمذى عن أبى سعيد ، انظر السيوطى ، ١/ ٢٦ .
(٢) البخارى ، ١٠ / ٣٨٥ – حديث ٦٩٨٥ .

لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [1] فالشيطان ينفى وجود أى تأثير أو سلطان منه فعلى حقيقى على الإنسان. فلمَ يصر الإنسان على الكذب - على عدوه - وتعليق أوهامه على شماعة الشيطان ؟!

وقيل : بل الخبر على عمومه فيما يكرهه الرائى بتناول ما يتسبب به الشيطان وما لا تسبب له فيه ، وفعل الأمور المذكورة - من ذكر ودعاء وصلاة - مانع من وقوع المكروه ، كما أن الدعاء يدفع البلاء والصدقة تدفع ميتة السوء وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، ولكن الأسباب عادات لا موجودات ، وأما مايرى أحياناً مما يعجب الرائى ، ولكنه لا يجده فى اليقظة ولا ما يدل عليه ، فإنه يدخل فى قسم آخر وهو ماكان الخاطر به مشغولاً قبل النوم ، ثم يحصل النوم فيراه فهذا قسم لا يضر ولا ينفع [2] .

وهذا الحديث قد يساعدنا فيما بعد لدراسة علم النفس عند المسلمين ، وهو مبنى على أصول أهمها الكتاب والسنة ؛ فقد اهتم المسلمون بالوجدان اهتماماً بالغاً وصل لحد تعيين مراكز الفهم والحفظ والاسترجاع والذاكرة وأهمية كل جزء من هذا الجهاز من العقل والجهاز العصبى فى الإنسان . ولا يخلو الأمر من نقد بعض آرائهم أو معتقداتهم التى جاء العلم الحديث بخلافها .

ومن الرؤيا الصادقة رؤية النبى ، ﷺ ، فى المنام فقد جاء فى الحديث أنه قال : «من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل بى» [3] ويصعب تحديد الدواعى التى تؤدى بالإنسان إلى الرؤيا ..

وكل تعليل لها أو تفسير هو مجرد اجتهاد .. فلماذا يجب على الإنسان أن ينام ، وماذا يحدث بعد ذلك ؟ هى أمور غيبية .. غير أن الثابت طبياً أن النوم ضرورة حياتية .. والكائن الحى يحتاج أن ينام فى اليوم على الأقل ست ساعات متصلة .. ماذا يحدث فى هذه الساعات الست .. وأين تذهب الروح ؟ يحكمنا قانون الغيب .. كما أننا فى ساعات اليقظة يحكمنا قانون الشهادة .. «والله . لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون» .. «الناس فى غفلة فإذا ماتوا انتبهوا» قال تعالى

---

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢ .

(٢) الفتح ؛ ١٢ / ٣٨٩ .

(٣) اخرجه مسلم : ١٥ / ٢٤ كتاب الرؤيا ، والبخارى وأحمد والترمذى ، انظر السيوطى الجامع الصغير ؛ ٢ / ١٧١ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ [1] .. إن الروح قلقة من سجن الجسد ، تحاول الخلاص منه دائماً ، وهو ما لا يحدث إلا فى النوم أو بالموت ..

ماذا يحدث لكيمياء الجسم .. كيف يتلاشى الزمان والمكان ويطوى .. ما علاقة مانرى فى النوم بما يحدث فى عالم الوجود الحاضر .. ؟!

فى النوم ننطلق حيث لا زمان ولامكان .. ونتجول فى الماضى والحاضر والمستقبل ونسافر حيث نشاء . ونقابل من يستحيل مقابلته فى عالم الشهود أو من لم نقابله من قبل.. فما علاقة الرؤيا بالنبوة ..

قال ، ﷺ ، «**رؤيا المؤمن جزء من ست وأربعين جزء من النبوة**» [2] . لمَ نجد بعض الناس لا يحتاجون فى رؤاهم إلى تعبيرأو تفسير لها ، وتأتى فى المستقبل كماراوها تماماً؟!.. إنه أمر يحكمه اعتبارات عديدة ، فلا ينفرد به علماء النفس وحدهم .. ولاعلماء الطب .. ولاأصحاب التجربة بل الجميع .. فمثلاً هل يحكمنا فى النوم ماحدث لنا فى اليقظة أوماجال فى عقولنا من خواطر وتداعيات استحضرناها .. هل فى قدرة بعضنا أن يحلم حلماً بعينه ، كما يعرفه علماء «الثيوصوفية» .. فنحلم حلماً إرادياً ؟! كل ذلك من عالم اللاشعور ..

هل يمكن أن تسافر الروح وصاحبها يقظان ، فتأتيه بالأخبار من عالم بعيد كما يفعل «أو يدعى» أصحاب الرياضات من صوفية الهند والإسلام .. وكيف تتقاطع الخطوط ما بين النوم واليقظة ، فيتصل ما كان رؤية بماكان يقظة ، وكأنه لم تكن هناك مسافة بين الاثنين ؟!..

اعرف رجلاً يرى فى نومه أحداثاً تقع كما هى ، بعد يوم أو شهر أوحتى بعد وقت بعيد كما هى .. أو تفزعه الرؤيا بحدث سيحدث فى العاجل .. ويرى الموتى من أقاربه ينبؤنه بما سيحدث له أو لجيرانه أو من يعرف كما سيحدث ، وكأنه يقرأ من

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(٢) أخرجه مسلم ؛ جـ١٥ / ٢٢ كتاب الرؤيا، والبخارى عن أبى سعيد وأحمد وابن ماجة عن أبى رزين ، والطبرانى عن ابن مسعود ، الجامع الصغير ، ١ / ٢٥ .

اللوح المحفوظ . . كما يقول الغزالى . . ولولا ثقتى بمن يحدثنى ، وأنه لا يكذب علىً أو على الله، لم أهتم أو آبه لكلامه . . ولقد جربته كثيراً فصدق . . وهو على دين . . فمما بال من نقرأ عنهم يحدث لهم ذلك ، وهم غير ذوى دين بالمرة ، أو من الماجنين الفساق ؟!

لا شك أن لتصفية النفس وقراءة كتاب الكون بالتأمل فى الملك بإمعان . . وقلة الاختلاط بالناس فى الأسواق وسعة الاطلاع – أياً كانت عين طريق القراءة أو وسائل الإعلام المختلفة أو تجارب الحياة – تساعد هذه الأشياء على صدق الرؤيا . . فمن الناس من يرى الرؤية فتأتى مثل فخلق الصبح . .

ولكن الغالب من الرؤى ما يحتاج إلى تأويل وتعبير . . وفى القرآن الكريم يحدثنا الله، تبارك وتعالى ، عن سيدنا يوسف ، عليه السلام ، وقد كانت أبرز معجزاته وكراماته تعبير الأحلام ومعرفة مافى الغيب من أسرار – بإذن الله – وماحدث له فى بيت عزيز مصر ، وبراءته على يد الطفل ، إذ تكلم فى المهد ، وتعبيره بعد ذلك رؤيا السجينين . . . ورؤيا الملك بعد ذلك . . وكيف جاءت الأحداث مؤكدة لصحة تأويله . .

وإذاً فالرؤيا حق . . وهى من الله ، تعالى ، يثبت بها قلوب عباده ، أوهى عبارة عن تحذير لهم أو لغيرهم حتى يعودوا إلى حظيرة الإيمان . . أو هى أحداث كونية لا علاقة لها بالدين أو الأخلاق والسلوك . . فهل أضغات الأحلام والكوابيس ، التى أشار إليها الحديث الذى نحن بصدده ، لها أصل ، أم هى من الشيطان كما قال ﷺ ؟! . .

إن الصراع والمشاكل والأحداث الحياتية والخواطر التى تتسرب إلى الإنسان من مشاهداته وتجاربه ، أو تترسب فى عقله عبر الزمن . . تمثل مجموعاً كبيراً متشابكاً . . قد لا يقوى بعض الناس على هضمه أوتمثله والتخلص منه ، كما يحدث للسموم فى الكبد ، فيؤثر عليه سلباً . . عن طريق الأحلام والكوابيس . . فكان الشيطان فعل بهم ذلك . .أو من قبله . . وعلاجها يكون بمحاولة الإنسان التخلص من أسباب هذه الخواطر الشريرة والاستعانة بالطب النفسى بما فيه من علاج مفيد لهذه الحالات . .

وكذلك الذكر والدعاء والصلاة والتوجه إلى الله بالعمل الصالح . . ومد يد العون إلى الفقراء والمساكين واليتامى والمشاركة فى العمل التطوعى ، والشعور بأبناء المسلمين فى الوطن . . كل ذلك يعجل بالشفاء ويعيد للنفس توازنها .

٧- عمر، رضى الله عنه، والشيطان

عن سعد بن أبى وقاص قال : استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنَّك يارسول الله ، قال : عجبت من هؤلاء اللائى كنَّ عندى ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . قال عمر : فأنت يارسول الله كنت أحق أن يهبن . ثم قال : أى عدوات أنفسهن ، أتهبننى ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟!

قلنَ : نعم ، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ : قال رسول الله ﷺ : **والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك،** (١) .

والحديث ورد كذلك فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « مناقب عمر بن الخطاب »، رضى الله عنه (٢) .. أما ما ورد فيه من أن الشيطان يفر من عمر ، رضى الله عنه ، ويهرب من الطريق الذى يسلكه وذلك قوله ﴿ مالقيك الشيطان قط سالكاً ... الحديث ﴾ فيقول الحافظ ابن حجر : فيه فضيلة عظيمة لعمر تقتضى أن الشيطان لا سبيل له عليه . لا أن ذلك يقتضى وجود العصمة ، إذ ليس فيه إلا فرار الشيطان منه أن يشاركه فى طريق يسلكها ، ولا يمنع ذلك من وسوسته له بحسب ما تصل إليه قدرته (٣) .

والحافظ رحمه الله صرف الحديث إلى شيطان الجن دون شيطان الإنس ، والأولَى أن يفر منه شيطان الإنس من الكفار والفساق والمنافقين العصاة ، لأنه يراهم ويعرفهم ويدركون عقابه لهم لو تمكن منهم ، فهم يفرون من العقاب أو رهبة منه وهيبة ، ولمعرفتهم بقوة شكيمته وشخصيته وأنه لا يخاف فى الحق لومة لائم ..

أما شياطين الجن فهم يفرون من طريقه على سبيل المجاز فهؤلاء يراهم الذين يرونه ، فلا مواجهة ولالقاء ولا مشافهة فلمَ يهربون من طريقه ، ثم من قال أن مكان الشياطين هو الأرض؟!.. والراجح أن مكانهم فى الهواء أوالفضاء البعيد، ولوكان

---

(١) البخارى ؛ ٦ / ٣٩٠ حديث ٣٢٩٤ .
(٢) السابق ؛ ٧ / ٥٠ حديث ٣٦٨٣ .
(٣) الفتح ؛ ٧ / ٥٨

منهم من يسكن الأرض فهو فى الصحراء أو البوادى والنجوع والخرابات والأماكن المهجورة . .

والمعنى أن شياطين الإنس يهابون عمر ويخشون سطوته عليهم ، وكذلك من يفعل فعلاً يجارى فيه فعل الشيطان من الفسق والعصيان يخاف من عمر لجرأته فى الحق ، ولكونه القائم مقام الوزير من الرسول ﷺ الذى يحافظ على الأمن ويباشر أمور الحسبة فى دولة الإسلام ، وهوحق له مشروع أقره عليه الرسول ، ﷺ ، ورضيه الناس، ثم بعد ذلك لكونه أمير المؤمنين والخليفة الثانى بعد رسول الله ﷺ . .

وهناك معنى نفسى هو أن عمر ، رضى الله عنه ، قوم أخلاقه وهذب نفسه وزكاها بالتقوى والعمل الصالح وقهر باطلها وسيئ عملها فانتفى عنه كل فعل هو طاعة للشيطان ، لذا يخافه ويهابه لأنه لا يوجد شئ مشترك بينهما فعمر فى درجات الأولياء ، والشيطان عدو لله قال تعالى : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**(٦٢) ﴾ [١] . وحق لعدو الله أن يخاف من أوليائه كمايخاف منه .

قال الحافظ : فإن قيل : عدم تسليطه عليه بالوسوسة يؤخذ بطريق مفهوم الموافقة ؛ لأنه إذا صنع من السلوك فى طريق ، فأولى أن لا يلابسه بحيث يتمكن من وسوسته، له فيمكن أن يكون حفظ من الشيطان ، ولا يلزم من ذلك ثبوت العصمة له ، لأنها فى حق النبى واجبة وفى حق غيره ممكنة . ووقع فى حديث حفصة عند الطبرانى فى « الأوسط » بلفظ « إن الشيطان لا يلقى عمر منذ أسلم إلا خرَّ لوجهه » وهذا دال على صلابته فى الدين ، واستمرار حالهُ على الجد الصرف والحق المحض .

وقال النووى : هذا الحديث محمول على ظاهره وأن الشيطان يهرب إذا رآه ، **وقال عياض** : يحتمل أن يكون ذاك على سبيل ضرب المثل ، وأن عمر فارق سبيل الشيطان وسلك طريق السداد فخالف كل مايحبه الشيطان[٢] . . وهذا هو الصواب الذى نرتضيه لأن الشارع يذكر ما يذكر على سبيل ضرب المثل للتقريب والتفهيم والتعليم، وهو هنا للتقريب وكناية عن قوة عمر ، رضى الله عنه ، ومهابته ولكن الحافظ اختار الرأى الأول فقال . والأول أولى[٣] . . وهو مجرد اجتهاد والله هو الهادى إلى الرشاد .

---

(١) سورة يونس آية ٦٢ .

(٢) انظر شرح النووى على صحيح مسلم : ١٥ / ١٦٦ .

(٣) الفتح ، ٧ / ٥٩ .

المبحث الثالث

منهج الإمام أحمد بن يحيى في نقد فكر المجبرة حول إبليس

ويشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول : أصل قصة حي بن يقظان .

الفصل الثاني : أساسيات المنهج عند المسلمين .

الفصل الثالث : التكليف .

الفصل الرابع : عقيدة المجبرة في إبليس .

الفصل الخامس : إبطال مزاعم المجبرة في إبليس .

الفصل السادس: حول الرسالة :-

١- ترجمة المؤلف ومصنفاته .

٢- وصف المخطوط .

٣- منهجي في التحقيق

٤- نماذج من المخطوط .

الفصل الأول

أصل قصة «حي بن يقظان»

كنت أعتقد قبل أن يقع هذا النص بين يدى أن قصة «حى بن يقظان» [1] . هى إبداع خالص لابن سينا ٤٢٨هـ ، ونموذج رائع للقصص السلفى المبكر فى تاريخنا الإسلامى ؛ ثم جاء من بعده من فلاسفة الإسلام كابن طفيل ت ٥٨١ هـ ، والسهروردى المقتول ٥٨٧ هـ صاحب كتاب «حكمة الإشراق» ، وكذلك ابن النفيس ت ٦٨٧ هـ ؛ فأخذوا هذه الفكرة عنه وكتبوها كما تراءت لهم !

هذا هوالاعتقاد السائد ، إلا أنه ينبغى له أن يتغير بعدما وجدنا الإمام **أحمد بن يحيى ت ٣٢٥ هـ** قد سبقهم إليها ، فقد توفى قبل ابن سينا بمائة عام تقريباً ، مما يجعلنا نقطع بأن ابن سينا قد أخذ فكرة هذه القصة الفلسفية من الإمام أحمد ؛ وهو غير مستبعد ، فقد كان جل فكر ابن سينا فلسفى ، وأساسه فى الفلسفة وقد سبقه إلى سبر أغوارها الفارابى والكندى . فقد عرفا الفلسفة اليونانية وترجم منها الكثير، ولهما شروح على آرسطو وأفلاطون . . وإن كان تاثر الكند بآرسطو اوسع ، وقد نشر له د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة مجموعاً من رسائله ، سماه «رسائل الكندى الفلسفية» بالقاهرة سنة ١٩٥٠م . . أما الفارابى فقد تاثر بافلاطون تاثراً كبيراً ، وبفكره السياسى على وجه أخص .

إن الفكرة الأساسية التى تدور حولها قصة «حى بن يقظان» هى هل من الممكن أن يحصل الإنسان المعرفة بدون وجود وحى من السماء أو سابق معرفة له بالطبيعة أوما ورائها ؟ . . وهو ما نسمية بالخبرة المتوارثة هل لهذا الإنسان أن ينشئ معرفة من نفسه، تدله عليها فطرته مستخدماً مداركه الحسية والعقلية أم لا ؟ .

والظاهر من كلام الجميع إمكانية ذلك ؛ غير أن الإمام أحمد زاد عليها أن هذه المعرفة تحدث صحيحة بتأييد الله ، عز وجل ، وتوفيقه ودون تدخل لمعوقات طبيعة أو غير طبيعة لإفسادها أو تعطيلها . وقد عالج الغربيون هذه الفكرة فيما بعد إبان عصر النهضة فى أدبهم ، وفى سنة ١٧٩٥ تقريباً وجد عالماً فرنسياً غلاماً فى الغابات أخذه إلى باريس وحاول تعليمه الكلام ، والاستفادة من تجربته فى حياة الطبيعة مع الحيوانات .

---

(١) انظر حى بن يقظان : تحقيق د/ يوسف زيدان – هيئة قصور الثقافة .

ويبقى الإشارة إلى أن القصة على يد ابن سينا قد اتخذت طابعاً فلسفياً خالصاً واكتنفها كثير من الغموض والرمز والتركيب ، فى حين أنها عند الإمام أحمد كانت بسيطة ، ومع ذلك لم تكن ساذجة ؛ وتشير إلى عنصر فكرى واحد وهو إمكانية المعرفة دون وحي أو سابق خبرة ؛ مع التركيز على حرية الإنسان فى المعرفة .

ويبدو لى أن هذه القصة ذات جذور أبعد من ذلك ، فربما كانت من القصص العالمى الذى يصعب نسبته إلى بلد معين أو شعب ، أو أنها نشأت فى الوسط الإسلامى على يد القصاص والمحدثين لتقريب فكرة المعرفة المطلقة بالعالم والكون والألهية للناس.

وهذه القصة عند الإمام أحمد يُردُّ بها على تعنُّت المجبرة فى أن الله قد أعطى الإنسان الحرية فى الاختيار والقدرة والاستطاعة على الإيمان ، ويسر له طريق التكليف ثم أقدر عليه عدوه إبليس لينال منه ويتلاعب به ، ويتدخل بقدرته فيفسد طاعته لربه وإيمانه به وتوحيده له !.. ويبدو أنهم كانوا يرغبون فى الوصول إلى القول بأن الحياة وما فيها معادلة متعادلة الأطراف ليس فيها رابح أو خاسر .. وهى تبدأ وتنتهى كلعبة لها أصول ولكل واحد فيها دور.. وقد وضع مصممها كل شئ مسبقاً ، وما الناس والمخلوقات إلا دمى أو قطع خشبية على رقعة الشطرنج ، وسينتهى الأمر إلى أن الجميع لا شأن لهم بماكان يحدث ، إذ إنهم فعلوا ما قضى وقدر الصانع ، ولم يكن فى وسعهم أن يفعلوا غيرما فعلوا ، وسبق وأن رسمه لهم!

فزعموا بأن لإبليس قدرة على التصرف فى قلب الإنسان مما يؤثر على عقله وفعله ، دون أن يكون للإنسان قدرة على دفع هذا البلاء عن نفسه ، لقدرة إبليس الفائقة ، فهو قادر على أن ينسيه وقادر على أن يغويه وقادر على أن يرديه .. إلخ .

فقال الإمام أحمد إذا كان هذا جاء عندكم فى حق إبليس ، فما الفرق بينه إذاً وبين رب العالمين ؟! وهل يستطيع فعل ذلك : (فى رجل وامرأته كانا فى المركب ثم باق بهم المركب فخرجا إلى جزيرة ، فكان الرجل من مرته [1] ، فحملت غلاماً ، ثم بلغ الغلام ثلاث سنين ؛ ثم ماتا وتركاه ، أيصل إلى قلبه الأمر بالصلاة والصيام وجميع

---

(١) كناية عن الجماع .

(٢) انظر النص ؛ ١٣٤ ظ .

الفرائض بلا مخبر له ولا مصّير؟!) . وللمسألة جذور فى الفكر الإسلامى ، ملخصه أننا مكلفون بمعرفة الله ، تعالى ، قبل مجئ الشرع .

والإمام أحمد يتجاوز الحديث عن معرفته بالطبيعة من حوله وصولاً إلى اليقين، وأن وراء هذا الكون خالق رازق مبدع له أبدعه ، ينبغى عبادته وطاعته وقبول تكليفه . . وعند إذ يتوقف ليتسائل ، هل يمكن أن تحدث له هذه المعرفة التكليفية بالصيام والصلاة وغيرها من الفرائض والأحكام دون إرسال رسول له يخبره بأن الله الواحد الأحد يامره بها ؟! وهو رأى له اعتباره عند فريق من الإسلاميين .

وطبيعى" الإقرار بالمعرفة الأولى ، وإنكار الثانية ، فإن كانت الفطرة قد دلت الإنسان على معرفة الله وتوحيده ؛ فمن أين لها معرفة مراد الله فى خلقه ؛ فالأوامر الشرعية لابد لها من تبليغ ووحى ، وهذا يجرنا إلى القطع بأن الإمام أحمد يرى أن المعرفة بالله ضرورية : وفطرية لا تحتاج إلى نظر أو استدلال ، أو على الأقل لا تحتاج هى الأخرى إلى وحى وتبليغ ، وقد قال بمقالته الجاحظ وفريق من المعتزلة ؛ غير أن جمهور العلماء يقول بأن هذه المعرفة هى الأخرى تحتاج إلى الوحى والتبليغ وإلى النظر والاستدلال العقلى المصاحب له .

ويريد الله أن يبطل حجة الناس فى أنه أخذهم أو عذبهم دون إرسال رسل إليهم بالوحى الذى يكلفهم بتوحيده وعبادته قال تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿٤٧﴾** ﴾ [1] . فقد أرسل موسى ، عليه السلام ، لهذا الغرض . . وكذلك رسولنا ، ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ **وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴿٨﴾** ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ**

---

(١) سورة القصص الآيتان ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة الزخرف الآيات ٦ - ٨ .

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [1] . وهذا هو شأن من كفل الله له حرية الاختيار بعد أن منحه مسئولية التكليف .

أما فى حق رسول الله ﷺ ، قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٨﴾ ﴾ [3] . ويقف الرسول عند حدود الدعوة ولا يكره أحداً على الإيمان به .

وقد أرسل الله أنبياءه ورسله ليقطع على المكذبين طريق الاحتجاج بأنه لم ينذرهم ويحذرهم قبل نزول العذاب أوأن يلحقهم العقاب : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [4] وقال : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴿١٦٥﴾ ﴾ [5] . فإرسال الرسل سبيل لانقطاع حجة المكذبين .

لقد خلق الله إبليس لطاعته وافترض عليه طاعته ، ولا يعقل أن يكون إبليس فى إضلاله وإغوائه للخلق مطيعاً لله ! . . وعلى هذا فإن إبليس فى إضلاله للغلام فى الجزيرة قد عصى ربه واتبع هواه وخالف خالقه ووجب عذابه بمعصيته . إن افترضنا قيامه بذلك ، كما يظن المجبرة أنه دوره الذى خلقه الله له .

ثم كيف يضل إبليس ذلك الغلام فى الجزيرة ويغويه وكذلك ذرية آدم ، هل لإبليس قدرات خارقة يستطيع بها ذلك ؟! . . أم أن الأمر مجرد وهم فى عقولهم ، دعت إليه النظرة الجبرية والقصور العقلى لديهم ؛ فى أن الله خلق الإنسان وسلط عليه بعض خلقه لقهره وإضلاله وهى مجرد تمثيلية افتعلها لتعذيب الإنسان !

ويعمد هؤلاء إلى المخالفة والمجادلة بالباطل ، حول مفهوم العدل والحكمة والظلم بين الله ، تعالى ، وخلقه . . فيزعمون أن مفهومهما يختلف فى عالم الشهادة عنه فى عالم الغيب . . وماكان فى حق مكتسبه ظلماً ، فليس بالضرورة أن يكون كذلك فى حق خالقه!! . .

---

(١) سورة الحديد آية ٢٦ .
(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .
(٣) سورة الفتح آية ٨ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٨٤ .
(٥) سورة النساء آية ١٦٥ .

فهلا قال لهم الله ، عز وجل ، إن العدل الذى أمرت به أوان الظلم الذى نهيت عنه يختلف مفهومه بالنسبة لذاتى ، عن الذى بينته لكم وفرضته عليكم ؟!

اسمع هذه الآيات ثم أطلق لنفسك عنان التأمل ، لعلك تهتدى لما لم يهتد إليه الظالمون المفترون :

قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ (١) .

فالله صادق .. والله عادل .. وما كان له أن يكذب علينا ، فيأمرنا وهو لايريد أن نفعل ماأمر .. أو ينهانا وهو يريد أن نفعل مانهى ، والعياذ بالله .. تقدس ربنا عما يقول الظالمون .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢) فهل هذا شأن من يجوز فى حقه أن يظلم خلقه ؟!

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣) . والله هو العدل ، وهو صفة كمال ، فكيف ننسب له ما هو قدح فى ذاته ، ويكون عيباً لو اتصف به أحد من خلقه ؟!.

* * *

---

(١) سورة الانعام آية ١١٥ .

(٢) سورة النساء آية ٥٨ .

(٣) سورة النحل آية ٩٠ .

الفصل الثاني

أساسيات المنهج عند المسلمين

١ - مصادر المنهج الإسلامى

١ - ينبغى الرجوع إلى الكتاب والسنة :

قال تعالى :﴿ الر كتابٌ أنزلْناهُ إليْكَ لتُخرِجَ النَّاسَ منَ الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ ﴾ [١] وقال ﴿ كتابٌ أنزلْناهُ إليْكَ مُبارَكٌ ليَدَّبَّرُوا آياتِه ﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ فإن تولَّوْا فإنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [٣] وقال :﴿ وأطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ لعلكم ترحمون ﴾[٤] .

فما أصول التشريع التى يعتمد عليها المنهج الإسلامى؟.. لاتأخذ الأحكام الشرعية إلا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس عند بعض الفرق .

١ - والكتاب الكريم : هوالقرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه قال تعالى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ والْكِتابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إنَّا جعَلْناهُ قُرْآنًا عرَبِيًّا ﴾ [٥] ، ﴿ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [٦] ، ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرآنِ وكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ [٧] .

ويشتمل على العام والخاص ، والمجمل والمفسر ، والمطلق والصريح والكناية .

وفيه أيضا دليل الخطاب ومفهومه ، وكل هذه الوجوه منه أدلة على مراتبها ، وإن كان بعضها فى الاستدلال به على مدلوله أجلى من بعض ، وما غمض منه وجه دلالته ، على الضعيف فى نظره ، يعلمه المستنبط الموفق ، لقوله تعالى : ﴿ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [٨] .

أما تاويل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللَّهُ والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾[٩] .

فقال فريق من العلماء : يعنى ليس يعلم تاويل المتشابه إلا الله ، ولم يُطلع أحداً من خلقه عليه . وهؤلاء وقفوا فى قراءة الآية على لفظ الجلالة .. وأعربوا « الواو » فى « والراسخون » على الاستئناف .

---

(١) سورة إبراهيم : ١ .. (٢) سورة ص آية ٢٩ .
(٣) سورة آل عمران : ٣٢ . (٤) سورة آل عمران آية ١٣٢ .
(٥) سورة الزخرف الآيات ١ ، ٣ . (٦) سورة الأحقاف آية ١٢ .
(٧) سورة النمل آية ١ . (٨) سورة النساء آية ٨٤ .
(٩) سورة آل عمران آية ٧ .

وقال فريق آخر : إن المعنى فى الآية أنه قد يعلمه الراسخون فى العلم ، وإن هذا القول عطف ، أى أن « الواو » فى « والراسخون » للعطف ، فهى معطوفة على لفظ الجلالة ، واحتجوا بقول الشاعر :

الريح تبكى شجوه .. والبرقُ يلمع فى غمامه

قالوا : فالبرق معطوف على الريح [1] .

أشار الأشعرى إلى موقف الناس من المحكم والمتشابه ، فقال : اختلفت المعتزلة فى محكم القرآن ومتشابهه :

١- فقال «**واصل بن عطاء**» و «**عمرو بن عبيد**» : المحكمات ما أعلم الله، سبحانه من عقابه للفساق ، كقوله : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا** ﴾ [2] وما أشبه ذلك من أى الوعيد ، وقوله : ﴿ **وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾ [3] نقول : أخفى الله عن العباد عقابه عليها ، ولم يبين أنه يعذب عليها ، كما بين فى المحكم منه .

قال «**أبو بكر الأصم**» : محكمات : يعنى حججاً واضحة لا حاجة لمن يتعمد إلى طلب معانيها كنحو ما أخبر الله ، سبحانه ، عن الأمم التى مضت ممن عاقبها ، وما يثبت عقابها ، وكنحو ما أخبر عن مشركى العرب أنه خلقهم من النطفة ، وأنه أخرج لهم من الماء فاكهة وأبا ، وما أشبه ذلك ؛ فهذا محكم كله ؛ فقال : قال الله سبحانه : ﴿ **آيات محكمات هنَّ أم الكتاب** ﴾ أى الأصل الذى لو فكرتم فيه ، عرفتم أن كل شئ جاءكم به محمد ، ﷺ ؛ حق من عند الله ، سبحانه ﴿ **وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾ [3] .

وهو كنحو ما أنزل الله من أنه يبعث الأموات .

٢- **أما السنة** : التى يؤخذ عنها أحكام الشريعة فهى المنقولة عن النبى ، ﷺ ، إما **بتواتر يوجب العلم الضرورى كنقل** أعداد الركعات وأركان الصلاة ونحوها ، **وإما بخبر مستفيض يوقع العلم** المكتسب كنقلهم نصب الزكاة وأركان الحج ، **وإما برواية الآحاد التى توجب** روايتهم لها العمل دون العلم .

---

(١) الأشعرى : المقالات ؛ ١ / ٢٧٠ ؛ ٢٧١ .

(٢) سورة النساء آية ٩٣ .

(٣) سورة آل عمران آية ٧ .

ووجوه دلائل السنة على الأحكام كوجوه دلائل القرآن من عام وخاص ومجمل ومفسر وصريح وكناية وناسخ ومنسوخ ودليل خطاب ومفهومه وأمر ونهى وخبر ونحوها .

٣- **وأما الإجماع** : المعتبر فى الحكم الشرعى فمقصورعلى إجماع أهل عصر من أعصار هذه الأمة على حكم شرعى ، فإنها لاتجتمع على ضلالة .

٤- **وأما القياس** : فى الشرعيات فإنما يستدرك به معرفة حكم الشئ الذى ليس فيه نص ولا إجماع على حكمه .

١- **احدها القياس الجلى** : وهو الذى يكون فرعه أولى بحكمه من أصله كتحريم ضرب الأبوين ، لقياسه على ما حرم ، عز وجل من قول الولد لهما : أف ، قال تعالى : ﴿ **فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ...** ﴾ (١) .

٢- **والثانى قياس فى معرفة الأصل** المقيس عليه من كل وجه كقياس العبد على الأمة فى تنصيف الحد لتساويهما فى الرق ، وقياس الأمة على العبد فى التقوم على أحد الشريكين ، إذا أعتق نصيبه منه وهو موسر ، وكماحرم الله، عز وجل ، البيع فى وقت النداء للجمعة ثم قسنا عليه عقد الإجارة ، وسائر العقود فى ذلك الوقت ، وليس الأصل فى هذه الأحكام باكثرهما شبهًا .

٣- **والثالث** : **قياس شبهٍ** فى فرع بين أصلين متعلق باكثرهما شبها ، **وقياس خفى** كالعلة فى فروع الربا ، إذا قيس فيه الفروع منها على الحنطة والشعير والتمر والملح والذهب والورق ، وهذه وجوه مدارك أحكام الشريعة على أصول أهل السنة .

وقد خالف أهل السنة فى هذه الأصول **البراهمة** فانكروا جميع الشرائع جملة وتفصيلاً ، وانكروا بعثة الأنبياء والكتب السماوية ؛ أما **الخوارج** فقد أنكروا الإجماع وحجيته بعلل ليس هنامكان عرضها ، وكذلك انكروا السنن الشرعية ، أما **الروافض**

---

(١) سورة الإسراء الآيتان ٢٣ - ٢٤ .

الغالية فقد أنكرت جميع أحكام الشريعة وأبطلتها ، بفكرة الوصاية والدور [١] الذى يدعونه ولذلك أكفرتهم جميع طوائف المسلمين ، بما فيهم الشيعة أنفسهم ؛ وشارك النظام وأصحابه من المعتزلة الخوارج فى إنكار الإجماع والقياس [٢] .

وقد شخص الإمام أحمد أسباب خطأ الإنسان فى فهم الدين فقال : «إن الخلق تركوا معدن الهدى ، واتبعوا الهوى ، فخالفهم الردى .. ومالوا إلى الدنيا وتقليد الرؤساء» .. كما أنهم تركوا الحكم بالكتاب والسنة والاجتهاد فى النص بما يوافق مقاصد الشريعة ، وتجاهلوا أهل العلم الراسخين فيه وعلى رأسهم أهل البيت المطهرين فوقعوا فى الجهل والمراء [٣] . قال ، ﷺ : «**من كتم علماً وهو يعلمه ألجمه الله بلجام من نار**» [٤] .

وقد حكم الناس الظن فى فهم الدين كما حكموا الهوى والتقليد من قبل رغم أن الظن لا يغنى من الحق شيئًا ، وقد أفاض القرآن فى التحذير من الظن والهوى وتقليد الآباء والكبراء ، فهى التى أردت القدماء فعبدو الأصنام وأشركوا بالرحمن وقتلوا أبناءهم وبناتهم واستباحوا حرماتهم قال تعالى : ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يخْرُصُونَ (١١٦)** ﴾ [٥] .

﴿ **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [٦] .

﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِن** ﴾ [٧] .

﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾ [٨] .

وقد عقد الإمام **يحيى بن حمزة العلوى** ت ٧٤٩ هـ فصلاً فى الاجتهاد والتقليد من

---

(١) انظر كتابنا الرد على الروافض .. فقد أشرنا إلى ذلك .. وجاء مخطوط القاسم الرسى ليؤكد كفر قائل هذا الكلام ؛ ٨٩، ١٠١ .

(٢) انظر فى هذا الموضوع البغدادى : أصول الدين ، ص ١٣ – ١٩ .

(٣) انظر النص ؛ ١٢٥ و .

(٤) رواه ابن ماجة ١ / ٩٧ ، واحمد فى مسنده ٢ / ٤٩٩ ، ٥٠٨ ، وفى طبقات ابن سعد عن ابن مسعود ، وهو ضعيف، الجامع الصغير ، ٢ / ١٨٠ وفى معناه ايضا : «من سئل..» فى الترمذى وابى داود .

(٥) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٦) سورة الروم آية ٢٩ .

(٧) سورة المؤمنون آية ٧١ .

(٨) سورة البقرة آية ١٧٠ .

كتابه « الرائق فى تنزيه الخالق » [1] ، بين فيه مفهوم الاجتهاد والتقليد وأحكامهما فى الإسلام ، ووضح الفرق بين المجتهد الكامل والناقص ، وما يجوز فيه الاجتهاد وما لا يجوز ، وكذلك ما يجوز فيه التقليد وما لا يجوز .. ومتى يكون محموداً ومتى يكون مذموماً .

ويرسم الإمام أحمد منهجاً فى فهم قضايا الدين عموماً ، وهذه القضية التى نحن بصددها ، وهى قدرة إبليس على الوسوسة وإغواء بنى آدم وهم لا حول ولا قوة لهم فى رد ولا صد ذلك البلاء عنهم ؛ لقدرة عدوهم القادرة وقوته الفائقة على التحايل عليهم والدخول عليهم من كل باب وسبيل ؛ فيقول ينبغى عند فهم هذه القضية وكل قضايا الدين طرح الهوى جانباً والمكابرة ومعاندة المعقول ، فكل ما لا يقبله عقل ولاشرع ويقدح فى أصول التوحيد والعدل ينبغى طرحه جانباً قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)** ﴾ [2] .

ويشير الإمام أحمد إلى أن القرآن الكريم لا يتناقض ولا يختلف أحكامه فمثلاً لا يقرر الله قاعدة التيسر فى التكليف ، ثم يكلفنا بما يشق علينا قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [3] ، ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [4] ، وقال ، ﷺ : « **يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا** » .

وقال تعالى عن التكليف ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ [5] . ومن أشد أنواع التعسير والتعنت أن يكلفنا الله بما لا نفهمه ولا نعقله ولا يصح فى مداركنا ومعارفنا، والوسوسة ، – التى يزعمها المجبرة لإبليس – من هذا القبيل [6] .

ولذلك يقول الإمام أحمد المرة بعد الأخرى : القرآن لا يتناقض ولا يختلف ، وأن لكل معنى من هذا الجنس – أى ادعاء إغواء إبليس وتسلطه على الإنسان – تأويل

---

(١) انظر دراستنا « عقيدة التنزيه عند المسلمين » وتحقيق النص من ١٢٣ – ٢١٩ .

(٢) سورة ص آية ٢٦ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٥ .

(٤) سورة الحج آية ٧٨

(٥) سورة البقرة آية ٢٨٦

(٦) انظر النص ١٣٨ و

يرده إلى الحق والعدل والحكمة والبراءة من التناقض والعيب والفساد »[1] . فدعا الى وجوب النظر والتأويل وتنزيه القرآن عن التناقض .

٢- موقف العلماء من تعارض النصوص

وهذا يجعلنا نبيّن موقف علماء الإسلام من تعارض النصوص ، فقد اختلفوا فى ذلك .. فإذا كان لكل من الآيتين حكم مخالف لحكم الأخرى ، مما قد يجوز أن يجتمع حكمهما ، على اختلافهما ، على إنسان فى وقتين ، ويتنافيان فى وقت واحد .

كقوله تعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ﴾[2] فحكم الله سبحانه ، قبل المواريث أن يوصى الرجل عند موته بماله لوالديه وأقربائه ، ثم حكم للوالدين بالميراث فى فرضه المواريث ، ثم قال : ﴿ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ** ﴾[3] !

(١) **فقال قوم** : نسخت آية المواريث للوالدين آية الوصية لهما ، وهم الذين قالوا : « لا ينسخ القرآن إلا القرآن » .

(٢) **وقال مخالفوهم** : ليست آية المواريث للوالدين بناسخة لآية الوصية لهما ، وإنما نسخت آية الوصية لهما سنة رسول الله ، ﷺ ، وهى قوله : « **لا وصية لوارث** »[4] ، ولولا سنته بذلك كانت الوصية للوالدين على حالها جائزة ؛ لأن الله ، سبحانه ، إنما حكم بالمواريث لأهلها من الوالدين وغيرهما من بعد وصية يوصى بها الرجل أو دين .

ولولا سنة رسول الله ، ﷺ ، أنه « لا وصية لوارث » كان للرجل إذا احتضر أن يوصى بماله لوالديه ؛ لأن الله ذكر ميراثهما ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾ ، فإن لم يوصِ لهما كان لهما الميراث بآية المواريث .

---

(١) انظر النص ؛ ١٤٥ ظ .

(٢) سورة البقرة آية ١٨٠ .

(٣) سورة النساء آية ١١ .

(٤) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارمى ، وفى طبقات ابن سعد جـ٢ ق ٢ ص ١٣١ ، وأحمد فى مسنده ٤ / ١٨٦ .. و ٥ / ٢٦٦ ، والطيالسى فى ١١٢٧ .

وقال أهل هذه المقالة : إنما الناسخ والمنسوخ ما ينفى حكمُ الناسخ حكم المنسوخ، أن يحكم به على عين واحدة أو فى حالين ، لتنافى ذلك فى المعنى كقوله : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (١) وقال : ﴿ وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ (٢) ، فجعل عدة اللواتى حضن الاقراء ، واللائى لم يحضن لصغر أو كبر الشهور ، ثم نسخ من هؤلاء المطلقات اللاتى لم يُدخل بهن، فقال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ (٣) ، فخرجن اللواتى لم يدخل بهن من حكم الآيتين جميعاً (٤) .

وهكذا قد آثرنا ذكر موقف العلماء فى هذا المسألة .. لبيان الفرق فى التعارض بين آيات الأحكام وآيات العقيدة والتوحيد .. وأن ما يجوز فى الأولى – مع تحفظنا فى كونه نسخاً – لا يجوز فى الثانية .

ويحتوى القرآن على المحكم والمتشابه والمجمل والمفسروالمطلق والمقيد ؛ والعوام لا يدركون من ذلك شيئًا ، كما أنهم يقع فى مداركهم أوهام ليست من القرآن فى شئ، ولذلك يقول الإمام أحمد «وفى القرآن الكريم آيات متشابهات لها تأويل لا يعقله العوام ولا الغباة من الأنام ، ولها أيضا معانى دقيقة فى لغة العرب تعرفها العرب فى كلامها ويجوز فى خطابها ، لما خاطبها رسول الله ﷺ وعلى آله عن الله ، جل ثناؤه بلسانها العربى المبين ، الذى لا عوج فيه ولا عماية فى نسقه ولا خفاء عنهم فى تصريفه ، ولذلك لزمتهم به الحجة ، إذ هو عربى لا يخفى عليهم منه حرف واحد فما فوقه ؛ لأنه عربى مبين ، كما قال الله ، عز وجل » . (٥) .

وجدير بالذكر الإشارة إلى موقف المتكلمين من حال العامة ، إن جال بخاطرهم شبهة من التشبيه .. يقول الأشعرى : واختلف الناس فى العامة والنساء الذين على جملة الدين ، إذا خطر ببالهم التشبيه على مقالتين :-

(١) فقال فريق : عليهم أن يتفكروا فى ذلك ؛ ويتبعوا فى ذلك حجة .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٨ .

(٢) سورة الطلاق آية ٤ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٤٩ .

(٤) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ٢ / ٢٥٢ – ٢٥٣ .

(٥) انظر النص ، ١٣٩ و .

(٢) وقال آخرون : ليس ذلك بواجب عليهم ؛ وقد يجوز أن يعرضوا عنه فلا يعتقدوا فيه شيئاً ، ولكن عليهم أن يعتقدوا إن كان ناقضاً للجملة التى هم عليها ، فهو باطل [١] .

ومن عدل الله عز وجل ، ورحمته بعباده أنه يخاطبهم بما يعقلون عنه بمداركهم وما أعطاهم من حواس وعقل ويفهمونه : وليس يجوز فى عدل الله ، جل ثناؤه ، أن ينهى عن أمر لا يقدر أحد على دفعه عن نفسه ، ولا يجوز أن يحذرنا عن أمر لا نعقله ، ولا نقف على كيفيته ولانهتدى إلى وصفه ، ولا ندرى حتى يقع بنا من ليل أو نهار... لأن هذا ليس من صفة العادل الحكيم الرحيم المتفضل الحسن الفعل الذى لايجور ولا يظلم» . [٢]

والله ، عز وجل ، لا يجور ولا يظلم ولا يفعل قبيحاً ، كما يزعم المجبرة .

ومما لا يعقل فى حق الله ، تبارك وتعالى ، أن يحذرنا النار ثم يدس علينا شخصية إبليس لنقع فيها !.. وبعد أن يقدم لنا الإمام أحمد مثلاً يقيس عليه فعل الحق تبارك وتعالى بنا فلا يجوز فى ذاته تعالى أن : «يحذرنا من النار ومن عمل يقربنا إلى الخلود منها أبد الأبيد .. ثم يدس إبليس وجنوده فى خفاء فيأتونهم من المواضع التى لايقدرون الحذر منها..!» [٣] .

وقد جاء بعد الإمام أحمد من استفاد من نظريته فى فهم المتشابه فى القرآن الكريم، ومن هؤلاء **القاضى عبد القاهر الجرجانى** فى «**دلائل الإعجاز**» **والزمخشرى** فى «**الكشاف**» و«**الأساس**» .. حيث أبدع الأول نظرية النظم ؛ وتحدث الثانى عن التفسير البيانى للقرآن الكريم ، وقد بين ذلك بوضوح الإمام يحيى فى كتابه «**الشامل**»، و«**الرائق**» [٤] .

* * *

---

(١) الأشعرى : المقالات ، ٢ / ١٠٣

(٢) انظر النص ، ١٤٢ ظ

(٣) انظر النص ، ١٤٣ و .

(٤) انظر الرائق فى تنزيه الخالق بتحقيقنا والدراسة التى عليه ، ص ١٦٠ - ١٦٢

٣ - المنهج واللغة

ويتابع الإمام أحمد في رسم خطوط المنهج وخطواته فيقرر أن هناك من آيات القرآن ما لا يفهم إلا في ضوء معانيها وما تنصرف إليه من لغة العرب فيذكر الفرق بين الحقيقة والمجاز ، واللغة العربية مجازية ، فيقول : « ومن الحجة لنا على من خالفنا وصرف معاني القرآن على ما يظن هو ، قول الله ، عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[١] ... ولا يعقل أنه خلق من عجل ولكن العجل منه هو .. فيقول : إن أهل اللغة واللسان العربي يقولون : إن مجاز ذلك مثل قولهم عرضت الدابة على الماء . يعني الماء على الدابة ، ومثل قوله ، تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾[٢] وإنما الوجه أن تكون العيشة مرضية »[٣] .

ورد الزمخشري على من تسائل بقوله : لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[١] ، وقوله : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾ ﴾[٤] ، أليس هذا من تكليف ما لايطاق ؟.. وأجاب بقوله : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها ؛ لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة »[٥] .

أما الآية الثانية « فراضية » منسوبة إلى الرضا ؛ كالدارع والنابل ، والنسبة نسبتان : نسبة بالحرف ، ونسبة بالصيغة . أو جعل الفعل لها مجازاً وهو لصاحبها[٦] .

ويقول ابن قتيبة في كتابه « مشكل القرآن » : ومنه أن يجئ المفعول به على لفظ الفاعل »[٧] .

كقوله سبحانه : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾[٨] أي لا معصوم من أمره .

وقوله : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ ﴾[٩] ، أي مدفوق[١٠] .

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٣٧ .
(٢) سورة الحاقة آية ٢١ .
(٣) النص ؛ ١٤٧ و .
(٤) سورة الإسراء آية ١١ .
(٥) انظر الزمخشري : الكشاف ؛ ٢ / ٦٥١ .
(٦) المصدر السابق : ٤ / ٦٠٣ .
(٧) ابن قتيبة : مشكل القرآن ؛ ص ٢٧٥ حتى ٢٩٨ .
(٨) سورة هود آية ٤٣ .
(٩) سورة الطارق آية ٦ .
(١٠) انظر في ذلك مجاز القرآن لأبي عبيدة ؛ ٣ / ٢٦٨ .

وقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنً ﴾ [1] ، أى مأموناً فيه .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [2] ، أى مبصراً بها .

والعرب تقول : ليل نائم ، وسرٌّ كاتم ، قال « وَعْلَةُ الجَرْمى » :

ولما رأيت الخيل تترى أثايجاً .. علمتُ بأنَّ اليوم أحمسُ فاجرُ

، أى يوم صعب مفجور فيه [3] .

وهذا ما يسميه علماء اللغة والبلاغة المقلوب من الكلام ، فيقصد المتكلم اسم المفعول ويذكر اسم الفاعل أو العكس . وهو أنواع عديدة غير ما ذكرنا .

***

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٧

(٢) سورة الإسراء آية ١٢

(٣) انظر الأصمعيات، ص١٩٨ .. وهومطلع قصيدة من بحر الطويل .. وانظر « المعانى الكبير » لابن قتيبة كذلك ، ٢ / ٩٤٦ .

٤ - عرض السنة على الكتاب

ومن القواعد التى يذكرها كذلك الإمام أحمد لتفادى أكاذيب القصاص والمحدثين على رسول الله ، ﷺ ، عرض السنة على الكتاب : وأما ما رووا من الأحاديث فى الشيطان ، وما أكثروا الرواية فى ذلك عن النبى ، ﷺ ، وغيره فما أمكن التأويل فى القرآن كان التأويل فى الأحاديث أجدر وأحرى ، وليس كل حديث روى يجب أنه حق ، لما قد عرفنا من كذب كثير من الأحاديث مما يبطله القرآن .

وقد قال صلوات الله عليه وعلى آله وسلم : «**ما آتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق الكتاب فهو منى ، وأنا قلته**» ، وماخالف الكتاب يمكن تقريره بالقاعدة التالية :-

١ - التثبت من الحديث سنداً ومتناً .

٢ - إذا خالف الحديث ، الصحيح السند، صريح القرآن يرد إلى التأويل ، ما أمكن ذلك، فى ضوء الكتاب .

٣ - إن استحال التوفيق ، أو تأويل الحديث ، بعد عرضه على كتاب الله يرد؛ الحديث لمخالفته لمحكم الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وحتى لا يبطل الكتاب والسنة جميعاً ، وهى قاعدة يوافقه عليها أغلب المحدثين .

وقد اختلف العلماء فى موضوع نسخ القرآن والسنة - عند من أجاز النسخ - فقالوا: هل يُنسخ القرآن بقرآن أو بسنة ؟ والسنة هل ينسخها القرآن أولا ينسخها إلا سنة مثلها ؟.. وجاءت آراؤهم على أقسام :-

(١) **فقال قوم** : لا ينسخ شئ من القرآن بسنة رسول الله ، ﷺ ، .. وهذا صحيح إن سلمنا بجواز النسخ فى القرآن وهو موضوع طويل ، غيرأن كثيرين من القائلين بالنسخ فى القرآن الكريم ، يقصدون به التدرج فى التشريع .. وإلا كيف يجوز البداء على الله ؟!

---

(١) النص ١٤٧ ظ .

(٢) **وقال آخرون** : السنة تنسخ القرآن وتقضى عليه ؛ والقرآن لا ينسخ السنة ولا يقضى عليها . وأكثر هؤلاء من المحدثين .. وهوكلام يحتاج إلى نظر .. إذ كيف تقضى السنة بنسخ الكتاب ووجودها من وجوده .. ولم يكن النبى نبياً إلا بالوحى المنزل من السماء؟ .. والأصح أن السنة مبينة للكتاب وموضحة لمقاصده .. فالشرع كتاب وسنة لا يتناقضان حتى يقال بالنسخ بينهما .. إلا إذا كان توجيهاً وتصحيحاً لمسيرة الدعوة فى زمن التنزيل ، كما حدث فى أسرى بدر مثلاً .. فقد قضى الرسول ، ﷺ ، بحكم .. وعاتبه الكتاب على ذلك وبين له الحكم الآخر .. أوكما فعل الرسول ﷺ ، مع عبد الله بن أم مكتوم ، رضى الله عنه ، اجتهاداً منه .. ولامه الوحى فى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١﴾ [١] ..

(٣) أما من قال بأن القرآن ينسخ السنة ، والسنة لا تنسخ القرآن .. فهو أقرب للصحة والصواب لما ذكرنا من قبل .

(٤) أما مقالة الفريق الأخير التى قال فيها : إن القرآن والسنة حكمان من حكم الله، عز وجل ، العلم والعمل بهما على الخلق واجب ، فجائز أن ينسخ الله القرآن بالسنة ، وأن ينسخ السنة بالقرآن ؛ لأنهما جميعاً حكمان لله ، سبحانه ، ينسخ من حكمه بحكمه ما شاء [٢] .

وهذا الفريق يبدو من كلامه الرحمة ، إلا أن النقاش معه يطول بداية من زعمه أن الله حفظ السنة كما حفظ الكتاب .. وكونهما بمنزلة واحدة .. ونهاية بقضية النسخ .. فهل تنسخ السنة الكتاب ؟!.. ومناقشة هذا الفريق تطول لكثرة جداله .. وتطبيقه الخطأ على مفاهيم لا نسلم بها أصلاً .

*** الأمثال فى القرآن الكريم :**

كما ذهب الإمام إلى أن هناك من آيات الله فى القرآن الكريم **ما هو ضرب للأمثال** لتقريب المعانى للمفاهيم قال تعالى : ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ۝٤٣**﴾ [٣] .

---

(١) سورة عبس آية ١

(٢) الاشعرى : المقالات ؛ ٢ / ٢٥١ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٣

فأخبر أنه قد ضرب أمثالاً لا يعقلها إلا العالم بها ، وليس يجوز قولهم فى الوسوسة على أحد له أدنى عقل ؛ إذ لا حجة معهم توجب قبول ذلك ممن خالفهم ، « والدليل على الخلق الاضطرار إلى قبوله ، وليس معهم فى الوسوسة حجة تضطر أحداً إلى قبولها . . »[1] .

وتفسير هذه الآية يساعد فى فهم المراد من النص ؛ فقد كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك، فلذلك قال : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[2] ، اى لا يعقل حسنها وفائدتها إلا هم ؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هى طرق إلى المعانى المحتجبة فى الأشياء ، حتى تبرزها وتكشف عنها وتصورها للأفهام ، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحاول الموحد، وعن النبى ، ﷺ ، أنه تلا هذه الآية فقال : « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سُخطه »[3] .

ويقول الإمام أحمد فى هذا الصدد : « هذه الأمثال والمعانى تحتاج إلى التأويل وطاعة العلماء والمستخلفين من أهل بيت النبوة ، عليهم السلام . . لأنه لا يعقلها إلا أهل العلم ولا علم لمن جهل معدن الحق وقدر النبوة وخيرة الأمة »[4] وماعظم المجبرة إبليس ورفعوا من شأنه إلا لجهلهم وتجاوزهم فى عقائدهم ، فأشركوا من حيث لا يدرون شركاً كبيراً حيث نسبوا له قدرة خارقة وأعمالاً لا يأتى بها إلا الله الواحد .

ومن الأمثلة التى ذكرها الإمام أحمد من القرآن الكريم ، التى ضربها الله ، عز وجل، للتفهيم والتقريب ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[5] والسموات والأرض لم تقبل ولم تأت على وجه الحقيقة ، وإنما هو مثل لأنها جماديات لا تسمع ولا تبصر ولا ترى ولا تتكلم وليس لها وجدان أو عاطفة بها تشعر ، ولكنه مثل منه ، عز وجل ، يفيد أنها لوكانت تعقل كما يعقل الإنسان وتفهم كفهمه لماحملت الأمانة كما حملها ، ولأشفقن منها[6] .

---

(١) النص ؛ ١٤٩ و .
(٢) سورة العنكبوت آية ٣٤ .
(٣) الزمخشرى : الكشاف ، ٣ / ٤٥٥ ، وبهامشه أخرج الحديث داود بن المحبر . . والواحدى والبغوى ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .
(٤) ، (٦) انظر النص ؛ ١٤١ و .
(٥) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

ويذكر الطبرى فى تفسير هذه الآية والتى بعدها ، أن الله ، جل ذكره ، لما استخلف آدم على ذريته ، وسلطه على جميع ما فى الأرض من الأنعام والطير والوحش - عهد إليه عهداً **أمره فيه ونهاه** ، **وحرَّم عليه** وأحل له ، فقبله ، ولم يزل عاملاً به إلى أن حضرته الوفاة.

فلما حضرته ، ﷺ ، سأل الله أن يعلمه من يستخلف بعده ، ويقلده من الأمانة ما قلده ؟.. فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذى أخذ عليه من الثواب إن أطاع ، ومن العقاب إن عصى ، فأبين أن يقبلنه شفقاً من عقاب الله .

ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال ؛ فكلها أباه ، ثم أمره أن يعرضه على ولده ؛ فعرضه عليه ، فقبله بالشرط ، ولم يتهيب منه ما تهيبته السماء والأرض والجبال.. ولذلك كان « جهولاً » بعاقبة ما تقلد لربه [1] ..

وبعد أن عرض بعض الاجتهادات الأخرى فى تفسير الآية ، قال الطبرى : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، ماقاله الذين قالوا : إنه عنى بالأمانة فى هذا الموضع جميع الأمانات فى الدين وأمانات الناس . وذلك أن الله لم يخص بقوله : « عرضنا الأمانة » بعض معانى الأمانات ، لما وصفنا » [2] .

ومن قواعد اللغة التى ينبغى مراعاتها وملاحظتها عند النظر فى القرآن الكريم ما يذكره الإمام أحمد ، **وهو جواز مخاطبة الجميع بما يصح إطلاقه على الفرد** ، فقال : « يجوز فى لغة العرب التى يخاطبه بها ، الجميع بالشئ الذى هو فى البعض دون الكل.

والذى يقول عنه ابن قتيبة «**باب فى مخالفة ظاهر اللفظ معناه**» ويذكر أن منه أن يجتمع شيئان ولأحدهما فعل ، فيجعل الفعل لهما ؛ كقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا** ﴾ [3] مع أن الذى نسى هو يوشع بن نون، أما موسى ، عليه السلام، فلم ينس [4] .

---

(١) انظر تفسير الطبرى ؛ ٢٢ / ٣٨ - ٤٢ .

(٢) تفسير الطبرى ؛ ٢٢ / ٤١ .

(٣) سورة الكهف آية ٦١ .

(٤) انظر ابن قتيبة : تاويل مشكل القرآن ؛ ص ٢٨٦ ومابعدها .

ومن أهم دواعى نقد المجبرة جهلهم بالعربية ومعانيها فى القرآن الكريم ، وفى ثنايا هذه الرسالة يقول الإمام أحمد معلقاً على سذاجة تفكير المجبرة : « فقد بان هذا وصح، وبطلت فيه دعوى كل كاذب على الله ، عز وجل ، وعلى كتابه ، إذ جهلوا القرآن ومعانى اللغة العربية فيه »[1] .

فهل كان العرب يعرفون معانى القرآن الكريم ، ويميزون بين الحقيقة والمجاز والكناية والاستعارة ، واختلاف المعنى مع اتفاق اللفظ والعكس وغير ذلك؟ . .

يقول الإمام أحمد : « وللقرآن معانى تحتاج إلى التأويل والمعرفة باللغة التى خاطب الله ، عز وجل ، بها رسوله ، صلوات الله عليه ، وخاطب بها رسوله الله ، ﷺ ، العرب الذين عرفوا عنه ماتلا عنهم ، ولم يخف عليهم من ذلك حرف واحد فى التلاوة ، ولا فى التأويل؛ لأنه لوعىَّ عليهم حرف واحد ؛ لقالوا : هذا حرف لا نعرفه فى اللغة العربية ، ولو جهلوا شيئاً من القرآن لم تلزمهم به حجة »[2] .

* * *

(١) النص ؛ ١٣٨ و .

(٢) النص ؛ ١٥١ ظ .

٥ - المنهج والعقل

يأتى بعد ذلك لتمام خطوات المنهج المعرفى الإسلامى مراعاة قواعد النظروالاستدلال العقلى ، فإذا كانت المعرفة نصية تعتمد على النقل والوحى ، فالجانب الآخر منها هو العقل ، وللعقل أدوات للإدراك يشير إليها الإمام أحمد فى رسالته فيقول : « لا نعقل الوسوسة والأمر بالفحشاء ولا وعد الفقر إلا على قدر البينة التى نبأنا الله ، عز وجل ، عليها وماجعل لنامن الإدراك **بالحواس الخمس وبخاطر العقل**.. وليس البينة التى نحن عليها تعقل الأشياء ولا تصل إلى علمها إلا من هذه الجهات ، وهى الحواس الخمس - التى لا سبيل لبنى آدم إلى شئ مما يدركونه إلا بها - وقد سقطت كلها عما ادعوا ، وإن إبليس لم يأتنا قط من قبل الحواس الخمس.

وقد أكد الإمام أحمد على أثر الإدراك الحسى فى المعرفة فخاطب المجبرة فى ادعائها الوسوسة بأنه يلزم عن ذلك أنه لا يعقل إلا بإدراك الحواس الخمس ، وقد صح أن الحواس لا تدرك إلا ما كان محسوساً ، ولذلك سميت الحواس لحسِّها الأشياء كلها ، وإدراكها لها كلها ؛ ولذلك يقع عليها التأديب والتكليف بالأمر والنهى والجزاء بالثواب والعقاب [١] .

ثم بين أهمية هذه المدارك فى النظر والاستدلال على قضية الوجود والتوحيد ، وقد نوه القرآن الكريم ونبه إلى أهمية التفكير والتدبر والتذكر والتأمل فى ملكوت السموات والأرض والأنفس والآفاق لإدراك العبرة فيها وإعجاز خالقها وحكمته وتأمل الإتقان فى صنعها ؛ فإذا عطلنا الإدراك الحسى والعقلى فقد أبطلنا الشرع والعقل جميعاً ولا خطاب لمن لا عقل له .

وعلى هذا فكل ما لا تدركه الحواس فلا حجة فيه عليها لله الواحد ، ولذلك كان ﷺ يؤكد على أنه رفع القلم عن ثلاث النائم حتى يستيقظ وعن الطفل حتى يبلغ وتكتمل أدوات المعرفة عنده ، وكذلك يسقط التكليف عن المضطر ؛ لكون الحرية شرط فيه ، والمجنون والساهى لامتناع وجود العقل : « ما لا تدركه الحواس فلا

---

(١) انظر النص ١٣٩ و .

حجة عليها فيه لله الواحد ، الذى لا يدرك بالحواس ، وبذلك وجبت له الوحدانية ؛ واستحق الربوبية ، **إذ لا يدرك ولاتدركه الحواس ولا يقاس بالناس»** [1] . وعلى هذا فإن إدراك التكليف شرط من شروط قبوله .

***

٦ - الحـــواس

ولأهمية الحواس فى تحديد معالم المنهج العقلى يجدر الإشارة إلى أن القدماء شغلوا بتحديد ماهيتها إلى مذاهب مختلفة . .

١- فقالت **المانوية** : الإنسان هو الحواس الخمس وأنها أجسام ، وإنه لا شئ غير الحواس ؛ لأن الأشياء عندهم شيئان نور وظلمه ، وينقسم النور إلي خمس حواس ، وكذلك الظلام : هى السمع والبصر والذوق والشم واللمس . .

٢- أما **الديصانية** ، وهى ديانة شرقية كذلك ، تؤمن بالاثنينية فقد نفت عن الظلام الإحساس ؛ لأنه عندها موات جاهل ؛ وأثبتت للنور الحياة وبالتالى الإحساس ؛ بنفسه . . وكذلك أثبتت وحدة الحواس وإن اختلفت المدارك لاختلاف الأعراض . . وحاولوا تفسير خلق الألوان ، رغم أن العالم عندهم لونين هما الأبيض والأسود ، اللذان يرمزان للنور والظلمة ، بأن اختلاط الاثنين وامتزاجهما أدى لهذه النواتج اللونية .

٣- وقدم **المرقونية** تفسيراً لماهية الذات الإنسانية ، أقرب للفكر الفلسفى الشرقى القديم ، فقالوا بأن البدن كل مجموع من الروح والحواس الخمس ، ومع ذلك تتمايز الجسمية / البدن ، عن الروح / القلب / النفس ، عن الحواس .

٤- أما من أنكر الأعراض فقد أنكر الحواس ، أو بمعنى أصح أنكر الإدراك الحسى، وأثبتوا مع ذلك سمعياً بصيراً ؛ دون إثبات للسمع والبصر!! . . وكلامهم جدلى بحت ليس فيه من العقل شئ ، حيث اثبتوا ونفوا ما أثبتوا .

٥- ولكن الإسلاميين أثبتوا الحواس الخمس . . وأخذوا يبحثون عن حاسة سادسة اختلفوا فى تحيدها . . كما أنهم ميزوا بين الإدراك والحاسة التى يدرك بها الإنسان . . ولذلك تسائلوا هل الحواس جنس واحد ؟

---

(١) انظر النص ؛ ١٣٩ و .

وهل الشم والذوق واللمس إدراك للمشموم والمذوق والملموس ، كما بحثوا كيفية رؤية الأجسام والأعراض .. وهل هذه الحواس تدرك المحسوسات بنفسها أم بغيرها .. وما سبب الإدراك ، بمعنى هل تدرك الحواس باختيارها أم لعلة طارئة عليها ؟!

كما تطرقوا إلى قضية محل الإدراك من جسم الإنسان، هل يدرك الإنسان المرئيات بعينه فقط ، أم أنَّ العين وسيلة حسية حتى ينتهى الإدراك إلى محله الأصلى ، وهو القلب / العقل »[1] .

وقصدت من ذكر ما سبق إلى بيان أنه قد كان فى تاريخ الفكر الإسلامى تياراً واعياً يدرك الأشياء إدراكاً متكاملاً .. وله قدرة على تحديد القضايا وتحليلها وتفسيرها .. فى مقابل تيار آخر أشبه بالراوى والقصاص فى صعيد مصر .. لا تخرج دائرة المعرفة لديه عن بعض الحكايات التى ورثها أوجمعها من رحلاته بين البلاد .. ولذلك هو لا يضيف ولا يبدع فى المعرفة ، وحدود ما يعرف هو تلك الخبرة المتوارثة المنقولة .. ولذلك يستهلكها حكاية ونظراً .. ويفسر بعضها ببعض .. وربما كان هذا القصاص وأمثاله أحد زوايا مثلث التخلف فى تاريخ الفكر ؛ لأن لكل مشكلة حلاً جاهزاً أبدعه القدماء ، لا ينبغى تجاوز أبعاده بحال من الأحوال .. وهذا التيارهو تيار التكفير والتفسيق والإرهاب الفكرى فى كل زمان، ولا نتجاوز إن سميناه **«الأصولى المتزمت»** .

ففى حين يؤصل القدماء للمنهج وحدوده وأبعاده ، والأطر التى تفيد الممارسة العلمية وتنميها .. يبقى هذا التيار المتزمت حاصراً نفسه فى مروياته العاجزة .. والغريب هناك من يصدره دائماً ليتحدث باسم الإسلام، حتى فى زماننا ، ليعيرنا به!!

* * *

(١) انظر الاشعرى : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ؛ الجزء الثانى ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٥٩ ، ٦٠ .

٧ - المنهج وإنصاف الخصوم

كما بين الإمام أحمد أن من أهم أسس المنهج النقدى للخصوم ، هو ذكر مقالتهم على وجهها - دون تشويه - كاملة ، ويعد ذلك من الإنصاف ؛ كما أنه يسلم لهم إن جاءوا بحجة قاطعة : « ونحن من بعد هذا كله نقول لهم إن جاءوا بحجة قاهرة ودلالة باهرة تشهد عليها عقولنا وعقول من سمعها من غيرنا ، سلمنا لهم »[١] .

والعكس صحيح « فإن لم يأتوا بحجة توجب لهم علينا أن لإبليس اللعين الذليل الضعيف ، قدرة أقدره الله ، عز وجل ، كقدرته هو تبارك وتعالى الذى لا يقدر على مثل قدرته أحد غيره ، فالقول قولنا والحق معنا دونهم »[٢] .

ولا يعد إنصاف الخصوم شكاً فى الحجج ولكن من تمام إقامة المنهج وصحة المناظرة والمجادلة بالحسنى التى من أهم أهدافها الوصول إلى الحق لانصرة الرجال والمذاهب أو تقليد الرؤساء والكبراء والأجداد ؛ ولذلك يشير الإمام أحمد أنه لم يات بدعاً من القول فقد سبقه جده الإمام **على بن أبى طالب** فى ذلك الأمر عندما تجادل مع الخوارج فى شأن موقفه من التحكيم ورميهم له بالشك فى نفسه فرد عليهم بقوله : إنما قلت هذا من طريق الإنصاف ، وقد قال الله ، عز وجل ، لنبيه ﷺ : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (٤٩) ﴾[٣] وقد علم ، صلوات الله عليه ، أنهم لا يأتون بكتاب أهدى من كتابه أبداً ، وإنما هذا لحد الإنصاف . . »[٤] .

وقد ورث الإمام أحمد من جده الإمام القاسم الرسى ت ٢٤٦ هـ هذا الإنصاف فى مجادلة الخصوم . . كما ورث من أجداده كذلك أدب الحوار والجدل ، وهو سمة بارزة وراسخة فى المنهج الإسلامى ، قال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** (١٢٥) ﴾[٥] .

وعلى قدر ما دعا القرآن إلى الجدل بالحسنى والنصح والوعظ للخصوم ، والأدب فى الحوار . . فقد نفر من الجدل المغالطى ، فقال تعالى : ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا**

---

(١) ، (٢) انظر النص ؛ ١٤٩ ط ،
(٣) سورة القصص آية ٤٩ .
(٤) النص ؛ ١٥١ و .
(٥) سورة النحل آية ١٢٥ .

بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [1] .. وكره المجادلة دون علم أو نظر : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [2] .

يقول الإمام القاسم : « فلابد لمن أنصف خصماً فى منازعته له ومجادلته ، من ذكر مايرى الخصم أن له حجة من مذهبه ومقالته ، فإذا ذكر ذلك كله ، بان ما فيه عليه وله ، فكان ذلك لباطله أقطع ، وفى الجواب له أبلغ وأجمع » [3] .

وقد جادل خصومه من النصارى ، مراعياً أبعاد وحدود هذا المنهج : « والنصارى فهم خصماؤنا فى الله ، فلابد من تبيين ما افتروا فيه على الله ، وهم ممن قال الله فهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [4] ، ومن الذين قال فيهم : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ [5] ، فهم فى ذلك كغيرهم من كفرة الأمم » [6] ، أى لهم حق الإنصاف ، وعدم الجور عليهم أو الاعتداء على عقائدهم أو نفوسهم .

ثم قال : « فليفهم من قرأ كتابنا هذا ، ما نصفه فيه من قولهم ، فسنصفه بما يعلمه علماء كل فرقة منهم ، إن شاء ، ونعرفه ونستقصى لهم فيه كله ، ما استقصوا لأنفسهم من المقال .. ثم نجادلهم فيه على الحق ، بالتى هى أحسن وأبلغ فى الجدال ، وندعوهم إلى سبيل ربنا وربهم ، بالحكمة والبينة ونعظهم ؛ إن شاء الله ، فيه بالمواعظ البليغة الحسنة » [7] .

هكذا كان المسلمون القدماء أكثر تسامحاً وأدباً فى الحوار ، ولديهم مساحة واسعة يعيشون فيها مع خصومهم فى العقيدة على أرض واسعة رحبة ، ومن وحى هؤلاء العظماء القدوة ينبغى أن نأخذ منهم سنة التسامح ، ومشاركة الآخرين فى كل ما تسمح به الظروف المعاشة ، فلا مانع من الشراكة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. طالما أن الآخر متفاهم أو مواطن ، فيكون له نفس حقوق المواطنة مثلاً بمثل ، دون أى انتقاص أو افتئات أو فتنة .. وهكذا نضمن للوطن أمنه وأمانه ، ونفوت على أعدائنا الحقيقين فرصة الوقيعة بيننا .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
(٢) سورة الحج آية ٨ .
(٣) انظر القاسم الرسى : الرد على النصارى ، ص ٣٢ بتحقيقنا .
(٤) سورة لقمان آية ٢٠ .
(٥) سورة الحج آية ١٩ .
(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٧) المصدر السابق .

الفصل الثالث

التكليف

وفى إطار بيان شروط التكليف تحدث الإمام أحمد عن الاستطاعة وكونها لازمة لصحة التكليف ؛ فقد منح الله الإنسان الحرية والعقل والاستطاعة أى القوة والقدرة على الاختيار وترك له حرية أن يؤمن أو يكفر ، أوان يفعل الطاعات وماكلفه به أو يتركه ويعصاه ، ورتب على ذلك الجزاء ، وهو من جنس العمل ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ [١] .

الإنسان محاسب بقدر مامنحه الله من الحرية والقدرة على استقبال التكاليف وأدائها كما أمره ؛ فمن أكره أو اضطر الى فعل معصية أو الكفر به أسقط عنه التكاليف وبالتالى لم يحاسبه لعدم وجود القدرة والاستطاعة والحرية فى الاختيار . . وكذلك سقط التكليف عن المجنون والنائم ، وقياساً على ذلك سقط التكليف عن المريض إن كان مرضه سبباً فى عجزه عن أداء ماكلف به . .

ويؤكد القرآن دائما على يسر التكاليف ، ومعقوليتها وإمكانية إدراكها ومعرفة العلة أيضا من تشريعها بالعقل ، وجعل الأولى شرطاً فى إقامتها أما الثانية فلا ، لأنه لا حصر لحكمة الله من التشريع فما أدركه الإنسان من علل التشريع ، فبتوفيق من الله وهدايته ، وما غاب عنه من حكمة بعض التشريعات فرحمة من الله به ، ولله فضل يعطيه من يشاء من عباده .

عموماً قد أعطى الله كل المكلفين من عباده القدرة على الاستطاعة ؛ وكلفه ماهو فى طاقته ووسعه ، كما أنه جعل هذه الاستطاعة قبل الفعل ؛ لأن الله عز وجل فى عدله وحكمته ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾، نطق بذلك الكتاب وشهدت به رسله ؛ [٢] .

ولذلك نقد الإمام أحمد المجبرة فى زعمها أن الاستطاعة بعد الفعل بأنه يلزم من ذلك ؛ أنه قد أمره – أى آدم عليه السلام أو المكلف – بأمر هو خارج عن طاقته ، وأنه قد كلفه ما ليس فى وسعه ؛ وانتقض قوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [٣] و ﴿ إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [٤] . كما يلزم من ذلك اعتقاد المجبرة بإبطال القرآن وهو حجة الله التى لا ترد ولا تبطل .

---

(١) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨

(٢) انظر النص ١٤٨ و .

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٤) سورة الطلاق آية ٧ .

وإبليس من جملة المكلفين ، هوجميع الجن ، قال تعالى : ﴿ **مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) ﴾ [١] ولذلك فهو وذريته وجميع الجن لهم استطاعه على الفعل فمن آمن منهم ، آمن باختياره ومن كفر وعصى كفر وعصى باختياره ، ولم يجبره الله على فعل أو اضطره إليه [٢] .

ويقول صاحب الكشاف فى هذه الآية : « أى وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها . وَرد على التساؤل التالى : لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا كلهم عباداً ؟.. فأجاب بقوله : إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ، لأنه خلقهم ممكنين ، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم [٣] .

وخطأ المجبرة فى زعمها أن الاستطاعة مع الفعل أو بعده ، بيِّن واضح ، إذ كيف يتيسر للمكلف الاختيار بعد الاضطرار أوحدوث الفعل حسبما اتفق؟!.. إنهم يصورون قضية الخق والوجود على أنها تمثيلية اضطر الخالق إليها ، وقد انتهى من حسم النتائج قبل بداية الخلق كما يريد ، خلقاً وأمراً ، ولا يفرقون بين إرادة الخلق التى هى له ، وإرادة الأمر التى منح بها عباده – بقدرته – اختياراً حراً .

وإذا شئنا بعض التفصيل حول مسألة التكليف أخذنا فى بيان أن الاستطاعة والطاعة والقدرة والقوة ألفاظ مترادفة ، إذا أضيفت إلى العبد يراد بها كلها معنى واحد فى مصطلح أهل الأصول .

يقول **الجرجانى ت ٨١٦ هـ** صاحب « التعريفات » عن الاستطاعة : « هى عرض يخلقه الله فى الحيوان ، يفعل به الأفعال الاختيارية . **والاستطاعة والقدرة والقوة والوسع والطاقة** متقاربة المعنى فى اللغة ، أما فى عرف **المتكلمين** : فهى عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك .

والاستطاعة الحقيقية : هى القدرة التامة التى يجب عندها صدور الفعل ، فهى لا تكون مقارنة للفعل . **والاستطاعة الصحيحة** : هى أن ترتفع الموانع من المرض وغيره » [٤] .

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٢) انظر النص : الصفحة نفسها .

(٣) الزمخشرى : الكشاف ، ٤ / ٤٠٦

(٤) الجرجانى : التعريفات ، ص ٣٠

فالمعانى الدالة على القدرة واحدة واختلفت الأسماء ، وعلامة اتفاق هذه الألفاظ فى المعنى ، أنك لو أثبت ببعضها ونفيت بالبعض لتناقض الكلام »[1] .

وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين :

١- **القسم الأول** : المقصود به سلامة الأسباب والآلات وصحة الجوارح والأعضاء ، وهى المعينة بقوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا** ﴾[2] . قيل هى الزاد والراحلة[3] .

وبقوله : ﴿ **فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا** ﴾[4] ، أى لم يكن له الآلات السليمة والأسباب الصالحة ، وبقوله تعالى : خبراً عن أهل النفاق : ﴿ **لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** ﴾[5] ، أى لو كانت لنا الآلات السليمة والأسباب .

وصحة التكليف تعتمد على هذه الاستطاعة ، إذ العادة جارية أن المكلف لو قصد اكتساب الفعل عند سلامة الأسباب وتوفر الآلات ، لحصلت له القدرة الحقيقية ، وإنما لا تحصل له لاشتغاله بضد ما أمر به ، فصار مضيعاً لحقيقة القدرة[6] .

٢- **أما القسم الثانى** : الاستطاعة التى هى حقيقة القدرة ، وهى المعنية بقوله تعالى : ﴿ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** ﴾[7] ، ألا ترى أن الله ، تعالى ، قد ذمهم بذلك ، والذم إنما يلحقهم بانعدام حقيقة القدرة عند وجود سلامة الأسباب وصحة الآلات ، لا بانعدام سلامة الأسباب وصحة الآلات ؛ لأن انتفاء تلك الاستطاعة لا يكون بتضييعه ، بل هو مجبور ، فلم يلحقه الذم بالامتناع عن الفعل عند انتفائها[8] .

والاستطاعة الثانية عرض .. تحدث عند **الأشاعرة والماتريدية** مقارنة للفعل .. ولكن **المعتزلة** خالفوهم فقالوا بأنها تقدم الفعل وتسبقه ، قال القاضى عبد الجبار :

---

(١) القاضى عبد الجبار : شرح الاصول الخمسة ، ص ٣٩٣ .
(٢) سورة آل عمران آية ٩٧ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ، ١ / ٣٨٥ - ٣٨٦ .
(٤) سورة المجادلة آية ٤ .
(٥) سورة التوبة آية ٤٢ .
(٦) انظر النسفى : كتاب التمهيد لقواعد التوحيد ، ص ٢٥٨ .
(٧) سورة هود آية ٢٠ .
(٨) المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

«القدرة متقدمة لمقدورها غيرمقارنة له »[1] . وكذلك قال الخياط فى كتابه «الانتصار»[2] ، ووافقهم الزيدية فى أن الاستطاعة قبل الفعل[3] .

أما الضرارية أتباع **ضرار بن عمرو** فقد وافقوا **الماتريدية والأشاعرة** فى القول بخلق الأفعال وفى نفى التولد ، ووافقوا **المعتزلة والزيدية** فى الاستطاعة[4] أما **النظام** فقد كان يرى أن الإنسان قادر بنفسه[4] ، ونفى **الأسوارى وأبو بكر الأصم** الاستطاعة إذ إنها ليست معنى وراء المستطيع .. بل الإنسان مستطيع بنفسه[5] ..

وعند تحليل رأيهما نجده لفظى لا يعبر عن شئ ، إذ إنهما يريان الاستطاعة مركبة فى الإنسان يستدعيها قبل فعله .. وهو كذلك صحيح .. ولكن جاء الخلاف من أن الآخرين ذهبوا أنها غير الإنسان .

والدليل على أنها معنى وراء الجسم ، هوأنا نجد رجلاً سليم الجوارح يحمل مرة حملاً مقداره خمسين رطلاً ، ثم يحمل بعد ذلك حملاً آخرمقداره مائة رطل ، دون زيادة فى أعضائه !!

ويوافق الماتريدية والأشاعرة المعتزلة فى أن الاستطاعة ، التى هى بمعنى سلامة الأعضاء والآلات ، سابقة على الفعل .. وخالفوهم فى الثانية فقالوا القدرة إنما تكون ليحصل بها الفعل ، فلو كانت مقارنة للفعل لماكان حصول الفعل بالقدرة أولى من حصول القدرة بالفعل والقول به محال[6] .

قال القاضى : و«الذى يدل على فساد مذهبهم – أى الأشاعرة – هو أنه لوكانت القدرة مقارنة لمقدروها ، لوجب أن يكون تكليف الكافر بالإيمان ، تكليفاً لما لا يطاق، إذ لو أطاقه لوقع منه ، فلما لم يقع منه دل على أنه غير قادر عليه ، وتكليف ما لا يطاق قبيح ، والله ، تعا لى ، لا يفعل القبيح»[7] .

---

(١) القاضى عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ، ص ٣٩٠ .

(٢) الخياط : الانتصار ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ٩٦ .

(٣) انظر يحيى بن حمزة : الرائق ، ١٩٤ بتحقيقنا ، والأساس : للقاسم ، ص ١٠٥ .

(٤) انظر الشهرستانى : الملل والنحل : ١ / ١١٤ – ١١٦ .

(٥) انظر الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ١ / ١٧٤ .

(٦) النسفى : التمهيد ، ص ٢٦٤ .

(٧) القاضى عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ، ص ٣٩٦ . والباقلانى : التمهيد ، ص ٢٩٤ .

واتفق أغلب المتكلمين على أن من زعم بوجوب وجود الفعل ممن لا قدرة له ، واستحالة وجوده من القادر فهو عديم الحظ من العلم والعقل [١] .

« القائل إن العبد كلف بتحصيل فعل لا قدرة له عليه وقت الفعل ، قائل بتكليف ما يطاق ، ولو لم يكن هذا حماقة ووقاحة فلا وجود لهما فى الدنيا! » [٢]

وتأتى ثمرات التكليف موافقة لطبيعة اختيار العبد ، والله عادل عدالة مطلقة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [٣] ، فيعرض المطيع لأعلى درجات الثواب ، ويعاقب المسئ أو يعفو عنه برحمته وفضله [٤] .

ويشير القاضى عبد الجبار إلى ذلك : « وثمرته أنه ، تعالى ، إذ خلقنا وأحيانا وأقدرنا وأكمل عقولنا وخلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن ، فلابد من أن يكون له فيه غرض ، وغرضه إما أن يكون إغراء له بالقبيح ، والتكليف لا يجوز أن يكون غرضه الإغراء بالقبيح ؛ لأن ذلك قبيح ، وقد ثبت أن الله ، تعالى ، لا يفعل القبيح ، فلم يبق إلا أن يكون غرضه بذلك التكليف ، وأن يعرضنا بالتكليف إلى درجة لا تنال إلا به » [٥] .

محاولة المكلف معرفة علة كل تكليف أمر مرهق ، ولا معنى له إذا شغله عن العمل، أو رفض العمل بالتكليف حتى يعرف علته وقصد الله منه ؛ وهو أمر ليس فى قدرة كل واحد من البشر ، وإن جاز عقلاً أن يتعاون جمع على دراسة علة جميع التكاليف الشرعية ، ولن يعرفوا كل الوجوه ؛ لأنهم لن يحيطوا بحكمة الله وعلمه .

وكما أن رد الشرع كفر فإن الحكم بعدم عليته مرفوض ؛ لأن المشرع حكيم عادل والحكمة صفة كمال ، وفعله يأتى موافقاً لحكمته وعدله ورحمته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [٦] ، وقد قام علم أصول الفقه على معرفة العلة من الأحكام ، وتوظيف ذلك فى خدمة القياس الشرعى بأنواعه المختلفة [٧] .

---

١) النسفى : المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .
٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .
٣) سورة يونس آية ٤٤ .
٤) أمام عبدا الله : الآراء الكلامية للقشيرى ، والصوفية ٣٢٥ .
٥) القاضى عبد الجبار : المصدر السابق ، ص ٥١٠ .
٦) سورة الدخان آية ٣٨ .
٧) إمام عبدالله : الآراء الكلامية للقشيرى والصوفية ، ص ٣٢٦ .

الفصل الرابع

عقيدة المجبرة في إبليس

١- يعتقد المجبرة أن إبليس قادر على أن يعدهم ويمنيهم ويوسوس إليهم ويغويهم ويأمرهم بالفحشاء والمنكر فيأتمرون بأمره ، وأنه قريب منهم قرب الملائكة وقرب الحق، تعالى، من حبل الوريد ، وأنه يوصل إليهم ما يريد ويلقيه فى قلوبهم ، وهم لا يدرون كيف يحدث ذلك كله وحجتهم فى ذلك آيات من كتاب الله - لم يدركوا تأويلها ولم يحسنوا فهمها - ومن ذلك قوله ، عز وجل :-

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (١) .

﴿ لَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢) .

﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣) .

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٤) .

﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (٥) .

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٦) .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٧) .

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٨) .

ففهموا من هذه الآيات أن الشيطان يفعل كل ذلك وزيادة ، ويراهم من حيث لا يرونه ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (٩) .

٢- ونفى أهل الوسطية والاعتدال هذا الافتراء على الله ، عز وجل ، وبينوا للمجبرة أنهم قد غلطوا وأخطأوا فى التأويل والتعبير ؛ وحقيقة الأمر أن الله ، عز وجل ، حكى لنا فى كتابه أن إبليس ومن أطاعه ، يريدون ويتمنون أن لو اتبعناهم وعصينا كما عصوا وكفرنا كما كفروا ، وهى مجرد حكاية كقول الرجل لابنه : افعل او افعل كذا . .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٨ .
(٢) سورة الأنعام آية ٤٣ .
(٣) سورة محمد آية ٢٥ .
(٤) سورة يوسف آية ٤٢ .
(٥) سورة الإسراء آية ٦٤ .
(٦) سورة المجادلة آية ١٠ .
(٧) سورة الزخرف آية ٣٦ .
(٨) سورة الأعراف الآيتان ١٦ ، ١٧ . .
(٩) سورة الأعراف آية ٢٧ .

أما إنه أراد ، تعالى ، أن يثبت لإبليس ومن تبعه من الجن و الإنس قدرة على خلقه وأفعالاً خارقة تلهيهم عن طاعته وذكره وأن لهم سلطاناً على قلوب عباده كسلطانه ، فهو باطل من القول وافتراء وزوراً ، فلا إبليس ولا غيره من الجن قادرون على أن يلقوا إلينا قليلاً أو كثيراً لا سراً ولا علانية ولا مواجهة ولا فى خفاء . قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ (١) .

فمن أين أتى لهذا الضعيف الكيد الذليل النفس الحقير الشأن ، هو ومن تبعه إلى يوم الدين ، الذى لحقته لعنة رب العالمين فى الدنيا والآخرة ، كل هذه القدرات الخارقة التى لم يمنحها الله لملك مقرب ولا لنبى مصطفى ولا لولى مختار ؟!

٣- إن من يعتقد هذه العقيدة فى إبليس وأعوانه قد أشرك بالله رب العالمين شريكاً هو له عدو مبين ، وقدح فى توحيده وأفسده ، ومن أجل ذلك عليه أن يصحح عقيدته فى إبليس والجن ، وأن يضعهم فى حجمهم الحقير الذى شاء الله أن يضعهم فيه ، وأن لا يعدوا قدره فيهم فينسب لأعداء الله وشرار خلقه ما هو لله ، ذاتاً وصفاتاً وأسماء ، فيكفر من حيث لا يدرى .

وأول ما ينبغى اعتقاده فى إبليس هو أنه خلق من خلق الله ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) ﴾ (٢) ، ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ (٣) .. وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ (٥) .

٤- فإبليس من خلق الله ، وهو من الجن بنص الكتاب ، وقد أمره هووالجن بطاعته وعبادته ، كما أمر الإنس بطاعته وعبادته ، ولكنه وحده عصى ربه وفسق وفجر وأبى طاعة ربه .. فهو إذن مخلوق للطاعة لا للمعصية والفسوق وإغواء خلق الله .. وهو فى إغوائه لبنى آدم عاصٍ لله فاسق .. ولايمتثل أمر ربه ، وكل من اتبعه من ذريته أو

---

(١) سورة النساء آية ٧٦ .
(٢) سورة الرحمن آية ١٥ .
(٣) سورة الحجر آية ٢٧ .
(٤) سورة الكهف آية ٥٠ .
(٥) سورة الذاريات آية ٥٦ .

من بنى آدم ،هم مثله فسقوا كفسقه وعصوا كعصيانه ، ولذا فهم له أتباع وهو لهم سيد ومتبوع .

فقد فسق باختياره ، والله ، عز وجل ، حذرنا من اتباعه ، ولامنا عند اقتفاء نهجه واثره فى المعصية ، ولا يمكن أن يحذرنا الله ، عز وجل ، شيئًا سلطة علينا ابداً ، ولو كان مكلفاً بإغواء الناس ، لكان مطيعاً لأوامر ربه فاعلاً ماكلفه به ؛ ولا يقول بذلك مسلم عاقل ؛ لأن فى ذلك نقض للقرآن وإبطال لآيات الرحمن ، وخروج من حظيرة الإيمان .

إن إبليس أمر بالعبادة والطاعة فعصى وفسق ، وهو فى عصيانه لأمر ربه ملوم .. ووجب عذابه بمعصيته .. ولم يقدره الله على خلقه ؛ لأن ذلك يلزم عنه كونه خالقاً مع الله قادراً قوياً ، وهو شرك يخرج من الدين .

إنَّ المجبرة فى إدعائها ان لإبليس قدرات خاصة خالفوا القرآن وجعلوه شريكاً لله فى ملكه ومسلطاً من دونه على عباده ، ويلزمه من ذلك أنه خير من الأنبياء والأولياء والملائكة المقربين ؛ لأنه أعطى ما لم يعطوا من منزلة شريفة ومرتبة رفيعة ، وصارت خطراً عظيماً يحسدونه عليه ، ومن يجّوز ان يكون للعاصى الفاسق ما لا يكون للطائع العابد ، فهو إما جاهل أو معاند كفور .

* * *

الفصل الخامس

إبطال مزاعم المجبرة في إبليس من وجوه

ذهب الإمام أحمد إلى إبطال حجج المجبرة فيما نسبوه لإبليس من قدرات فائقة على الخلق بها يوسوسهم ويغويهم عن سواء السبيل بما يلى :

١- **الحجة الأولى** : وتمثلت فى أن كل ما ادعوه من آيات القرآن وذكر فيها ، تعالى ، وسوسته لنبى آدم ينصرف إلى الهوى ، الذى يهواه الناس مع شيطان بنى آدم أيضا . . وإنما الهوى شيطان ؛ لأنه رضا للشياطين [١] .

قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ [٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [٤] .

٢- **الحجة الثانية** : أن الذى يعد الناس ويمنيهم هو شيطانهم من الإنس لا الجن ، والناس عاجزون من جميع الوجوه فى صرف هذا المعنى إلى الجن دون الإنس ، فنحن وهم لم نشاهد أحداً يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء إلا شيطان بنى آدم : « فكيف جاز لهم أن يقطعوا الشهادة على شيطان الجن دون شيطان الإنس »[٥] ؟!.

وقد أعلمهم الله ، عز وجل ، أن فى الإنس شياطين وفى الجن شياطين ، قال، تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ [٦] .

وقال ، تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [٧] .

وعلى هذا يقطع أهل العدل والتوحيد بأن الله لم يقدر إبليس على ما يفعل من المعاصى والذنوب وإغواء الخلق ، وإلا لزم من ذلك فساد حكمة الحكيم وبطلان عدله : « لزمه أن حكمة الحكيم ها هنا غير حكمة ؛ وحسن نظره لخلقه غير حسن نظر ، . . إذ أقدر عليهم عدواً يأتيهم من حيث لا يعلمون ، وقد أمرهم بمخالفته بعدما أقدره عليهم . .

ويلزم من ذلك بيان كيف يعدُ إبليس ويوسوس لبنى آدم ، بما يتفق مع العقل

---

(١) النص ؛ ١٣٦ ط .
(٢) سورة النجم آية ٢٣ .
(٣) سورة القصص آية ٥٠ .
(٤) سورة الكهف آية ٢٨ .
(٥) النص ؛ ١٣٧ ط .
(٦) سورة الانعام آية ١١٢ .
(٧) سورة البقرة آية ١٤ .

وتقبله مدارك الإنسان ؛ كما أنه يلزم من كلام المجبرة إقدار الله لإبليس على الاطلاع على القلوب وعلمه ما فى الضمائر وقدرته على تصريفها وتقليبها ، وهو أمر مدح الله به نفسه ولا يكون إلا له .

والتساؤل الذى يلزمهم هل هناك وسوسة أصلاً ، أم أنه فهم خطأ للقرآن وآياته، وأن لها تأويلاً وتفسيراً وبياناً غفلوا عنه واستهواهم نسبة إله للشر ، كما فعل المجوس والمانوية والثنوية وعبدة الأصنام فى كل زمان ؟!

وخلاصة القول أن الهوى هو الذى يدعو الإنسان إلى كل خير أو شر ، وهو الذى يوسوسه ولا فاعل لذلك غير الإنسان ، إذ لا قادر على تصريف القلوب وتصريفها سوى الله الواحد الأحد الفرد الصمد لا شريك له .

ثم ما هو ذلك الوسواس المقصود فى قوله تعالى : ﴿ **الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦** ﴾ [١] ؟

الوسواس هو ما يخطر على قلب الآدمى ، من ذكره الجنة والناس ، لا أنه يوسوسونه فى صلاته . . فأما غير الصلاة فإن شياطين بنى آدم توسوس إخوانها بكل شئ مما تأمرها به، وتشير عليها من القتل والزنا والسرقة والشرب للخمر وجميع المعاصى[٢] .

إن الهوى أعظم ألف مرة من إبليس فى إغواء الإنسان ، وقد سماه الله إلهاً ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ** ﴾ [٣] .

إن إبليس وذريته يروننا من حيث لا نراهم ﴿ **إن يراكم وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ وفى الآية نفى تام لأن يكون لإبليس وقبيلته حديث أو أى معاملة مع الإنسان . . ولذلك ينبغى تفسير العديد من الآيات التى يذكر الله فيها الشياطين إلى شياطين الإنس دون الجن ، فهم أقدر على إغوائنا ووسوستنا من شياطين الجن ، فشيطانك أيها الإنسان النفس والهوى المتبع ، وعدوك من شياطين الإنس الذين يقتدون بإبليس .

---

(١) سورة الناس آية ٥ ، ٦

(٢) النص ؛ ١٣٩ و .

(٣) سورة الجاثية آية ٢٣

إن المجبرة تنسب علماً خارقاً لإبليس والجن ، لا يكون إلا لله تعالى أو من ارتضى من رسله ، فلا يعلم الغيب إلا الله ولا يطلع على غيبه سوى صفوة رسله الذين خصهم بعلم بعض الغيب ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾ [١] .. وكل علم ينسبه المجبرة لإبليس هو لله ، تعالى ، دون غيره باطل ، ويدل على جهلهم بالتوحيد الخالص ، إذ كيف يعلم ما يعلمه الله ويتصرف في الملك كربه ، مع أنه ، تعالى ، وصفه بالضعف والصغار والذلة ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [٢] ولكن المجبرة لا يقدرون الله حق قدره ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [٣] .

ثم إنه إذا كان إبليس يلقى في قلوب بني آدم مضطراً ، فمن الذى اضطره؟!.. والله يقول ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [٤] وإذا كان فعلاً مضطراً فهو معذور .. ومن يفترى على الله الكذب فيدعى بعد ذلك أن الله اضطره إلى غواية عباده ، فقد كفر بالله وخرج من الدين وأسقط علم التوحيد ..

فقد حذرنا الله من إبليس وغوايته ، ودعاه إلى الهداية فما اهتدى وفضَّلَ العناد والمكابرة على أن يخضع ويستسلم لأمر ربه ؛ وجعل الله كل من يفعل فعله ويعصي عصيانه ويفسق ، كهو ، تماماً لا فرق بينهما .. ثم بعد ذلك تكذب المجبرة على ربها بادعائها أن الله وظف إبليس لإغواء خلقه ووسوستهم ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [٥] !

ومن عجائب مقالة المجبرة في الوسوسة أن لإبليس منقاراً ، يتوصل به إلى قلب الإنسان عن طريق أذنه فيوسوسه !.. وهو كلام سخيف جداً لا يصمد لأى نقد .. فأى منقار هذا الذى له ، وكيف يدخل أذن الآدمى دون أن يحس أو يدرك وجوده ؟!

والنتائج المترتبة على مقالة المجبرة السالفة الذكر تؤدى إلى إبطال المعرفة العقلية حيث أبطل المجبرة الإحساس بالمدارك الحسية ، كذلك الخروج عن حد العقل والدخول في الخرافة والجهل ؛ وتكذيب النص ومناقضة الإسلام .

---

(١) سورة الجن آية ٢٦ .
(٢) سورة المائدة آية ٧٣ .
(٣) سورة الأنعام آية ٩١ .
(٤) سورة الذاريات آية ٥٦ .
(٥) سورة الأنعام آية ١٤٤

وما سبق ليس بمستغرب عليهم حيث كانت بعض البيئات التى قالت بالجبر، قد ابتدعت القول بالتشبيه من قبل ، وأنكرت الوعد والوعيد ، فأجازوا على الله ، عز وجل ، أن يخلف وعيده وتطرف بعضهم فأجاز أن يخلف وعده أيضاً!..

ويبدو أن الذين أمروا على أن الله لا يخلف وعيده ، أو أوجبوا عليه تحقيق وعيده ، كما قال فى كتابه .. كانوا ينظرون إلى عدله ، تعالى ، والوجوب الذى قصدوه هو الوجوب الأخلاقى لا غير..

ويضاف إلى فضائحهم عقيدتهم فى إبليس هذه التى تناقض التوحيد وتنقضه من أساسه ، حيث جعلوه لله شريكاً ونداً وسوى .

٣- **أما الحجة الثالثة** : فى إبطال زعم المجبرة بأن لإبليس قدرة على الخلائق وبيان ضعفه وعجزه ، هو أن الله ، عز وجل ، لا يفعل الجور ولا الفساد ولا يضل العباد ولا يصدهم عن الرشاد ، وقد بين الإمام أحمد أن من تمام عدله ، تعالى ، أن يخاطبنا بما نعرف ونعقل ونفهم : «**ولا يجوز أن يحذرنا عن أمر لانعقله ولانقف على كيفيته ولانهتدى إلى وصفه .. لأن هذا ليس من صفة العادل الحكيم الرحيم المتفضل** الحسن الفعل الذى لا يجور ولا يظلم».

فالنفس هى التى توسوس الإنسان ، وليس إبليس ، قال تعالى ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ** ﴾ [٢] فنفسه هى التى طوعت له قتل أخيه وليس إبليس ، وكذلك قال تعالى : ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [٣] .. وفى العقل لا يجوز أن يحذرنا الله النار، ثم يدس علينا إبليس لنقع فيها ، فذلك ليس من صفات الحكيم .

٤- **الحجة الرابعة** : شهادة بعض العصاة المذنبين أنهم قد أتوا ما أتوا من أنفسهم ومن ذلك قول السامرى لموسى ، عليه السلام ، حين سأله عن العجل الذى صنعه من حلى بنى إسرائيل ولِمَ زين لهم عبادته من دون الله فقال : ﴿ **كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي** (٩٦) ﴾ [٤] وأنكر أن يكون إبليس هو الذى وسوس له أو دفعه إلى فعله هذا، أوكونه شريكًا له فى صنيعه .

---

(١) النص ١٤٣ و .

(٢) سورة المائدة آية ٣٠ .

(٣) سورة يوسف آية ٥٣

(٤) سورة طه آية ٩٦

أما قوله تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [1] فيخرج على معنيين :-

أحدهما : التهديد والتخويف ، وقد كانت العرب تستخدم هذا الأسلوب فى لغتها .. فيدعون أحدهم أن يقتل فلانًا ، وهم لا يريدون قتله ، وإنما يقصدون تهديده وتخويفه .

والثانى : أنهم إذا فعلوا هذه المعاصى فزنوا وسرقوا وتعاملوا بالربا فهم مشاركون لإبليس فى عصيانه لله تعالى [2] .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. ﴾ [3] الآية فيخرج على أنه الهوى .. لما يلزم من الظاهر والمعنى الصريح منه بالقول بأنه واجههم ورأوه وعاينوه وهو يناقض القرآن الكريم .

كما يمتنع أن يوسوسهم إبليس فى بدر جميعا فى وقت واحد ، إلا أن ينسب لإبليس قدرة تفوق كل قدرة ، وهو فاسد غير معقول !..

يقول الزمخشرى : واذكر - يا محمد - ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. ﴾ [3] . التى عملوها فى معاداة رسول الله ، ﷺ ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ؛ وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم ؛ فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم ، أى بطل كيده حين نزلت جنود الله ؛ وكذا عن الحسن رحمه الله : **كان ذلك على سبيل الوسوسة ، ولم يتمثل لهم** .

وقيل : لما اجتمعت قريش على السير ذكرت الذى بينها وبين بنى كنانة من الحرب، فكان ذلك يثنيهم ، فتمثل لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك ابن جعشم الشاعر الكنانى - وكان من أشرافهم - فى جند من الشياطين معه راية ، وقال : لا غالب لكم اليوم ، وإنى مجيركم من بنى كنانة .

فلما رأى الملائكة تنزل ، نكص .

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٤ .

(٢) انظر كذلك الزمخشرى : الكشاف ، ٢ / ٦٧٧ ، ٦٧٨ .

(٣) سورة الأنفال آية ٤٨ .

وقيل : كانت يده فى يد **الحارث بن هشام** ، فلما نكص . قال له الحارث : إلى أين أتخذلنا فى هذه الحال ؟

فقال : إنى أرى ما لا ترون ، ودفع فى صدر الحارث وانطلق ، وانهزموا ، فلما بلغوا مكة .

قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة .

فقال : والله ما شعرت بمسيركم ؛ حتى بلغتنى هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان .

وفى الحديث : «وما رؤى إبليس يوماً أصغر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة ، لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رؤى يوم بدر» [1] .

ولا مانع من أن يوسوس إبليس لنفر قليل من قريش ؛ فيقومون بالوسوسة للقبيلة بأسرها .. أوأن يجرى كلاماً على لسان آدمى ، حتى يقنع الناس بمنطقه وألاعيبه فيصدقوه .. وهذا فى الشرع والعقل مقبول .. سيما أن له سابقة مع أبينا آدم – عليه السلام – ولكن ليس بالضرورة أنه يفعل هذا مع كل جنس بنى آدم ، لما فى ذلك من غلو فى شخصيته التى لا تتفق مع قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴿٧٦﴾ ﴾ [2] ، إذ إنه على تصورهم لا يكون كذلك .

٥- **الحجة الخامسة** : المجبرة تستعين بكثيرمن النصوص وتروى الأكاذيب عن الجن: وتستعين المجبرة بكثير من النصوص والروايات الكاذبة ، لتثبيت عقيدتهم فى إبليس والجن ، ويلاحظ فى رواياتهم عن الجن أنهم لا يحدثون عنهم إلا بكلام نطقوا به وأخبار أخبروا بها ، لا وسوسة كما ادعوا أنهم يوسوسنهم فى صدورهم!

وهذه الأحاديث **والأشعار** التى رووها عن الجن ، تقتضى المواجهة التى تبطل بدورها الوسوسة ..

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ .. والبيهقى فى الشعب . وانظر الزمخشرى : الكشاف ٢ / ٢٢٨ .

(٢) سورة النساء آية ٧٦ .

كما يكذبون على الجن فيدعون ملاقاتهم فى مواطن عديدة من الأرض ، أو أنهم يتمثلون لهم فى أشكال آدمية أو حيوانية [١] . .

وكلامهم فى المواجهة والمشافهة يناقض كلامهم فى الوسوسة ، مما يسقط كلامهم بعضه بعضاً . ثم من أخبرهم حين تمثلهم فى أشكال حيوانية أنهم جن!!

٦- **الحجة السادسة** : نص القرآن الكريم بأن شيطان الإنسان وإبليسه ، حقيقة ، هو هواه الذى يدله على الشر والفساد ، ويغويه بالميل إلى الشهوات والملذات ، قال تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [٢] . . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ [٣] ، ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [٤] .

لقد اعتمد المجبرة على المتشابه وتجاهلوا المحكم وأسس العدل والتوحيد، كما جهلوا تأويلها وفهم معانيها ، وقليل من التأمل يوضح الحق جلياً [٥] .

٧- **الحجة السابعة** : أن معانى القرآن الكريم تساعد على فهم المتشابه على وجهه الصحيح ، وهو من قواعد المنهج عند أهل العدل والتوحيد ، حيث يعتمد تأويل القرآن وتفسيره فى ضوء معانى اللغة وبلاغتها ، فالعرب أعرف الناس بلغتهم، والقرآن كتاب عربى صميم . . فمنها ما يأتى على سبيل المثال والتصوير والمجاز ومقلوب الألفاظ والمعانى . . إلخ .

٨- **الحجة الثامنة** : الزعم بمشاركة إبليس للإنسان فى الأموال والأولاد يسقط حقيقة العدل الإلهى . . فلا يجوز ذلك فى عدل الحكيم ، والله لايامر بالباطل ولا يقضيه [٦]، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [٧] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [٨] ؟!

---

(١) انظر النص ، ١٤٥ و .
(٢) سورة ص آية ٢٦ .
(٣) سورة المائدة آية ٧٧ .
(٤) سورة القصص آية ٥٠ .
(٥) النص ، ١٤٥ و .
(٦) النص ، ١٤٧ ط .
(٧) سورة النساء آية ٨٧ .
(٨) سورة النساء آية ١٢٢ .

٩- **الحجة التاسعة** : نقد زعم المجبرة أن الاستطاعة مع الفعل ، وبيان أن الاستطاعة قبل الفعل ؛ لأن الله عز وجل فى عدله وحكمته لا يكلف نفساً إلاما آتاها ، نطق بذلك الكتاب وشهدت به رسله . قال تعالى : ﴿ **وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** (٦٢) ﴾ [١] .

١٠- **الحجة العاشرة** : أنه لا يعقل أن يكون الله عز وجل قد وهب لعدوه إبليس قدرة تفوق قدرة أوليائه ومن هؤلاء الملكين الموكلين بكل إنسان ! [٢]

* * *

(١) سورة المؤمنون آية ٦٢ .

(٢) النص ، ١٥١ و

تصور ابن حزم الظاهرى لإبليس والجن

ويُجمل ابن حزم الظاهرى موقفه وموقف أهل الظاهر من الجن فيقول : أخبر ، عز وجل ، أن الجن والناس يوسوسون فى صدور الناس ، ونحن نشاهد الإنسان يرى من له عنده ثأر فيضطرب وتتبدل أعراضه وصورته وأخلاقه وتثور ناريته ، ويرى من يحب فيحدث له حال أخرى ويبتهج وينشط ، ويرى من يخاف فتحدث له حال أخرى ، من سفرة ورعشة وضعف نفس ، ويشير إلى إنسان آخر بإشارات يحيل بها طبائعه فيغضبه مرة ، ويخجله أخرى ؛ ويفزعه ثالثة ، ويرضيه رابعة ؛ وكذلك يحيله أيضا بالكلام إلى جميع هذه الأحوال .

فعلمنا أن الله ، عز وجل ، جعل للجن قوى يتوصلون بها إلى تغيير النفوس والقذف فيها بما يستدعونها إليه ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ووسوسته ؛ ومن شرار الناس وعلى هذا جريه من ابن آدم مجرى الـ م » [1] .

يشير ابن حزم عند تحليل مقالته إلى قوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾ [2] ورأينا كيف نقد الإمام أحمد الاتجاه الجبرى فى تفكيره ، ووقف على خطوره دعواه ، وفند حججه وبين وجه الحق ، وتأويل معنى الوسوسة فى الآيات السابقة .

كما تعرض ابن حزم إلى الانفعالات الإنسانية فى الرضا والغضب والفرح والحزن ، والأمن والخوف ، والرهبة والجراة والشجاعة ثم علقها كلها على فعل الشيطان فى قوى الإنسان !! . .

لهذا الحد انساق هذا المفكر الكبير وراء التيار الجبرى . . وأدى مذهبه الظاهرى إلى وقوعه فى خيبة الجبر . . وصار من المعقول لديه أن يعطى الله أحكم الحاكمين ، العادل فى حكمه المنصف فى قضائه ، عدوه إبليس وجنوده من مردة الشياطين تصريفاً تاماً لجوانيه وداخلية الإنسان ، والتحكم فى مشاعره وقواه وقدراته وميوله ونوازعه ودوافعه . . ! . .

---

(١) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٥ / ١١٢ .

(٢) سورة الناس الآيات من ٤ - ٦ .

ماذا أقول بعد أن صدمنا ابن حزم بقوله : « فعلمنا أن الله ، عز وجل ، جعل للجن قوى يتوصلون بها إلى تغيير النفوس ، والقذف فيها بما يستدعونها إليه »[1] .! وقد كان فى زمانه من أكبر الشخصيات الناقدة للفكر الرجعى .. فحارب التقليد .. ونقد الفقهاء الأربعة ونادى بمذهب جديد - هو المذهب الظاهرى - فى بلاده ، وأبلى بلاء حسناً ، ولكن لكل جواد كبوة ؛ ولكل عالم ذلة !

ويمكن مراجعة رسالة الإمام أحمد ومنهجه فى التفكير .. حتى يتيسر لنا كيف نفهم ديننا ، ونقف عند حدود أصوله وأساسياته ، دون الوقوع فى نقض التوحيد والشرك بالله .. ولا داعى لتكرار ما سبق الإشارة إليه ..

لقد تجاوز أهل الظاهر عن وضع لغة القرآن فى موضعها الصحيح من المنهج ، فأدى بهم مسلكهم إلى الخطأ الفادح فى الفهم لقضايا القرآن ، فلغة القرآن تصويرية وبيانية ذات مستوى رفيع فى التركيب على أحسن وأفضل ماعرف العرب من لغتهم .

فلما سمع العرب قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [3] لم يعقل منهم أحد أنها على ظاهرها ولكن قال قائلهم .. إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق .. إلخ .. من عظمة ما وجده من علو نظم القرآن الكريم ..

ولم يخطأ من وصف اللغة فى القرآن بأنها مجازية أى تصويرية تعتمد على الاستعارة والتشبيه والكناية .. وتعتمد على البيان قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④ ﴾ [4] وعلى ضرب الأمثال ، والمجاز أنواع ليس هنا محل عرضها ..

ولهذا لم يكن غريباً من ابن حزم أن يفهم من قوله تعالى ﴿ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [5] أن للشيطان تأثيراً فى المصروع يكون بالمماسة .. والذى سنشرحه فيما بعد ، ونبين مراد القرآن من ذلك .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة الكهف آية ٧٨ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٧٥

(١) سورة يوسف آية ٨٣ .

(٣) سورة الرحمن الآيات من ١ - ٤ .

ويؤخذ على ابن حزم ، على ما وهبه الله من قدرة عالية على التفكير والتحليل والنقد وجرأته فى مواجهة الخصوم ، يؤخذ عليه مصادرته بشكل واضح على من خالفه فيقول فى هذا الموضوع (فلا يجوز لأحد أن يزيد على ذلك شيئًا ، ومن زاد على هذا شيئًا فقد قفا ما لا علم له به ، وهوحرام لا يحل ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [1] . وهذه أمور لا يمكن أن تعرف ألبتة إلا بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ ، ولا خبر عنه ، عليه السلام ، بغير ما ذكرنا »[2] .

ويصف ابن حزم ما يفعله الشيطان فى المصروع من مُسَّ فيقول : « إن الشيطان يمسُّ الإنسان الذى يسلطه الله ، عز وجل ، عليه مَسًّا ، كما جاء فى القرآن ، يثير من طبائعه السوداء والأبخرة المتصاعدة إلى الدماغ ، كما يخبر به عن نفسه كل مصروع بلا خلاف ، فيحدث الله ، عز وجل ، له الصرع والتخبط حينئذ ، كما نشاهده ، وهذا هو نص القرآن وما توجبه المشاهدة ، وما زاد على هذا فخرافات من توليد العزَّامين والكذابين . . »[3] .

ويحمل كلام ابن حزم العديد من التناقضات ، فهو يعتمد منهجاً يؤدى به ، لا محالة ، إى الوقوع فى الخطأ ، وهو الأخذ بالظاهر ، وليس فى ظاهر القرآن تسليط الله لأعدائه على أوليائه . . أو منح عدوه الذى أخرجه من الجنة صاغراً ذليلاً حقيراً قدرة على التغلغل فى أعماق النفس الإنسانية والعبث بها ، وليس فى القرآن كذلك نص يفيد أن الله ، تعالى ، خلق الجن لإغواء البشر وتضليلهم . .

انظر إلى قوله : « . . فيحدث الله ، عز وجل ، له الصرع والتخبط حينئذ » ياسبحان الله لقد جعل قدرة الله وفعله تابعة لقدرة إبليس وفعله . . حتى التسوية بين قدرة إبليس وقدرة خالقه تجاوزها ابن حزم ، وجعلها تابعة لإبليس ! .

ثم مَنْ من المصروعين أخبره عندما أفاق أن ما حلَّ به كان فعلاً وكيداً

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٦ .

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٥ / ١١٣ .

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٥ / ١١٣ .

للشيطان؟!.. إن أدوات الحس والإدراك تنفى تماماً أن يكون الشيطان قد دخل وحل فى جسم المصروع [1] وعطل عقله وتلاعب بكيمياء جسمه ..

ولكن لاغرابة إن كانت هذه ثقافة عصر ابن حزم ، الغريب حقيقة أن نجد مسلماً فى القرن العشرين والحادى والعشرين ، تكون كل معارفه الدينية وثقافته فى تحدى الغرب ومواجهته ، هى مجموعة خرافات مركبة تركيباً معقداً ، بحيث لا ينفك منها المسلمون؟!.. ويظلون قابعين فى ردهات الجهل والتخلف والتصورات الجائرة للتوحيد الإلهى ، وحرية الإنسان وقدرته على الاختيار والفعل ..

ليس من الخير فى شئ بقاء العقلية الإسلامية صريعة الوهم متجاوزة منهج القرآن فى النقد والتفكير والاستدلال والنظر .. وبدعوى أن ما يقوله مهاويس الحشوية وأتباعهم من أنصاف المتعلمين ، تعلماً دينياً ، من أن هناك أحاديث وروايات أو أيات تلزمهم بنقض التوحيد ، وجعل إبليس وجنوده شركاء لله ، تعالى ، بما يدعونه من سلطان الشياطين على الإنسان وقدراته وملكاته التى وهبه الله لها ..

لقد وقع تصور المسلمين للتوحيد فى مأزق صعب عندما آمنوا بالله الواحد الأحد القادر القاهر الغنى الملك المتكبر القدوس ، وآمنوا مع ذلك بإبليس والجن والشياطين القادرين على التصرف والتحول والوسوسة والإغواء وتغيير المقادير ، حسب ما يحلوا لهم ، أو على أسوأ الأمور حسب ما أمكنهم الله منه .. **فمن هذا اللعين الذى أدخل فى روع المسلمين أن الله أمكن الشيطان من إغواء الإنسان ، بعدما هداه إليه بحوله وقوته !**

* * *

(١) انظر كذلك الاشعرى : المقالات ٢ / ١٠٩ .. لقد كان لعلماء المسلمين القدماء موقفاً من صرع إبليس للإنسان مشرفاً .. فليراجع .. وإن حكى الاشعرى مذهب المجبرة فيمن ذكرهم .

الفصل السادس

حول الرسالة

١- ترجمة المؤلف ومصنفاته .

٢- وصف المخطوط .

٣- منهجي في التحقيق .

٤- نماذج من المخطوط .

١- ترجمة المؤلف ومصنفاته

هو الإمام أحمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم الحسنى العلوى ؛ الناصر لدين الله؛ إمام زيدى يمانى مشهور .. ومن كبار علمائهم وبسلائهم .. عرف بالجهاد ونصرة دين الله ؛ ولد سنة ٢٧٥هـ ولا يعرف أين ولد .. وربما كان ذلك بجبال الرس قبل أن يخرج والده **الإمام يحيى بن الحسين** ت ٢٩٨هـ مجاهداً وفاتحاً لليمن وإقامته لدولة الزيدية بصنعاء .. وذلك لأن الرس وما حولها ارتضاها جده **الإمام القاسم بن إسماعيل الرسى** موطناً له ، لما حطت به عصا الترحال ، بعد جهاد كبير للدولة العباسية عرف فيه طعم الغربة وعذابها لمدة عشر سنوات كاملة .

عرف الإمام أحمد الحفيد بما عرف به أجداده وآباؤه من آل البيت الأطهار ، من تقوى الله وورع وحب للدين والعلم ، والجهاد فى سبيل الله ، واشتهر من بينهم بأنه ترجمان الدين ، وذلك لغزارة علمه ونباهته ؛ وتولى الإمام أحمد الإمامة باليمن بعد أن قدم عليها فى بداية القرن الرابع الهجرى واعتزال أخيه لها - محمد المرتضى - طواعية وعرفاناً بمقدرة أخيه على القيادة وإدارة أمور الحكم ، سياسياً وعسكرياً .. وغير ذلك .

وما لبث الإمام أحمد إلا أن جهز جيشاً كبيراً قوامه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل لمواجهة دولة الباطنية الكافرة .. وتوجه به نحو الغرب ، فانتصر عليهم انتصاراً باهراً ، ودخل عاصمتهم عدن .. ونكل بالقرامطة .. وظل وضع الدولة قوياً ومزدهراً فى عهده حتى توفى بصعدة سنة ٣٢٥ / ٩٣٧م .

قال عنه **ابن الوزير** فى كتابه «**هداية الراغبين**» : «كان من الأئمة السابقين وعيونهم المعتبرين وسادتهم المطهرين ، وكان عالماً فاضلاً ورعا وزاهداً ؛ جامعاً لشرائط الإمامة ، كاملاً فى صفات الزعامة ، سالكاً منهج آبائه الأئمة الأطهار ، فى أحواله الخاصة والعامة» .

كما قال الفقيه حميد فى وصفه فى كتابه «**الحدائق الوردية**» : «نشأ على الزهادة والعبادة، واقتبس من نور والده الوقاد ؛ وارتوى من علم الآباء والأجداد ؛ فأحرز من علمهم الصافى الكثير ، وانتفع من ودق سحابهم الجون الغزير» .

وقد أشارت كتب الطبقات إلى تصانيفه العلمية ، بما فيها كتابه النجاة الذى شمل على ثلاث رسائل منها رسالتنا – هذه – التى قمنا بتحقيقتها .. فقالوا فى وصف كتبه : «له ، عليه السلام ، التصانيف الرائعة الشافية .. والكتب البالغة الوافية ، فى الأصول والفروع والمعقول والمسموع» .. ثم ذكروا كتبه على النحو التالى :

١– **كتاب النجاة** الفريد المتميز بقولهم : وفيه علم عجيب وكلام حسن غريب .. وهومجلد كبير يحتوى على عدة رسائل ، منها مسائل المجبرة عن وسوسة إبليس.» . وسيصدر قريباً بتحقيقنا بإذن الله .. بعد أن أمضينا فى تحقيقه ودراسته عامين كاملين.

٢– كتاب الدامغ .

٣– كتاب التوحيد .

٤– كتاب الفقه .

٥– كتاب التنبيه .

٦– كتاب مسائل الطبريين .

٧– كتاب الرد على الإباضية . حققناه وسيصدر قريباً ، إن شاء الله .

كما أن له كتاباً فى علوم القرآن تشهد له بالإصابة والتبريز منهاكتابه المشهور

٨– كتاب المفرد فى الفقه .

وقد ذكره الإمام حميد ..

ومن عجائب هذا الإمام العظيم المجاهد فى العلم والعمل .. أنه كان يخرج لغزواته ومعه كتبه وأدوات الكتابة من حبر وورق .. فيؤلف المسائل الصعبة والكتب الطوال وهو على ظهور الخيل .. وهو أمر لم نجد لأحد من السلف أوالخلف – له مثيل – على السواء !!

الكتب التى ترجمت للإمام أحمد :

١– **هداية الراغبين** : لابن الوزير لوحة ١١٣ و – حتى ١١٥ و

وهو مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم تحت رقم ٢٧٤٤ .

٢ـ **حميد المحلى** : الحدائق الوردية جـ٢ ورقة ١١١ ـ ١١٢

وهو مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم تحت رقم ٢١٣٦ .

٣ـ **عبد الله بن حمزة** : الشافى جـ١ ورقة ١٦٦

وهومصور بدار الكتب المصرية ميكروفيلم تحت رقم ٢٣٤ .

٤ـ **أحمد القرشى** : **بلوغ المرام** ؛ ص ٣٣ طبع بمصر ١٩٣٩ .

٥ـ اتحاف المسترشدين ، ص ٤٥ .

٦ـ **الجندارى** : **تراجم** الرجال جـ٦ .

٧ـ **الزركلى** : الأعلام ؛ ١ / ٢٦٨ .

٨ـ **كحالة** : **معجم المؤلفين** ١ / ٣٢٣ .

* * *

٢- فى وصف المخطوط

١- هذا المخطوط يمثل جزء هاماً من تراثنا الفكرى الإسلامى الناضج والحر ، والذى جاء فى فترة مبكرة من تاريخ الأمة العربية والإسلامية .. فقد كتبه الإمام أحمد وألفه إجابة على أسئلة بعض أتباعه ، ورداً على المجبرة الذين روجوا للجبر فى القضاء والقدر ، وذلك من خلال قصص القصاص والإسرائليات والخرافات والأساطير الموروثة عن الشعوب والأدب العالمى ، بكل ماتحمله من تأثيرات عقائدية فى الديانات المختلفة ، وخصوصاً الديانات الشرقية كالثنوية والمانوية والبوذية والمجوسية .

بالإضافة إلى تصور إبليس فى الديانات السماوية كاليهودية بماتحمله من تصور مادى وسطحى لحقيقة الألوهية والنصرانية وهى عقيدة حلولية .. ودور إبليس فى عقيدة التثليث هام وبارز ، وعليه عولوا فى سبب نزول ابن الله ، على ما يزعمون ويفترون – تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً ؛ لفداء العالم !

٢- تُمثل نهايات القرن الهجرى الثالث فترة ازدهار فكرى وأدبى واجتماعى .. ولم يمنع هذا من ظهور الدولة الطولونية بمصر ثم الإخشيدية ، وانفصال اليمن وقيام الدولة الزيدية به سنة ٢٩٦ هـ ، وكذلك انفصال الأندلس من قبل بنحو مائة وخمسين عاماً .

٣- القصد من ذلك أن العباسيين فى بغداد جمعوا من حولهم كل الاتجاهات والتيارات المذهَبية .. وتحولوا بعد عصرالمأمون والمعتصم عن التوجهات الفكرية الناضجة إلى التقليدية ، وحارب المتوكل الاتجاهات الحرة فى الفكر ، حتى يتيسر له حكم الدولة دون منازعات أو ثورات على الأوضاع السيئة ، وتقدم المحدثون والقصاص صفوف العلماء مما كان له أسوأ الأثر فى تاريخنا كله .. وراج الفكر الجبرى والتواكل ، وتأخر على إثر ذلك العلم الطبيعى .. وشاعت طوائف الزهاد والعباد والصوفية ، وتلاشت النهضة العلمية التى قدر لها أن تظل متوارية وباهتة .. **فورثت أوربا مناهج العلم والفكر الحر فى أواخر القرون الوسطى** ، وبنت عليها أسس نهضتها فى بداية العصر الحديث .

٤- ما يعرضه الإمام أحمد فى هذه الرسالة تلقفته أيدى فلاسفة أوربا فى عصر النهضة وأولوه كل عنايتهم .. ومن ينظر مقارناً يلاحظ لأول وهلة ويجد أن فكر المسلمين الأوائل الحر ، والذى يقوم على الكتاب والسنة المتواترة ومنهج العقل، بعيداً عن الغموض الفلسفى من جهة ، والانحراف الأسطورى والخرافة من جهة أخرى ، هو أساس البناء المنهجى الذى قام به زعماء الفكر الغربى بداية من المنهج **الديكارتى** والتجريبية عند **كوبرنيكس وكانت** ، والمنهج الاستقرائى والبراجماتية عند **جون لوك وجون ستيوارت مل** .. ثم ظهور نظرية العقد الاجتماعى والعدالة الاجتماعية ، وإرساء قواعد الدستور والديمقراطية والنظم التعددية .. كل ذلك خرج من عباءة الفكر الإسلامى الناضج فى البدايات ..

٥- ولذلك نقول إن هذه الرسالة ، ومثيلاتها من فكر الإمام أحمد بن يحيى وكتب أبيه يحيى بن الحسين ت ٢٩٨هـ ، وجده القاسم بن إسماعيل الرسى ت ٢٤٦هـ ، هو من أفضل ما قدم وكتب المسلمون فى القرن الثالث الهجرى حول التوحيد والعدل.. وإرساء قواعد المنهج وأسس الحرية الإنسانية وحرية الفعل الإنسانى بمنهجية ناضجة وواضحة .

٦- جاءت هذه الرسالة فى مجموع الإمام أحمد بن يحيى .. والذى سنصدره محققاً تباعاً ، إن شاء الله ..

وعنوانهـــا :

أ - (مسائل المجبرة عن وسوسة إبليس وسائر الشياطين) .

ب- وصفحاتها تقع بين ١٣٤ و - ١٥١ ط .

جـ- والنسخة التى بين أيدينا نسخة فريدة ومتميزة فى نوعها .. فقد كتبت بخط نسخى جيد سنة ٥٤٨هـ ، وعلى حواشيها بعض الشروح .. غير أن ذلك وقع فى هوامش رسالة النجاة .. وسلمت من شروح النسَّاخ والمعلقين من القراء عليها .

د - جاء على هامش هذا المجموع وبداخله ، كثير من التملكات والتوقيعات ، التى تبين مسيرة انتقال هذه النسخة بين أئمة الزيدية وكبار علمائها ..

هـ- توجد عدة أسباب لوجود هذه النسخة وحيدة فى مكتبتنا العربية ، من ذلك حرص الزيدية على تراثها من جهة ، وعامل الزمن وكيد الخصوم لهذا التراث . . أما لمَ لم تحقق وتخرج للنور ، رغم أهميتها البالغة ، فهو لزهد كثير من الدارسين فى التراث الفكرى ولصعوبته ، سواء من حيث التحقيق أو من حيث الدراسة . . وكذلك لظنهم أن النسخة قديمة ، وقد تعرضت لعوامل الزمن التى غيرت من معالمها . . غير أن هذا التغيير لم يؤثر على الكلام بحال . . ولكنه يخدع الناظرين إليها .

ز- ومسطرتها : ثنتان وعشرون سطراً (٢٢) .

ح- ومقاسها : ٢٠ X ٢٧سم .

ط- النسخة التى قمنا بتحقيقها مصورة عن النسخة اليمنية الموجودة بمكتبة الجامع الكبيرة بصنعاء تحت رقم ١٤١ علم الكلام - كتاب ٣٨ . .

وقد قامت بعثة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المختصة بالمخطوطات العربية، والتابعة لجامعة الدول العربية بتصويرها فى الثلاثاء ٢٤ من رجب ١٣٩٤هـ الموافق ١٣ من أغسطس ١٩٧٤ وإيداعها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، تحت رقم ١٥٧ يمن شمالى . . ومنها صورنا نسختنا .

* * *

٣- منهجي في التحقيق

١- قمت بمراجعة المخطوط مرات عديدة ، للتأكد من سلامته من النقص وعوامل التعرية . . ثم قمت بتصويره .

٢- تحققت من نسبة المخطوط لصاحبه ، بمراجعة كتب الفهارس وقائمة كتب الزيدية وكذلك قائمة كتب الإمام أحمد .

٣- نسخت المخطوط وقومته إملائياً .

٤- وضعت للقضايا عناوين ، وللمسائل عناوين داخلية ، وقسمته إلى فصول . . حتى يتيسر الانتفاع به . . كما نسبت الآراء والأفكار والمذاهب إلى أصحابها في كتبهم الأصلية .

٥- خرجت الآيات والأحاديث التي وردت بالرسالة ، ووضعت له فهرساً عاماً .

٧- ترجمت للشخصيات ، وعلقت على القضايا والمصطلحات .

٨- كما قدمت للمخطوط بدراسة عن « إبليس في التصور الإسلامي بين الحقيقة والوهم » . . ووضعت مقدمة له ، وترجمت للمؤلف . ومصنفاته .

هذا وأسأل الله العلي القدير ؛

أن ينفع به ، وهو ولي التوفيق ؛

القاهرة في ٢٥ / ٢ / ٢٠٠٠م

٤ - نماذج من المخطوط

تقليد الرجال بلا حجة ولا بصيرة ولا شاهد من كتاب الله عز وجل إلا ما تعلقت به من
متشابه القرآن الذي جهلت تأويله فقد علمت ما ورد عليك في كتابنا هذا من الشرح لكل
والاستشهاد بالقرآن عليك والحجة الواضحة التي لا مخرج لخصومها إنها الحجة إبرام وقد قال الله
تبارك وتعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون
ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون
آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ثم قال قوم إن الراسخين في العلم لا يعلمون
تأويل الكتاب جهلا منهم وبلا علم من الله إن الراسخين ليعلمون تأويل الكتاب وما يحتاج الناس إليه
من أمر دينها الذي بعثها الله عز وجل به ولولا ذلك لم يجب لهم اسم الرسوخ في العلم ومن لم يعلم تأويل
القرآن لا يجب له اسم الرسوخ في العلم والفقه لأن راسخا إن لم يعلم تأويل القرآن فأولئك هم أئمة الهدى
من أهل بيت النبوة عليهم السلام والراسخون في العلم هم أهل التنزيل والتأويل ولو لم يكن كذلك
علم الكتاب لما جاز أن يقول الله جل ثناؤه فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون والذكر فهو محمد
صلى الله عليه وعلى آله وسلم دليل ذلك قول الله عز وجل قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات
الله مبينات فصار الذكر هو الرسول وهذا ما لا دفع فصار أهل البيت عليهم السلام هم المأمور
الخلق بسؤالهم ولم يكلفوا أن يسألوا عبد الله بن يزيد البغدادي ولا عبد الرحمن بن [illegible] ولا [illegible]
نعيم ولا مسلم بن [illegible] ولا عبد الصمد ولا المعلم ولا عبدة بن عامر ولا أبا [illegible] السدوسي
ولا فلانا ولا إن ادعى عبد الله بن يزيد البغدادي هؤلاء الذين سميناهم أن جبريل صلوات الله عليه
كان يهبط على جدهم [illegible] التنزيل والتأويل وعلم الرسول [illegible] جبريل
[illegible] من الله عز وجل قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا
فإن صح ذلك فهم أولى [illegible] والإمام وأحق بالمقام وأحق بالإرث عليهم السلام والإمام
بالأحكام منهم فهذا جوابنا لعبد الله بن يزيد البغدادي على مسائله والحمد لله [illegible]
قال الإمام الناصر لدين الله [illegible]

ومن وصل إليه هذا الكتاب فهو حجة للناس وبينة للمسلمين فهو في أعظم الحرج حتى يكون
الله جل ثناؤه هو المطالب له يوم القيامة بما كتم من الحق قال الله عز وجل ومن أظلم ممن كتم
شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما يعملون والله عز وجل حسيب من ظلم وسيعلم الذين ظلموا
أي منقلب ينقلبون وصلى الله على سيد المؤمنين وإمام المسلمين وعلم المهتدين وخيرة رب
العالمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الأمين الصادق على الله جل ثناؤه والمستمسك بكتابه والتابع
لأمره حتى مضى صابرا محتسبا صلوات الله عليه وبركاته ورحمته عليه وعلى آله
الطيبين الأخيار الصادقين الأبرار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا تم الكتاب

يتلوه باب الهجرة عن [illegible]

في وسوسة إبليس وسائر الشياطين مما أجاب عليه الإمام الناصر لدين الله أحمد بن
يحيى [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين
وعلى آله الطيبين قد فهمنا أكرمك الله ما ذكرت عن القوم الذين جرى بينهم الكلام والمناظرة
في وسواس الجن وإبليس عليه لعنة الله كيف يصل إلى الإنسان وكيف أمره منه لنا والعداوة التي قال
الله عز وجل إنه لعدو لبني آدم [illegible] ويأمرهم بالفحشاء وذكرت أن قوما قالوا إن إبليس يلقي في قلوب
الإنسان أمرا وعدة ويسول لهم وهو عدو [illegible] وصول ذلك إلى قلوب الخلق واحتجوا
بقول الله عز وجل [illegible] الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ثم قال عز وجل
[illegible] ثم قال الشيطان
يحكي عنه إذ قال ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ثم
قال رب بما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم
[illegible] ثم قال
من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين

الا ترى الى قوله اني عرضت بالشركموني [illegible] فهذا يخرج على ما ذكرت لك فافهمه ان شاء
الله ووفقك وقد ادعا من ادعا من اصحابنا ان لكل انسان من بني آدم شيطانا يغويه موكل
به لما ادركنا عليهم ان ابليس [illegible] ويقل ويضعف عن ان يدعوا من اغوايه للخلايق في البر والبحر والشرق
والغرب فقالوا ان ما له اعوان يغوون له الناس وقد اجمع [illegible] هذا الباب من اهل
القول ان العدل ان الجن خلقوا ضربة واحدة ويموتون ضربة واحدة [illegible] ها هنا ان من مات
من بني آدم فقد بقي شيطانه بلا شغل [illegible] فقد ادعوا ان لكل انسان شيطانا [illegible] وليس
كذلك اخبرنا الله عز وجل انه خلقهم وانما اخبرنا انه خلقهم للعبادة لا للمعصية فاوجب
من خالفنا ان ابليس لهم عمل الا الاغوى فقد لزمهم ان من مات بقي شيطانه بلا شغل وان من جاز
يوسوس وينال من قلبه ضل فقد [illegible] وبقي بلا شغل وهذا فساد لا يجوز
ومن يعذرنا [illegible] يقول الهوا [illegible] ودلالة باهرة تشهد علينا عقولنا
وعقول من سمعنا من غيرنا ان سلمنا لهم وان لم [illegible] يجب لهم علينا ان ابليس الاصغر الذليل
الضعيف قدرة [illegible] اقداره الله عز وجل [illegible] هو تبارك وتعالى الذي [illegible]
احد غيره فالقول قولنا والحكم معنا دونهم وليس [illegible] الشك داخلا ولا [illegible]
[illegible] امير المؤمنين علي بن ابي طالب صلوات
[illegible] واما قولنا هذا [illegible] وقوله هو طاغ فانما
الله عليه ان علمنا اصحابه وما والى [illegible] الحكمين فلما [illegible] ذلك وقوله [illegible] في القرآن ولانا
اذا عدمنا على ارسالهما [illegible] بكتاب الله عز وجل فان وجدنا معاويه في القرآن [illegible]
[illegible] الله وان وجدنا [illegible] القرآن الى معاويه فليسلما اليه فاحتج عليه الخوارج بهذا
الكلام وقالوا [illegible] فقال صلوات الله عليه انما قلت
هذا [illegible] وقد قال الله عز وجل للنبي صلى الله عليه [illegible]
[illegible] صلوات الله عليه [illegible] واما هذا الحد الانصاف فافهم

ما شرحنا لك من الاحتجاج فاعمل فيه نظرك واعلم ان ابليس مع [illegible]
[illegible] في صدور [illegible] ولا يقع على كيفيه ذلك
يلزمنا بها [illegible] قدرة ابليس على الوسوسة [illegible] ولا يقع عليها الاوهام ولا
[illegible] الله عز وجل فلا يبعد الله الا الظالمين وسيعلم الذين ظلموا اي
منقلب ينقلبون ومن الحجة عليه [illegible] في صفة الله عز وجل [illegible] وحكمة الله عز وجل وحسن
فعله ورحمة عباده وتفضله عليهم [illegible] الحسنات [illegible] وليس
زعمنا ان قدرة الله عز وجل [illegible] على كل عبد [illegible] ابليس
لهما من القدرة على القلوب ولا على [illegible] الخواطر في النفوس [illegible] القدرة [illegible]
العاند افليس [illegible] المؤمنين [illegible]
قلوب [illegible] والامر بالمعروف والنهي عن المنكر [illegible] والرحمة [illegible] ابليس
[illegible] وسوسة ابليس [illegible] النفوس وانما
[illegible] بهذه المنزلة [illegible] والله عز وجل وابليس عدوه
[illegible] وابليس على ما لم يقدر [illegible] الملكين على الخير والقبح
[illegible] وعدله واتباع الهوى
سبحان الله العظيم [illegible] عز وجل [illegible]
خالف كتابه وحسبنا الله ونعم الوكيل واما قوله عز وجل [illegible] المسلمين ملة
[illegible] ابراهيم [illegible] هو سماكم المسلمين [illegible]
[illegible] الولادة [illegible] صلى الله عليه [illegible]
في الولادة وكذلك [illegible]